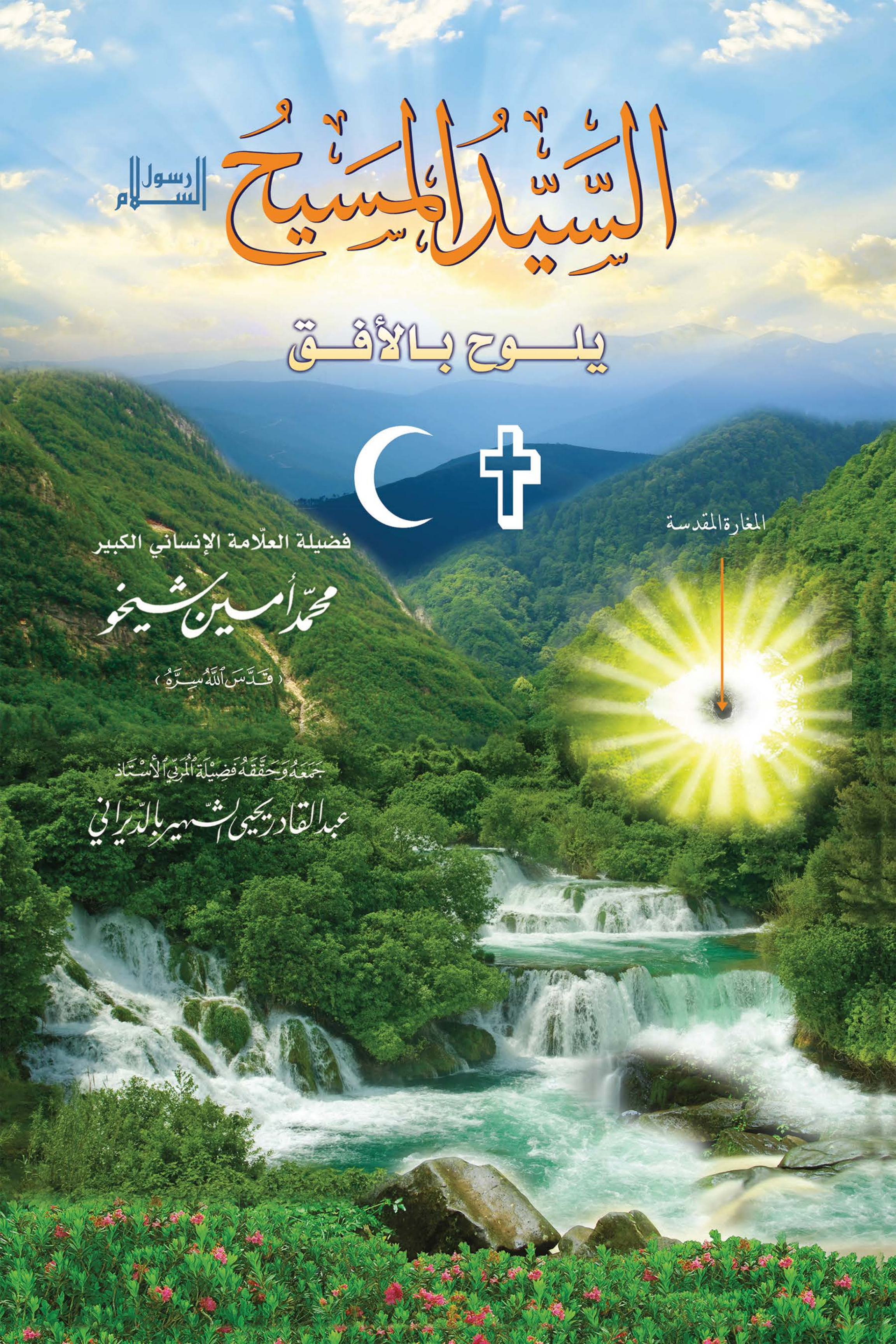
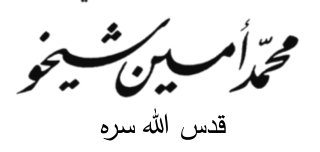

السَّيِّدُ المَسِيحُ
رسول السلام
يلوح بالأفق
المغارة المقدسة
فضيلة العلّامة الإنساني الكبير
محمّد أمين شيخو
(قدّس الله سرّه)
جمعه وحقّقه فضيلة المربّي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشّهير بالدّيراني

السيد المسيح

رسول السلام

يلوح بالأفق

فضيلة العلّامة الإنساني الكبير



قدس الله سره

جمعه وحققه الأستاذ المربي

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

إعداد

سامر أحمد الهندي

موقعنا على شبكة الإنترنت

www.amin-sheikho.com

info@amin-sheikho.com

ملاحظة هامة جداً:

بما أن هذا الكتاب اقتصرنا به على ظهور السيد المسيح وأمّه عليهما السلام بعد رقود تجاوز الألفي عام، لم نتطرق إلى البحث عن سيدنا المهدي العظيم عليه السلام، وقد ذكر في الأحاديث النبوية الشريفة، أنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، يرضى عنه ساكن الأرض والسماء، فعلمه إشراقي، ولا يعارضه إلاَّ مقلّدِة العلماء، كما عارض الفرِّيسيون سيدنا عيسى عليه السلام.

أما كتاب سيدنا المهدي فإننا سنفرد له بحثاً خاصاً فريداً لما له من أهمية بالغة.

* * *

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على خير مبعوثٍ للعالمين سيدنا محمد ﷺ الصادق الوعد الأمين.

لقد أضحينا في آخر الزمن، عمَّ الجهلُ وتغلَّب الهوى، واستعصت الشهواتُ في النفوس، استُحلَّ الحرامُ وحُرِّم الحلالُ، وفتحَ الناس باب الإباحية.

ظلامٌ دامسٌ وليلٌ أعتم القلوبَ والنفوس. ضبابُ الحضارة الكثيف أسملَ البصائر، ففرَّ الناس من الواقع، وغاصوا في غياهبِ الخمور والفجور، كما أغرق الضياء والنعيم، وحجبَ نور الحقِّ المقيم، قلق واضطرابٌ، ورعبٌ لا يفارقُ الصدور، من ظلم بني الإنسان للإنسان، ألمٌ عاصفٌ يجتاحُ الحنايا، يستنزف الدمعَ من مآقٍ غاضَ ماؤها لقسوة أهل الحضارةِ وعمَائِها.

كابوسٌ رهيبٌ ترزحُ القلوبُ تحت وطأته، ذلٌّ تخطى القيم لنفوس أبت إلاَّ الذلّ من أجل لقمة عيش كريهة، عسفٌ أذهلَ الكائنات لمن يدَّعون بالحضارةِ والإنسانية والمكرمات، مهرجانٌ عظيمٌ ولكن من الأنَّاتِ إذ بطشَ القويُّ بالضعيفِ، والرجالُ بالنساء والأطفال، والأغنياءُ بالفقراء، صرخات التوجعِ والآهات تترى والعذاب سِجال.

اغْتِيلت الفضيلةُ، وأمسكت الرذيلةُ بصولجان الإمارة، فحلَّت بواديهم مآسي الخزي والخسارة، دُفنت القيم، واستعلى الطاغوتُ، فقُتلت النفوس وافْتقدت السعادة، طُلِّق الحياءُ فأصبحت سوق الشيطان رائجةً، عندها حلَّ البلاء وانعدم الرضى وأضحت الحياةُ جحيماً لا يطاق.

اندثرت الحقيقة إذ هجرَ الناس القرآن، كما هجر من قبله الإنجيل والتوراة، وتكالبوا على العلم، الإآله المزيَّف **(علم المخلوق الضعيف لا علم الخالق العظيم)**، وأشاحوا عن الديّان مبدع الكمال ورب النعيم والسرور العميم، فانقطعت سبل السعادة، وغرق الناس في بحر الضنك والمرارة.

﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا...**﴾[1]. انكبّوا على ألوان الخمور والمخدرات يعبّون منها، وينشدون بها الفرار فترات، ليعودَ الأمر أشدُّ وأدهى وأكثرُ شراسةً وأطغى، حتى دفع اليأس والقنوط وخيبة الأمل من الدنيا الكثير الكثير في أمِّ الحضارات الخدّاعة الغرّارة إلى الانتحار وهجْر ما هفوا إليه من دنيا دنيّة.

آن الأوان ودار الزمان دورته، وملّت النفوس من الإعراض، إذ أترعت بالأمراض، حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فتعالت النداءات أن عودوا إلى الحق، فالعوْد أحمد، والرجوع إلى الحق خيرٌ وأحب إلى الله من التمادي في الباطل، لقد أبى الرحمن الرحيم إلاَّ أن ينقذ بني الإنسان من هذا الهوان، فبعد أن ذاقوا مرارة الإعراض من طغيانهم وبغيهم وفسادهم، عندما تخلوا عن الإلّه مبدع الأكوان والأرض والسموات، فحلَّ فيهم الشقاء والبؤس والبأساء، طلبوا الخلاص من رب الخلاص: فاستجاب لهم ربهم أني: ﴿.. **أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...**﴾[2]، سأبدّل شقاءكم نعيماً، وغمّكم وهمكم بهجة وحبوراً، وسأجعل أرضكم جنَّات وغبطة أبديّة، سأعيد إليكم رسولاً عظيماً كريماً، يطيِّب عيشكم في ظلال روح وريحان، ورضى وبهجة وأمان، بظهور سيّد الأكوان (في عصره) سيدنا (عيسى المسيح عليه السلام) إلى يوم تلقوني وأنا عنكم راض. فمن نعيم إلى نعيم أكبر، ومن سعادة إلى سعادة أعظم.

هذا العظيم الذي جاء للدنيا لهداية قومه، وجبر عثراتهم وإيقاظهم من رقادهم، ونقلهم من السعادة الموهومة الكاذبة إلى الحقيقة المنيرة المشرقة والكسب العظيم، وهم للمنطق ما استجابوا، وللعمى أرادوا، بذَل الكثير في نصحهم، وشقي لإسعادهم، لكن حب الدنيا هو رأس كل خطيئة، وما حلَّ في قلبٍ إلا أهمَّهُ ونغَّصه وأضناه، وفي الرذيلة والقسوة أرداه، فشهوتهم مستيقظة، وفكرهم في رقاد.

---

(١)_ سورة طّه الآية (١٢٤)

(٢)_ سورة البقرة الآية (١٨٦)

أحيا لهم الميّت، وأبرأ الأكمهَ والأبرصَ، ورأوا معجزاته كلها، وشاهدوا كمالاته ولطفه لمساً وحسّاً، ولكن قلبهم الأعمى بحب الدنيا جحد به ونكره، فاتهموه بالسحر، ناسين بغمرتهم المنحطة كمالاته الرفيعة التي لم يدانه فيها مخلوق، ولم يروا بمنظارهم المنحرف منطقه العالي الذي هو من الله مباشرةً، بل لم يشاهدوا لطفه وكماله، ورحمته وحنانه، فلم يعلموا لجهلهم على من يردُّون، فنكروا الوحي وأصمُّوا أسماعهم عن نداء ربهم الرحيم، فكان هُبوطُهم من سمائهم مُحْتماً، وفقدانهم لمنزلتهم التكليفية مبرماً، وقالوا كلمة الكفر ويا لهول ما قالوا، ظناً لا تحقيقاً بقولهم إنه المسيح الدجال، ثم الغضّ من أمّه الصدّيقة، التي هي أطهرُ نساء العالمين: ﴿..**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ**﴾[1]، فكانوا كمن يهوي من السماء فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق، هذا عن اليهود، أما النصارى فكان قولهم لا واقع ولا منطق فيه، إذ نسبوا له ولأمه الألوهية وهو عليه السلام براء من الشرك، فالشرك شيء عظيم ولم ولن يخطر له على بال، لأنه لا يرى إلا الله مستغرقٌ بالحضرة الإلٓهية، فانٍ وباقٍ بالله، لأنه مشاهد مبصر، فما نسبوه إليه لا أصل ولا وجود له في نفسه، وهو مستسلم بروحه وكلّيته وجسمه إلى الله، فمن أين جاؤوا بهذا القول وخرقوه وهو عليه السلام منه براء، بل سبق عليه السلام وحذَّرهم من الشرك بقوله:

﴿**... إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ...**﴾[2].

وإجلاءً لوجه الحقيقة، وتبياناً حقاً للخليقة أن نبين في هذا الكتاب:

(السيد المسيح رسول السلام يلوح بالأفق)

قصة السيد المسيح عليه السلام كاملة، وعلامات الساعة قبل مجيئه، ومفهوم الساعة وغيرها من البحوث الهامة، معتمدين على المنطق الصحيح بما نطق به الذكر

(١)_ سورة آل عمران الآية (٤٢)

(٢)_ سورة المائدة الآية (٧٢)

الحكيم من آيات بينات، ومن صلب الواقع المحسوس الملموس، وردّاً على ما ذهب إليه البعض من مزاعم باطلة، لا أصل لها ولا وجود.

فهذا كتاب جديد كل الجدة، غريب كل الغرابة، لم يعهد الناس كتاباً مثله، ولم تألف البشر مثل هذه المعاني، ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يكن بدعاً من البدع، لأن العلاَّمة الإنساني محمَّد أمين شيخو قدَّس الله سره لم يخرج به عن كتاب الله ولا سنّة رسوله ﷺ.

وكل ما خُطَّ ضمن هذا الكتاب اقتبسناه من ثنايا علومه القرآنية.

إن هذا العلم غريب، لأن الدين أصبح غريباً، جديد، لأن معظم الناس قد هجروا ما أنزل الله واتَّبعوا ما نسب إلى آبائهم.

لقد هجر المسلمون القرآن الكريم، ويمموا وجوههم شطر الحديث والفقه وغير ذلك، دون النظر إلى توافقهما والقرآن الكريم.

من أجل ذلك غدا الدين غريباً، لأن القرآن أصبح مهجوراً، وإذا ما أضعنا القرآن ولم نتدبر آياته، وجعلناه وراء ظهورنا، فإننا أضعنا الدين كله، وإنك لترى الدين قد عفَّت حقائقه، فلم يبق من الإسلام إلاَّ اسمه، ومن القرآن إلاَّ رسمه.

لقد ورثنا مما نسب إلى الآباء، تركة لا خير في معظمها، فبدلاً من أن يوجهوا الناس إلى التفكر في آيات الله الكونية، وإلى التدبر في هذا القرآن العظيم، راحوا يوجهونهم إلى سفاسف الأمور، من الخرافات والقصص الإسرائيلية، والإفاضة بما هو غير جوهري، وذلك بغية تحويل الناس عن طريق الإيمان، وعن معاني هذا القرآن العظيم، ثم إغراق الناس في اختلافات الفقهاء، وكثرة الآراء التي لا يعرف الإنسان بأيٍّ يأخذ.

وأوْلى لمن أراد أن يخوض هذا البحر الخضم أن يحسن العوم، أو يصطحب قارباً للنجاة ودليلاً مرشداً، وإلا ابتلعه الموج إن لم تدركه رحمة من ربه، وسوف يعيش في ظلمة، بل في ظلمات من الشكوك بعضها فوق بعض.

﴿...**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾(١): يهتدي به في حياته وفي أعماله.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢): فلا تحصل التقوى وهذه الرؤية بالنور إلاَّ بعد الإقبال القلبي النفسي بصحبة رسول الله ﷺ على الله تعالى.

لقد أمرنا الله أن نتبع ما أنزل، لا أن نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، ولم يأمرنا أن نتخذهم أرباباً، نسمع كلامهم ونشركه مع كلام الله.

ولا تغرنَّك هذه الملايين المطمئنة والمصدقة للذي جاءت به الأجداد، لأن أغلب الناس لا يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾(٣): يسكتون إذ لا حجة لهم في رد الحق عند مجابهتهم به، دنيا وآخرة.

لذلك فإن الله تعالى خلق الإنسان في هذه الدنيا وهداه: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى**﴾(٤)، بأن أرسل له الرسل الكرام، معلِّمين هادين لطريق الإيمان، كي لا يضلّهُ أكثر من في الأرض عن الحق، ومن لم يدخل مدرستهم ولم يَسرْ بسيرهم، ولم يدرس ولم يتبع ما أنزل الله عليهم، فإنه بوادٍ والهداية بوادٍ آخر، لذا علينا أن نقتدي بهدْيِ رسله الكرام، ونسلك الطريق التي بها اهتدوا إليه، وندخل المدرسة التي منها تخرجوا،

---

(١)_ سورة النور الآية (٤٠)

(٢)_ سورة الحديد الآية (٢٨)

(٣) _ سورة الأنعام الآية (١١٦)

(٤)_ سورة الليل الآية (١٢)

ونحصل على شهادة (لا إله إلا الله) التي منها حصلوا عليها، والتي أصبحت لهم العين التي يرون بها الحقائق، والأذن التي يسمعون بها، والقلب الذي يفقهون به معاني كلام الله الذي أحاط بأسرار الكون، واللسان الذي ينطقون به[1].

ومن لم يتخرج من هذه المدرسة، فلا وربك لا يؤمن ولو قرأ كتب الأولين والآخرين، أو كلَّمه الموتى، أو أي شيء يكبر في صدره.

﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾[2]: ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ...**﴾: (أنت يا حبيبي يا محمد): ﴿**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾: فلن تكون أبداً من الممترين.

فمن لم يؤمن بالله، فلن يجعل الله له نوراً، ولن يجعل له فرقاناً يفرق الحق من الباطل، والغثَّ من السمين، وهذه المدرسة مفتوحة الأبواب في كل حين، ولمن يشاء، وليس علم الله أو العلم بكتابه مقصوراً على أمة دون أمة، ولا زمان دون زمان، ولا خزائن رحمته مفتوحة على أناس دون أناس.

﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء...**﴾[3]: كلُّ من يشأ بصدق فالله يؤتيه فضله العظيم. فما أرسل الله رسله ورسوله إلاَّ رحمة للعالمين. فما خصَّ عالماً دون عالم.

﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ...**﴾[4]: الكل عند الله واحد، كل امرئ يعطى على حسب صدقه وسعيه: ﴿**..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...**﴾[5]. ﴿**...وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[6]: ما تطلبه تجده.

---

(١)_ سنبين بحث الإيمان بنهاية هذا الكتاب.

(٢)_ سورة البقرة الآية (١٤٧)

(٣) _ سورة الجمعة الآية (٤)

(٤) _ سورة الإسراء الآية (٢٠)

(٥) _ سورة الحجرات الآية (١٣)

(٦) _ سورة الإسراء الآية (٢٠)

لقد تساءلت قريش من قبل فقالوا: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا...﴾[١]: ألم يجد الله من القوم سواه؟

أجل، لقد أنزل عليه الذكر لا من بينهم فحسب، بل من بين كل الأمم، لأنه كان صادق النيَّة والطلب لأن يتعرف على مبدع الوجود، فكان يذهب إلى شعاب مكة، يسير فوق بطاحها، ويتسلق جبالها، ويقضي الأيام والليالي يتفكر في خلق السماوات والأرض، حتى أتاه اليقين من رب اليقين، في وقت كانت فيه قريش تلهو وتلعب وتسمر، وتشغل نفسها بزينة الدنيا ومتاعها.

وعلى الإنسان قبل أن يستغرب، فهل حاول ولو لمرة واحدة، أن يسلك النهج الذي سلكه القدوة الحسنة ﷺ ؟

أم أن الاعتقاد والذي كتب في الماضي دون توافقه والقرآن الكريم هو الذي يوصل إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، أما لاحظت كم من آية يمرون عليها في تفاسيرهم وهم عنها معرضون؟

أما أمرنا الله تعالى أن نتفكر في خلق السماوات والأرض؟

والتفكر بالخلوات والموت، لتزهد النفس بالدنيا الدنية المنقضية، والتفكر بالفلوات للوصول لرب الكائنات، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟

أم أنهم ينتظرون أن تأتيهم الهداية من رب العالمين، دون أن يطلبوها هم، كما طلبها أبونا إبراهيم عليه السلام، أو دون أن يكلفوا أنفسهم قليلاً من الجهد؟

وكيف يهدي الله قوماً يقضون أعمارهم في مراتع اللهو واللعب، أو القيل والقال؟

أم كيف يهدي الله من أغفل عنه قلبه، واتخذ إلّهه هواه وكان أمره فرطاً؟

---

(١) _ سورة ص الآية (٨)

فلو شاء الله لهدى الناس جميعاً، ولكن أي فائدة يجنيها الإنسان إذا سيق إلى ما يكره بالقوة؟ ألا تبقى نفسه معرضة إذا أكرهت على عمل ما؟! بل قد يزداد إعراضها إذا أُجبرت على شيء ليس لها رغبة فيه.

إن الهداية الحقة هي أن يُقبل الإنسان عن طوع وبدافع ذاتي، حتى يكون الإيمان إيماناً ذاتياً شهوديّاً عاينه هو وتحقق منه وعقلَه، وأيقن به قلبه، فيقول أشهد أن لا إلّه إلا الله شهوداً. فالإيمان شهود بالعين عين الرأس، ثم شهود قلبي بعين النفس.

عندئذ يشاهد الخير والعدل، ويلمس الرحمة والحب يسري في الوجود كله، فلا رحمته تعالى تسبق عدله، ولا غضبه يسبق رأفته، فهو سبحانه قائم بالقسط، وهو جلَّ شأنه على صراط مستقيم.

إن الله وحده بيده الخير للمحسن والمسيء على حد سواء، ومن لم يشهد ذلك في الدنيا، فسوف يشهده في الآخرة، وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك، فإنه لا يوجد ظلم بين الناس، وما دام لا يوجد ظلم فلا يوجد شر.

إن ما نراه شراً، هو محض الخير لمن يصيبه، لأن هذا الشر الذي أصابه سينقذه من شر أعظم لو لم يصبه، وهذا الشر ما كان ليصيبه لولا ما قدمت يداه، إن شق البطن شر بالنسبة للمعافى، إلا أنه الخير كل الخير لمن تخرج به علَّته.

والظلم أيضاً لا يقع إلا على من يستحقه، والظالم لا يقع ظلمه إلاَّ على ظالم مثله قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾(١): من أعمالهم.

إذ لعله بتلك المصيبة يرجع عن غيه ويتذكر ما قدمت يداه، ويتوب إلى الله توبة نصوحاً، عندئذ يرتفع عنه الظلم. بل قد يمكنه تعالى من الذي ظلمه.

---

(١) _ سورة الأنعام الآية (١٢٩)

هذا التصرف لا يقتصر على الأفراد فحسب، بل يتعداه إلى الأمم والشعوب، فالأمة التي يكون فيها من القابلية للإيمان أكثر من غيرها، يسلط الله عليها أمة أظلم تسومها سوء العذاب لعلها تتضرع إلى الله، وتبتعد عما هي فيه من اجتراح السيئات، فتتيب إليه تعالى، عندئذ يبدل الله سيئاتها حسنات، ويرد لها الكرة على من ظلمها، لا لتبطش وتنتقم لنفسها، بل لتردها أيضاً إلى طريق الهداية والصلاح.

ينقسم الجنس البشري إلى أصناف ثلاثة: **(إنساني، وظالم، وأظلم)**.

والظالم هنا هو الظالم لنفسه، الذي يسلك مسالك **(حيوانية)** لتحقيق أهوائه، والأظلم هو ظالم لنفسه ولكن يسلك مسالك **(شيطانية)** لتحقيق أغراضه المنحطة. وهذا التقسيم ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد، وبما أن الإنسان الإنساني بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى مفقود أو شبه مفقود في هذا العصر، لذلك لم يبق إلاَّ الظالم والأظلم منه، وفي هذه الحالة يسلّط الله الأمة الأظلم، على الأمة الظالمة، لعلها تصحو من غفلتها، وترجع إلى إنسانيتها، فيبدل الله ضعفها قوة، وذلها عزاً، وخُذلانها نصراً على من ظلمها، لعل الأخرى ترجع إلى الله، وترتاح البشرية بعدها من هذا الشقاء، ومن هذه الآلام التي تصيبها.

غير أن الواقع يشير إلى أن الأمل في الرجوع كاد يصبح مستحيلاً: ﴿**.. وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾[1]، لذا بات البلاء متوقعاً والساعة قريبة، والسيد المسيح عليه السلام، المنقذ للبشرية من الشقاء والآلام، ومن الكفر والحرمان، قد لاح بالأفق:

﴿**... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[2].

تقديم الناشر

(١) _ سورة الرعد الآية (٣١)

(٢) _ سورة الروم الآيات الآية (٤ - ٦)

الفصل الأول

في هذا الفصل:

- **نحو مفهوم الساعة.**
- **قوم سيدنا نوح ﵇.**
- **قوم سيدنا هود ﵇ (قوم عاد المعروفين بالعمالقة الأشداء).**
- **قوم سيدنا صالح ﵇ (قوم ثمود).**
- **قوم سيدنا لوط ﵇.**
- **قوم سيدنا شعيب ﵇ (أهل مدين).**
- **غاية الحق من إيجاد الخلق.**

نحو مفهوم الساعة

إن البشرية في هذا العصر تعاني قلقاً نفسياً حاداً. وذلك بما أحدثته الثورة التقنية من طغيان مادي كثيف، ألقى ظلاله القاتمة على الأنفس فسدَّ عليها منابع النور، وحجبها عن موطن الخلود.

وهذه الثورة أغرقت الناس في متاهات فكرية، متعاكسة أحياناً، ومتشابكة في أحيان كثيرة.

لقد كانت الثورة العلمية التقنية حلماً يدغدغ أحلام بعض المفكرين، وكانوا ينظرون إليها منذ أواخر القرن التاسع عشر نظرة المنقذ من الفقر والمرض والجهل. وقد أطلقوا لأفكارهم العنان، فوصفوها وصفاً مسرفاً في اللاواقعية، وشنُّوا حرباً شعواء على النظم والمعتقدات القديمة، وقالوا إنها شاخت واهترأت، ولم تعد تصلح لهذا العصر، وكما حكموا على النظم والمعتقدات بالشيخوخة والاهتراء، حكموا على الإلّه بالموت [انظر كتاب (نيتشه) هكذا تكلم زرادشت].

وأعلنوا عن مولد إلّه جديد، هو إلّه العلم أو العقل الجبار، وأن هذا الإلّه سوف يسخِّر الطبيعة، أكثر مما سخَّرها لهم الإلّه القديم.

وصدَّقت الناس داعي الشيطان، وخاصة الغرب والشرق الأقصى، وأشاحت بوجهها عن مبدع السماوات والأرض، فهجرت بل واستهزأت، بكل ما جاء به من سنن وشرائع ومُثل، واستبدلتها بشرائع وسنن من وحي سدَنَةِ هذا الشيطان المريد.

غير أن هذا الإلّه الذي داعب مولده مخيلة المفتونين به، قد تمخض عن نار يلوِّح للبشرية بين الحين والحين، بالدمار الشامل والهلاك الأكيد.

ولقد رأوا من بعد ما تبين لهم رفاههُ، أنَّ طعامه ذو غصَّة، وإن عليه لشوْباً، والسعادة المنتظرة التي كانوا يحلمون بها، إنما كانت كسراب بقيعة، يحسبه الذين

استحبوا الحياة الدنيا ماءً، فيه الحياة وفيه السعادة والهناء. ولما جاءوه لم يجدوه إلاَّ وهماً، ولم يجدوه إلا ألماً وشقاء، وكفى بذلك واعظاً، لو كانوا يعقلون.

إن فاطر السماوات والأرض قد أبدع الوجود، على أحسن ما يكون الإبداع، وشرَّع لنا من النظم ما تتوافق والفطرة التي فطر الناس عليها.

لقد بنى الوجود على سنن غاية في الدقة، وغاية في الإبداع والجلال، وترك للإنسان المجال لكي ينظر في نفسه حين كان نطفة، وكيفية أطواره في بطن أمه، وينظر إلى السماء كيف رُفعت، وإلى النجوم كيف حبكت، وإلى الجبال كيف نُصبت، وإلى البحار كيف ملئت، وإلى ما بث في الأرض من دابة كيف خلقت، وإلى ما أنبت فيها من كل زوج كريم.

ترى من الذي قام بكل هذا ويقوم؟ ومن الموجد العظيم، الذي مدَّ ويمدُّ الوجود الآن وفي كل آن؟

ثم جعل "جلَّ شأنه" شرائعه متوافقة مع الفطرة التي فطر الناس عليها، وهي تهدف إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فقد بنيت تلك الشرائع على مبادئ قويمة، تنهض بالأنفس لتسمو بها، وتربطها بخالقها، وبهذا الرباط أو هذه الصلة تستطيع أن تتحرر من عبودية المادة، التي ما إن تستولي على النفوس حتى ترديها، وتجعلها تعيش معيشة ضنكاً. وبهذه الصلة، يتبدد الخوف من قلب المؤمن، ويزداد الرجاء كلما تقدمت به السنون، وقرَّبته إلى المصير المحتوم، لا يتضجر إن أقبلت الدنيا عليه، أو أدبرت.

وكذلك لا يبالي إن اعتل أو أصابته مصيبة، لأنه يعلم أن الحياة الدنيا ليس لها من بقاء، والآخرة هي الحياة الباقية.

أما الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وجعلوها مبلغ همهم، فإن قلقهم يزداد في أمسيات العمر، فيزدادون هماً وغماً، إن أقبلت أو أدبرت، أو أصابهم مكروه.

إن الذين يأملون، أن يجعل لهم إلّههم الحياة الدنيا فردوساً جميلاً، وأن يسخِّر لهم الطبيعة بأكثر مما تجود به، أولئك هم الموهومون، وأولئك هم المغبونون لا في الآخرة فحسب، بل وفي الحياة الدنيا أيضاً.

وهذا الإلّه الذي يأملون منه أن يجعل لهم الدنيا جنات وقصوراً، سوف يفسد عليهم أحلامهم، وسوف يكتوون بناره عن غضبة يغضبها، ويجعل ما بنوه بواسطته من حضارة، قاعاً صفصفاً.

إن هذه الثورة (التقنية) قد جاءت مخيبة للآمال، إذ أنها أبعدت الناس عن السعادة الحقيقية التي لا تقارن مع تلك السعادة الحسيَّة الموهومة، ذلك لأن السعادة الحسية بحقيقتها ليست سعادة، وإنما هي لذائذ وقضاء شهوات ورغائب، وشتان بين هذه وتلك.

ذلك لأن شهوات النفس كثيرة، وطاقتها غير محدودة، بينما طاقات الإنسان الجسمية محدودة، والفارق بين الطاقتين هو مبعث الألم ومبعث الشقاء، فتركيب طاقة غير محدودة على طاقة محدودة، يجعل الأخيرة لا تستطيع أن تلبي رغائب الأولى.

النفس كالفرس الجموح، كلما قضت من شهوة وطراً طلبت أخرى من غير ملل أو كلل، لأن ماهية تكوينها غير مادي، وهذه الطاقة غير المحدودة لم يعدّها تعالى لتملأ أوضاراً، وإنما أعدت لتملأ كمالاً وجمالاً مطلقين، ولتشرب من معين لا ينضب.

وشتان بين تلكما الحالتين، لذائذ زائفة كفيلة بإنتاج الضجر والسأم مشوبة بالهمِّ والغم والألم ومنتهية من قبل أن ينتهي الإنسان من الدنيا، وسعادة مستمرة ومتزايدة تظل معه إلى الأبد[١].

(١) _ لطفاً انظر كتاب الآية (الفتوحات المحمَّدية) للعلاَّمة محمَّد أمين شيخو قدَّس الله سره الآية (بحث السعادة وحقيقتها).

وفي الآخرةِ لا توجد إلا حقائق، والزيف ليس له وجود هناك، ولذا فإن نفس المعرض عن الله في الحياة الدنيا، بسبب اتّباعه لشهواته، تذهب إلى بارئها عمياء، لأنها لم تحاول أن تتعرف على الحق في الدنيا. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ...**﴾: كنت أعمى البصيرة في الدنيا. ﴿**...أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى**﴾[1]! أننساك اليوم! لا بدّ أن يُساق لنفسك ما يلزمها من علاج. ويدعم هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿.. **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[2].

﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[3].

وبما أن الله سبحانه وتعالى حريص على سعادتنا، فإنه يسوق لمن كفر به من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، لعلهم يرجعون عمَّا هم فيه من الشقاء، إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وتخليصهم من حب الدنيا التي هي مصدر كل شقاء وكل ألم.

قال تعالى: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[4]: و(**لعلّ**) هنا تبين بوضوح أن الاختيار مطلق للإنسان.

لذلك فإن الهلاك سوف يحلُّ بساحة البشرية إذا خالفت السنن أو القوانين التي أوجدها تعالى لهم، وتجاوزت إلى نقطة اللاعودة إلى الله عز وجل. لقد ضرب تعالى من الأمثلة العملية فيما حل بالأمم السابقة، عندما تجاوزت تلك السنن

(١) _ سورة طه الآيات الآية (١٢٤-١٢٦)
(٢) _ سورة الحج الآية (٤٦)
(٣) _ سورة الإسراء الآية (٧٢)
(٤) _ سورة السجدة الآية (٢١)

الموضوعة لسعادتهم، ولم يقبلوا بتحطيم الحواجز التي حالت بينهم وبين السبيل إلى الله تعالى، كقوم نوح عليه السلام وقوم عاد وثمود وفرعون...

أما اليوم، فمهما بذلت البشرية من جهد لكي تتخلص من الآلام والشقاء الذي حلَّ بها، أو من هذا القلق الحاد الملازم لها ملازمة الظلِّ لصاحبه، من هذا الضياع والضلال البعيد، ومن تلك المتاهات الفكرية المتعاكسة والمتشابكة، التي منها يظنون أنهم سوف يتوصلون إلى السعادة المنتظرة. فإنهم لن يفلحوا أبداً بذلك، ولن يفلحوا إلا بشرط واحد، هو العودة إلى إقامة شريعة الله في أرضه قولاً وعملاً، وأخذها بقوة، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا! فلينظروا زلازل وبراكين وأعاصير مدمرة، وأمراضاً فتاكة، كما وقع ويقع اليوم، وبعدها ينظرون ناراً تصهر الحديد الصلب، وتُفتِّت الحجر الصَّلد، وما ذلك عن الظالمين ببعيد: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾[1]: هذا قانون، كل من سار بهذا السير، حق عليه الهلاك.

لقد ضرب لنا تعالى في كتابه العزيز الكثير من القصص عن هلاك الأمم، التي تخلَّت عن السنن الإلَهية، واتَّبعت شرائع من وضع أهوائها، وبين لنا الأسباب التي حالت بينهم وبين الرجوع إلى دين الحق، ثم النتائج المؤسفة التي انتهوا إليها.

وكان تعالى قبل هلاكهم يرسل إليهم نذيراً، يحذرهم من مغبة معتقداتهم وأعمالهم المخالفة لسنن الوجود، ويبين لهم أن تلك المعتقدات لا تزيدهم إلا شقاء، ولا تزيدهم إلا بؤساً وابتعاداً عن منبع السعادة الحقيقية، إلا أن دعوتهم غالباً ما كانت لتلقى إلا آذاناً صماء وقلوباً غلفاً، ذلك لأن المادة قد أوصدت أبوابها على عقولهم، وأغرقتهم إلى الأذقان فهم مقمحون. لا يفلحون بل لجهلهم وعدم إيمانهم

---

(١) _ سورة هود الآية (١٠٢)

يستعجلون: ﴿.. **بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ...**﴾[١]: ما حدث للأمم الغابرة، ماذا حلَّ بهم؟!

والآن وقبل أن نبيّن معنى الساعة التي يأتي فيها السيد المسيح عليه السلام، ونميزها عن الساعة التي بها تقوم القيامة، نريد أن نستعرض معتقدات وأعمال تلك الأمم التي أُهلكت، والحوار الذي دار بين تلك الأقوام ورسلهم، ثم نتقصّى الأسباب التي منعتهم من أن يستجيبوا لداعي الله. وأخيراً ذكر النهاية المؤسفة التي انتهوا إليها. فإذا وفقنا إلى ذلك، وهذا ما نأمله من الله سبحانه وتعالى، فإن موضوع الساعة سوف يتكشف لنا معناه، وسوف يزول كل التباس نتيجة المقارنة بين مفهوم الساعة التي يأتي فيها السيد المسيح، ليمسح آلام البشرية وينقذها، وبين الساعة التي بها تقوم القيامة.

إن أول الأمم التي ذكرها تعالى في كتابه الكريم والتي أهلكت بسبب انحرافها عن الطريق المستقيم، هم قوم سيدنا نوح عليه السلام.

تلك الأمم التي ساقها الله مُثلاً كافية من حيث الموعظة والعبرة، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، لأن ما قيل للرسل الذين لم يذكرهم تعالى، هو نفس ما قيل لغيرهم من الرسل [٢]، الذين ذكروا في القرآن الكريم، أو لأي رجل صالح يهدي إلى الحق. قال تعالى: ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ**﴾[٣].

وقال جلَّ شأنه: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾[٤].

---

(١) _ سورة الرعد الآية (٦)

(٢) _ قال تعالى:﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ سورة غافر. الآية (٧٨)

(٣) _ سورة فصلت الآية (٤٣)

(٤) _ سورة الذاريات الآية (٥٢-٥٣)

وهاك ما قاله أبو الفتح أحمد الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) حول هذه الفكرة:

(..... ومن جادل نوحاً، وهوداً، وصالحاً، وإبراهيم، ولوطاً، وشعيباً، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. كلهم نسجوا على منوال اللعين الأول ((إبليس)) في إظهار سفاهته، وحاصلها يرجع إلى دفع التكليف عن أنفسهم، أو جحد أصحاب الشرائع والتكاليف بأسرهم). إذ لا فرق بين قولهم: ﴿.. **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا...**﴾[1]، وبين قوله: ﴿..**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾[2]، وعن هذا صار مفصل الخلاف ومحز الافتراق ما هو في قوله تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾[3]

فبيَّن أن المانع من الإيمان هو هذا المعنى، كما قال المتقدم الأول: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[4]. وقال المتأخر من ذريته على لسان فرعون كما قال المتقدم، ﴿**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾[5]

وكذلك لو تعقبنا أقوال المتقدمين منهم وجدناها مطابقة لأقوال المتأخرين: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ...**﴾[6]، إن الآية التي مرت معنا قبل قليل: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾[7]: تعتبر من السنن التي لا تتبدل ولا تتحول على مر الزمن، وأنَّى مرت كلمة (كذلك) في القرآن

---

(١) _ سورة التغابن الآية (٦)

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٦١)

(٣) _ سورة الإسراء. الآية (٩٤)

(٤) _ سورة الأعراف الآية (١٢)

(٥) _ سورة الزخرف. الآية (٥٢)

(٦) _ سورة البقرة الآية (١١٨)

(٧) _ سورة الذاريات الآية (٥٢)

الكريم، وكما هي في الآية الآنفة الذكر، فإن القول الذي يأتي بعدها يكون في أغلب الأحيان قانوناً أو سنة من تلك السنن التي عناها تعالى بقوله: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾(١).

تلك سنن وقوانين لا تتبدل ولا تتحول، فما قام به الأولون الذين لم يؤمنوا من قول أو فعل، لا يختلف من حيث الجوهر عما قاله المتأخرون، لذلك فإن الله جلَّ وعلا اقتصر في ضرب الأمثلة على بعض الأمم التي تعتبر أقوالها التي تنم عن معتقدها وأفعالها، نماذج عملية لهلاك كل أمة تسلك مسلكهم، وتعترض على رسولها اعتراضاتهم.

والآن وبعد هذا الذي ذكرنا، نريد أن نتناول بشيء من التفصيل أهم الأمم التي طبقت عليها تلك السنن، فمن تلك الأمم:

(قوم سيدنا نوح)

(قوم سيدنا هود)

(قوم سيدنا صالح)

(قوم سيدنا لوط)

(قوم سيدنا شعيب)

عليهم السلام

* * *

---

(١) _ سورة الأحزاب الآية (٦٢)

قوم سيدنا نوح عليه السلام

لقد أرسل الله سيدنا نوحاً عليه السلام إلى قومه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ، فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[1] إن دعوة سيدنا نوح عليه السلام أو أي رسول من رسل الله الكرام، هي توجيه الناس نحو عبادة الله، خالقنا الذي لا إلّه إلا هو، وتلك كلمة باقية إلى يوم القيامة، وتلك خير ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، وتلك هي الغاية التي خلقنا من أجلها. أما الغاية من عبادتنا له، فهي ليس كما يدعي البعض بأن الله يتباهى أمام ملائكته، فسبحانه وتعالى عن مثل هذا الوصف. وإنما الغاية هي تزكية الأنفس، وتطهيرها مما علق بها من الشوائب، ذلك لأن تزكية الأنفس لا تكون إلا بالصلة بالله وبالصلاة، وبعبادتنا لله، التي تعني الطاعة التامة، والاستسلام المطلق لأوامر الله، حيث تكتسب الأنفس المطيعة الثقة برضاء الله عنها، وبتلك الثقة تتوجه الأنفس من غير خجل، أو من غير حجاب يحجبها عنه فتصبغ النفس بإقبالها على الله بصبغة الكمال: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾[2]، وبذلك الإقبال والصلة بالله والصلاة، تمحى من النفس شوائبها وذنوبها، وتحل محلها الفضائل، وتلك الفضائل التي اكتسبها الإنسان من الله، تصلح سريرته، ويصلح عمله، وإذا صلحت الأنفس، صلحت الأعمال، وبالتالي صلح المجتمع. وإذا صلح المجتمع، فكيف لا يعيش أفراده في سعادة وهناء؟ من أجل ذلك طلب إلينا تعالى أن نتمسك بشريعته، لكي نعيش سعداء في الدنيا والآخرة.

---

(١) _ سورة هود. الآية (٢٥-٢٧)

(٢) _ سورة البقرة الآية (١٣٨)

لقد بلَّغ سيدنا نوح عليه السلام ما أوحي إليه من ربه، ولاقى من الذين كفروا من قومه مثل ما لاقى غيره من الرسل فقالوا: ﴿.. **مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾(١). وهذا الإنكار على الرسول، هو الذي يمنع الناس من الإيمان بالله.

قال تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾(٢). وهذا الإنكار إنما يرجع إلى عدم رؤية كمال الرسول الكريم لذلك: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾(٣).

كذلك اعترضت قريش على سيدنا محمد ﷺ بمثل هذا الاعتراض: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾(٤).

والسبب في هذا الاعتراض هو وكما ذكرنا عدم رؤية كمال الرسول محمد ﷺ، وإنما شاهدوا عظمة الرجال بالمال أو الجاه، وبمعنى آخر إن معظم الناس تنظر إلى ظواهر الأمور دون البحث في حقيقتها.

لقد بيَّن سيدنا نوح عليه السلام ما لقيه من قومه من إعراض، بالرغم من دعوته المتواصلة ليل نهار، إسراراً وإعلاناً، ومع ذلك فإن دعوته ما كانت لتلقى آذاناً صاغية من قومه، بل جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأصروا على كفرهم إصراراً، واستكبروا عن سماع الحق استكباراً، فقد بين لهم رسولهم كيف أن الله تعالى خلقهم أطواراً، وكيف خلق الله سبعَ سماوات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس

---

(١) _ سورة هود الآية (٢٧)

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٩٤)

(٣) _ سورة هود الآية (٢٨)

(٤) _ سورة الزخرف الآية (٣١)

سراجاً، وكيف حثهم على التفكر فيما ذرأ الله في الأرض من كل دابة، وما أنبت من كل زوج بهيج.

ولكنهم وبدلاً من أن يلتفتوا إلى ما دعاهم إليه، راحوا ينظرون إليه نظرة استغراب وتعجب، بل نظرة استهزاء خفي وتكذيب. وما رأوه إلا بشراً مثلهم، نظروا في صورته فلم يروا سمو حقيقته، أعمى قلوبهم حب الدنيا ولم يلتفتوا للموت، فاستحبوا حياة الفناء، وعزفوا عن البقاء الأبدي. وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونفنى وما نحن بمبعوثين، فأنكروا البعث وأشاحوا عن الإلّه، بل إنهم رأوا أنه ما اتبعه إلا الأراذل منهم، الذين ليس لهم قيمة اجتماعية (بنظرهم الأعمى)، ومن أنه عليه السلام فرد، وحيث أنهم لا يستطيعون إنكار شأنه وسيرته العالية ومنطقه، استكبروا وما آمنوا، وما منعهم من الهدى: ﴿.. **إِلاَّ أَن قَالُوۤاْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾[١].

فإذا لم ينظر الإنسان إلى خلق السماوات والأرض، ويسلك طريق التفكير الذاتي حتى يؤمن بالله، وحتى تطهر نفسه من الخبث بالصلة بالله، فلن يعرف الرسول ولن يؤمن به وبدعوته أبداً. ذلك لأن الكمال يظلُّ مستوراً عنه، ولم يبق أمام عينيه إلا صورة الرسول أو شكله، فلا يعرف حقيقته عليه السلام.

قال تعالى: ﴿..**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾[٢]: حقيقتك.

﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا**﴾[٣]: يتخيل تخيلات، نظرهم للدنيا، وظنوا أن المال والأملاك خير للإنسان ودليل عظمته ورضى الله عليه.

ولذلك، فلا عجب إذا لبث سيدنا نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، ولم يؤمن معه إلا قليل.

---

(١) _ سورة الإسراء الآية (٩٤)

(٢) _ سورة الأعراف الآية (١٩٨)

(٣) _ سورة الفرقان الآية (٧)

ولو بقي فيهم إلى يوم يبعثون، ما كانوا ليؤمنوا، إلا إذا سلكوا القوانين التي رسمها تعالى لهداية الناس، عندها يفتّح الله بصائرهم بالتقوى، فيستنيروا ويَسعَدوا ويُسعِدوا البشرية.

قال رسول الله ﷺ على لسان الله عز وجل: ﴿**أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾(١).

تلك سنن وقوانين، إذ لا يمكن لنفس أن تؤمن إلا بسلوكها التفكير الذاتي المقرون بنيَّة البحث عن الحقيقة واكتشاف وجود الإلّه المسير المربي الخالق من ثنايا صنعه تعالى، فإن لم يؤمنوا بالله ويعملوا صالحاً، فلن يؤتوا الكتاب، الذي هو صبغة الله التي تصبغ الأنفس بالحق والكمال، ولن يكون القرآن، أو أي كتاب أُنزل على رسله آيات بينات في صدورهم، بل يظل عليهم عمى، وتظل أعمالهم السيئة حائلاً دون فقهه، ولن تنفعهم لغتهم كذلك، ولا قربهم الزماني من عصر الرسول ﷺ، لأن هذا القرآن كتاب مكنون في قلب الرسول ﷺ، ولا يمسُّ معانيه الرفيعة إلا المطهرون ٢، المطهرة قلوبهم عن أدران الدنيا الدنيّة ومعاصيها المهلكة.

لقد لبث سيدنا نوح عليه السلام في قومه ذلك الدهر الطويل، ولكن وبالرغم من طول هذه الفترة التي قضاها بينهم، لم يؤمن معه من قومه إلاَّ القليل، فأنذرهم إن ظلوا معرضين من عذاب أليم سيحل بهم، فأجابه الذين كفروا من قومه: ﴿**قَالُواْ يَا نُوحُ**

(١) _ سورة الأنعام الآية (١١٤-١١٥)

(٢) _ قال تعالى:﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾سورة الواقعة الآيات (٧٧-٧٩)إن هذا الكتاب مكنون، أي: مخبأة معانيه في قلب الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، ولا يستطيع الإنسان أن يمس= =معانيه إلا إذا كان من أهل الطهارة النفسية، ولن يمس معانيه إلا من تحصل له الشفاعة والصحبة القلبية الحبيّة برسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]: إن كنت صادقاً فلينزل البلاء علينا، لا نريد ترك ما نحن فيه.

لقد تألم عليهم، وتألموا منه، وناح عليهم وسخروا منه، وأنذرهم بالهلاك فاستهزأوا به، وبين لهم سخف معتقدهم فمكروا به. عندئذ دعا ربه: ﴿..**أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ**﴾[2]، أي: ربِّ أيدني بحجج أُخرى مقنعة علّهم يغيروا ما بأنفسهم فيهتدي بها قومي، فبيّن له تعالى أنه لا فائدة تُرجى منهم، وأن كؤوس نفوسهم قد أترعت بالفساد، ولن يطلبوا الهدى ولن يؤمنوا، فلا فائدة ترجى منهم، وكانوا قوماً بوراً، وأوحى إليه أن يصنع الفلك بوحي منه، لأن القوم قد استحقوا الهلاك، ولم يبق أي أمل يرتجى من إيمانهم، وقد أصبحوا ولا خير فيهم.

﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا**﴾[3].

وقبل أن نختم الكلام عن قوم سيدنا نوح عليه السلام نريد أن نلفت النظر إلى ناحية هامة، وهي أنهم قالوا أن سيدنا نوحاً عليه السلام دعا على قومه بالهلاك [4]، بسبب سخريتهم منه وأنها خطيئة، والحقيقة هي أن سيدنا نوحاً عليه السلام، لم يدع على قومه بقوله: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾[5]، إلا من بعد أن أوحى إليه ربه بأنه لن يؤمن معه إلا من قد آمن. فمن حنانه عليه السلام لما أخبره تعالى أنهم لا يمكن أن يؤمنوا، طلب لهم الهلاك، كرجل له قريب عزيز مريض يتألم لا يمكن شفاؤه يتطلب له الموت كي يخلص من آلامه، وكذلك سيدنا نوح عليه السلام طلب لهم الهلاك بعد وحي الله له أنهم لن يؤمنوا ليقلَّ شقاؤهم، حيث أنهم لن يزدادوا إلا ضلالاً وكفراً وعناداً، فالموت إيقاف لشرورهم التي تكويهم بنارها في الآخرة.

---

(١) _ سورة هود الآية (٣٢)

(٢) _ سورة القمر الآية (١٠)

(٣) _ سورة نوح الآية (٢٥)

(٤) _ انظر كتاب الآية (عصمة الأنبياء) للعلاَّمة محمَّد أمين شيخو قدَّس الله سره.

(٥) _ سورة نوح الآية (٢٦)

قال تعالى: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ...**﴾: لما طلبوا الهلاك: ﴿..**أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ...**﴾: لا جدوى لهم: ﴿.. **فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾: لا تحزن ولا تتألم من عدم اهتدائهم: ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا...**﴾ نراك ونلهمك. ﴿...**وَوَحْيِنَا...**﴾ دلالتنا: ﴿..**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ...**﴾: لا تتوسط في دفع البلاء عنهم ولا تترجى فيهم. بعد أن دعاهم ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، لما امتنعوا عن الإيمان والطاعة، حقّ عليهم الهلاك، لكن سيدنا نوحاً عليه السلام رغم معارضاتهم له، كان يتمنى هدايتهم: ﴿..**إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**﴾[1]: لا بدَّ منها.

* * *

---

(١) _ سورة هود الآيات (٣٦-٣٧)

قوم عاد

لقد أرسل الله إلى عاد أخاهم هوداً عليه السلام: ﴿.. **يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ، يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾[1].

قال لهم عليه السلام: ﴿.. **اعْبُدُواْ اللّهَ**...﴾: أطيعوا أوامره واسمعوا كلامه، لا كلام عبد مثلكم: ﴿..**مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ**...﴾: ما من رزاق ومسيّر سواه، من الذي ينزل الأمطار، من يسوق الشمس والقمر؟ الليل، النهار، الفصول، من يدير الكرة الأرضية؟﴿...**إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ**﴾: على الله بادعائكم بهذه الآلهة، بعبادتكم الأصنام،﴿**يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي**...﴾: أظهرني: ﴿..**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾: أفلا تفكرون ولو قليلاً؟! العاقل يفكر بأي كلمة يسمعها، إن كانت صحيحة اتَّبعها وإلا ردَّها، أليس الأجدر بالإنسان أن يعقل بذاته؟ يتوصل للوجود الإلٓهي ويلمس الحقيقة من آلائه الكونية! من يطعمه ومن يسقيه؟ ومن إذا مرض يشفيه؟

لقد قال لهم رسولهم سيدنا هود عليه السلام، مثل ما قاله سيدنا نوحٌ، ومثل ما قاله الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، من قبل، ومن بعد: ﴿..**اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ**...﴾: لقد بين لهم هذا الرسول الكريم، أن المسيّر لهذا الكون، هو الله سبحانه وتعالى، وأنه ما من شيء إلا ويؤول إليه، ولا يتحرك متحرك إلا من بعد إذنه، فهو وحده الحي القيوم، لأنه هو وحده الخالق، مصدر الحياة، ومصدر القيام لكل ذرَّة من ذرات هذا الوجود. وهو الذي يمدُّ ولا يستمد، لأنه فرد صمد.

كذلك فإن يمسسكم الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردكم بخير فلا رادَّ لفضله، ولكن بمقدار ما تستحقونه. يا قوم إن هذه الآلهة التي تعبدونها، أنتم الذين

---

(١) _ سورة هود الآية (٥٠-٥١)

صوَّرتم شكلها بأيديكم، أفتعبدون ما تنحتون؟! تباً لكم (أي الهلاك عليكم) أفلا تعقلون. أما ترون أنها لا تستطيع دفع الضر عنكم، ولا عن كيانها، ما لكم كيف تحكمون؟!

يا قوم لِمَ تعرضون عن مبدع السماوات والأرض؟ وتعبدون ما لا يضركم ولا ينفعكم. إن هذا إلا إفك افتريتموه أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله به من سلطان، وما كان جوابهم إلا أن: ﴿**قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ، إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾[١]. وقال لهم يا قوم لا تغرنَّكم الحياة الدنيا، وتغرنَّكم أموالكم وقوتكم التي تتبجَّحون بها، وقولكم: ﴿..**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**...﴾[٢]: أفلا ترون أن الذي خلقكم هو أشد منكم قوة. وإذاً فلم الاستكبار بغير الحق؟ ولم الجحود وأنتم تشهدون؟ لقد صدَّهم عن الله الترف المادي، والغنى الفاحش الذي حصلوا عليه من التجارة العالمية، فمنطقتهم الممتدة من غرب الفرات إلى سواحل المتوسط، كانت مركزاً لتلاقي التجارة العالمية، وبهذا الغنى أشادوا عاصمتهم: ﴿**إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾[٣]

وقد وصف لنا تعالى أعمالهم العمرانية التي تنم عن غناهم الفاحش، فقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً**...﴾: بكل ريع: روعة واتقان، وتبنون قصوراً، مقاهي (بناء المقاهي والملاهي في الأماكن المختارة[٤]، مقاصف، منتزهات رائعة هي آية في الجمال، وتتخذونها للهو والترف: ﴿.. **تَعْبَثُونَ**...﴾[٥]: تضيعون فيه الوقت، أهذا يؤهلكم للجنّة؟! ﴿**وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ**...﴾: مصانع: المعامل المخازن، وما فيها من

(١) _ سورة الشعراء الآيات (١٣٦-١٣٨)

(٢) _ سورة فصلت الآية (١٥)

(٣) _ سورة الفجر الآية (٧٨)

(٤) _ وكذلك تشير كلمة الآية (ريع): إلى المبالغ الضخمة والفاحشة التي تصرف على هذه المقاصف والملاهي والمزارع.

(٥) _ سورة الشعراء الآية (١٢٨)

حرير وألعاب، أماكن التخزين والبيع تزينونها: ﴿.. **لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾[1]: ظانين أنكم ستخلدون، ناسين الموت، (كل ذلك زينة في الحياة تؤذي المتوسطين والفقراء من الناس، وتجعلهم يميلون إلى الدنيا، وإلى الخسة والبخل والشح، ونكران فعل الخير والمعروف): ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾[2]: بعضكم مع بعض، وإذا التحمتم في أمر كدتم أن يذهب بعضكم بنفس الآخرين منكم بوحشية، لفقدان الرحمة من قلوبكم: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾[3]: انظروا لما تجرُّه عليكم هذه الأبنية، وهذه القصور، وهذا الترف، من فساد لقلوب الناس، ونكد لعيشهم، وتنافس بالدنيا: ﴿**وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم...**﴾: أقبلوا عليه، وفكروا بما أنعم عليكم: ﴿.. **بِمَا تَعْلَمُونَ**﴾: من الخيرات: ﴿**أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ...**﴾: غنم: ﴿..**وَبَنِينَ**﴾: وأولاد: ﴿**وَجَنَّاتٍ...**﴾: بساتين: ﴿..**وَعُيُونٍ**﴾[4]: نعم وعطاء عظيم.

إذن حينما يبعث الله رسولاً فإنه يخلقه في منطقة متوسطة من العالم، لا في منطقة تكاد تكون منعزلة عن العالم، إلا من بعض التجار القادمين من الهند أو من الشرق الأقصى. قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا...**﴾[5].

أما قوم ثمود فتكاد آراء المؤرخين تجمع بأن موطنهم يقع في منطقة وادي القرى في طريق الحج الشامي إلى مكة المكرمة.

وقد جاء ذكر ثمود في جملة البلاد التي غلبها الملك الآشوري **(سرجون)** عام/٧١٥/ق م، في بلاد الحجاز. ويؤخذ من سياق الوصف أنها كانت بجوار مكة مما يلي الشمال، كذلك ورد ذكرها في كتب اليونان، وقد عينوا موقعها في منطقة الحجر، وهم يسمونها ثمود يني (Thamudeni)، والحجر يسمونها (Agra)، وإذا

---

(١) _ سورة الشعراء الآية (١٢٩)

(٢) _ سورة الشعراء الآية (١٣٠)

(٣) _ سورة الشعراء الآية (١٣١)

(٤) _ سورة الشعراء الآية (١٣٠-١٣٤)

(٥) _ سورة القصص الآية (٥٩)

كانت ثمود تسكن هذه المنطقة فلا بد أن تكون عاد تسكن في منطقة سورية الحالية.

لقد استفاد قوم عاد، ومن بعدهم قوم ثمود، من الموقع الجغرافي الممتاز الذي يقطنونه، لأنهم كانوا يقطنون في منطقة تلاقي التجارة العالمية القادمة من الشرق، والذاهبة إلى الغرب، وهذه المنطقة كانت يوم ذاك ولزمن ليس بالبعيد، ملتقى لثلاث طرق عالمية.

الأول: الطريق التجاري القادم من اليمن فالحجاز، ومن ثم إلى بلاد الشام وإفريقيا عبر سيناء.

الثاني: طريق الخليج العربي، ومنه عبر الصحراء إلى بلاد الشام وإفريقيا.

الثالث: طريق بلاد فارس فبلاد الرافدين، فسوريا، فغرب البحر المتوسط، وبحكم هذا الموقع الاستراتيجي استفادت تلك الأقوام من التجارة، وذلك بما كانوا يقدمونه من وسائط لنقل البضائع، ومن خدمات أمنية لحفظها من اللصوص، إلى جانب الخدمات الأخرى من مأكل ومشرب، وعلف للدواب، وخانات لاستراحة التجار، ومخازن لحفظ البضائع، ولا يستبعد أن أصبحوا فيما بعد من التجار العالميين.

ومن تلك الآيات نستنتج أيضاً أن قوم عاد، ومن بعدهم قوم ثمود، كانت لهم حضارة متقدمة، ليس من الناحية العمرانية فحسب، بل ومن الناحية الثقافية أيضاً، فقد وصفهم تعالى بأنهم كانوا قوماً مستبصرين: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**﴾[١]: تفننوا بالعلم الدنيوي.

---

(١) _ سورة العنكبوت الآية (٣٨)

وليس بمستغرب من أن تكون تلك الأقوام متنورة بأنواع الثقافات العلمية والأدبية، لأن البناء الرائع، والمصانع المشيّدة لا بد لها من مهندسين أكفَّاء، وهذا لا يكون إلا بعلم راق في الرياضيات، وبالتالي في جميع أنواع الثقافة، ساعدهم في ذلك موقعهم الجغرافي الممتاز، وقد قيل (حيثما تتلاقى التجارة تتلاقح العقول).

لقد بين لهم رسولهم أن اعبدوا الله وأطيعوه، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويزدكم قوة إلى قوتكم. وقول سيدنا هود عليه السلام هو قول عالم بالسنن الإلّهية، لأن الله عندما يرسل رسولاً إلى قوم من الأقوام، ولا يستمعون له، يأخذهم بالبأساء والضراء، ويذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، لعلهم يتضرعون. ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾: رسلاً، كما أرسلناك، فعارضوا رسلهم. فأرسل الله لهم الشدائد والفقر والمرض: ﴿..**فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء**...﴾: لماذا هذه الشدائد؟﴿...**لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**﴾[1]: حتى يتضرعوا وتطهر نفوسهم. (هذه الشدائد حتى تتضرع وتشفى نفسك. إذن البلاء لا بد له من سبب في نفسك. تُبْ إلى الله، التجئ. إن التجأت وأقبلت، تطهر نفسك من "المكروب" الذي سبَّب هذا الفقر والمرض والشدائد، عندها يعطيك الله الخير، ويرفع عنك البلاء). ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء**﴾: لمَّا جاء الرسل وكذَّبهم الناس، شدَّد الله على الناس، هكذا تقتضي الرحمة والحنان. وما أرسل الله تعالى في بلدة من بلدان العالم دلالة ليؤمنوا بلا إلّه إلاَّ الله، ولم يؤمنوا، إلا أخذ أهلها بالبأساء. فالله تعالى لا يهلك أمةً، حتى يرسل لها الرسل، إن لم يرجعوا، أخذهم بالشدائد. "بالبأساء": عذاب النفس. "الضراء": عذاب الجسم: ﴿..**لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ**﴾[2]: يدل هذا التعذيب والتشديد على أن هنالك قابلية للرجوع، كل ذلك لكي يضَّرعوا، فتشفى نفوسهم مما كمن فيها. فانظر إلى كلام الله تعالى وانظر إلى

---

(١) _ سورة الأنعام الآية (٤٢)

(٢) _ سورة الأعراف الآية (٩٤)

قول كثير من المفسرين، أن الله خلق أناساً للجنة، وآخرين للنار، فإن هذا القول يناقض العدل الإلٓهي.

فالله تعالى يقول: عندما يعاند الناس رسولهم، فإنه تعالى يضيّق عليهم، علَّهم يضَّرعون. بتضرُّعهم إلى الله، يزول الخبث من أنفسهم، وتطهر أنفسهم. دعوة الله تعالى عامة لسائر الخلق: ﴿**ثُمَّ**...﴾: عندما أصرُّوا فما رجعوا، بل ثابروا على ضلالهم: ﴿..**بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ**..﴾: فلمَّا استحكم الجرثوم في أنفسهم. ولم يعد ثمَّة رجاء بالشفاء: أعطاهم كافة رغائبهم. أعطيناهم الدنيا لعلهم يشكرون. وكان بالإمكان البدء لهؤلاء بالإنعام بالدنيا، لكن قلَّ من يشكر، لذا يبدؤهم بالشدائد: إن لم يرجعوا هلكوا: ﴿..**حَتَّى عَفَواْ**..﴾: لم يتذكر هؤلاء نعم الله، وأصبحوا أغنياء وكثرت أموالهم، فما رجعوا وما عادوا دعوا الله، نسوا كل شيء: ﴿.. **وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء**..﴾: أصابت آباءنا ظروف شدَّة وظروف سعة: ما نسبوا الأشياء لعملهم وفعلهم، بل قالوا هذه عادة الزمان: ﴿.. **فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾(١): من دون أن يشعروا وعلى حين غفلة، أتاهم البلاء بغتةً. فلو كانت مقطوعة فيها أزلياً كما يقولون، فلمَ الرسل ولمَ الشدائد؟! قولهم خطأ كله: هناك طريق للرجوع، وإمكان للتوبة والإنابة. أرسل الله الرسل، أهل الإرشاد، أعطاك الفكر، جعل الكون كله أمامك لتتذكَّر، فإن استدللت بتفكيرك، أعطاك كل خير ولم يشدِّد عليك.

وفعلاً إن الله أخذهم بالعذاب الأدنى، فقد حبس عنهم الأمطار، وتضررت بساتينهم ومواشيهم، وضُرب اقتصادهم وبنيتهم التحتية، وقد بين لهم سيدنا هود عليه السلام الأسباب فقال: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ**...﴾: آمنوا بالمربِّي، كل شيء إن فكّرت به استدللت، من ربّاك في بطن أمك لمّا كنت نطفة؟!

---

(١) _ سورة الأعراف الآية (٩٥)

كل شيء يدل على المربّي. إن لم تستغفر فتطلب الشفاء من هذه الشهوات فإنها تظل متعلّقة بقلبك. الزنا، السرقة، القتل، كلها جرائم تقع في النفس، إن استغفرت وتبت وعملت صالحاً، أقبلت، فشفيتْ نفسك، عندها تصاحب رسول الله ﷺ، بمعيّته تشاهد الخير من الشر، وتحمد الله أن نجّاك من المعاصي، لما تراه فيها: ﴿.. **ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**..﴾: مما أنتم عليه: ﴿.. **يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**..﴾: و كانوا في شدة وضيق: ﴿..**وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ**..﴾: وأنتم: ﴿..**مُجْرِمِينَ**﴾[1]: حارمين أنفسكم من الخيرات، وأنتم ما فيكم خير أبداً. جئت للدنيا لتكون من أهل الكمال والمعروف. خلقت للإحسان.

لذلك تجد كل قوم يتطيَّرون برسولهم إن لم يستجيبوا له، بسبب ما يذيقهم الله من أنواع العذاب. لقد أخذ الله قوم عاد بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، فما استكانوا وما رجعوا، بل قالوا إن قولك هذا لا يكفي أن يكون حجة علينا، لكي نهجر آلهتنا، ونعبد إلٰهاً واحداً، وإن قولك هذا إن هو إلا تخيلات، لا يتوافق وواقعنا، إذ كيف لا نعتزَّ بدنيانا وبمصانعنا وقصورنا التي هي عنوان التقدم والرقي، وهي التي تميزنا عن غيرنا من الشعوب المتأخرة، ونلتفت للعبادة وسبل الإيمان بالغيب. وإن هذا الذي تراه فساداً، فإننا نراه صلاحاً وتقدماً[2]، وما نظنك إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، بسبب إنكارك عبادتهم، فسترت نفسك عن الحق، وجعلتك تقول ما تقول، وننصحك أن ترجع عن هذا التخريف، وتعبد ما كان يعبد آباؤك. فأجابهم: ﴿.. **إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، مِن دُونِهِ**...﴾: فأفحمهم عليه السلام بل وتحداهم أجمعين: ﴿.. **فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي**

---

(١) _ سورة هود الآية (٥٢)

(٢) _ قال تعالى:﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾ الآية (١١-١٢) من سورة البقرة.

وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]: دبّروا ما شئتم، شجاع، لأنه أمين من نفسه كونه سائراً على الحق متوكلاً على الله، فشلَّ الله قواهم وسرى الجبن والرعب إلى أعماق قلوبهم، وخفضوا رؤوسهم صاغرين أمام عظمته المهيبة، إذ كساه تعالى ثوب المهابة الربانية لأنه رسوله. ولما أنذرهم من مغبة أعمالهم قالوا: ﴿..**أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ**﴾: هذا سيرنا ومعتقدنا ولا نبالي: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**﴾: هذا ما سار عليه أجدادنا، فما بالك تريد أن تغيّر ما نحن عليه وما ورثناه من قبل. ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾[2]: قولك هذا كله لا أصل له. لقد أنكر قوم عاد على رسولهم قوله، وأصروا على محبة دنياهم الدنية، وطلبوا من سيدنا هود عليه السلام أن يأتيهم بما يعدهم إن كان من الصادقين.

قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ، وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ...**﴾: كانوا سادة العالم.﴿... **فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً...**﴾: تقدموا بالعلوم. ﴿...**فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون**﴾[3].

* * *

(١) _ سورة هود الآيات (٥٤-٥٦)

(٢) _ سورة الشعراء الآية (١٣٦-١٣٨)

(٣) _ سورة الأحقاف الآية (٢١-٢٦)

قوم ثمود

لقد أرسل الله تعالى إلى ثمود أخاهم صالحاً فقال: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾(١).

إن دعوة الرسل واحدة في كل زمان ومكان، وهي دعوة الناس إلى الله، وتعريفهم بكماله، وتبيان الحكمة من أوامره ونواهيه، ذلك لأن الإنسان إذا عرف ربه، فقد عرف كل شيء، ومن أضل نفسه عن ربه، فلن تجد له ولياً مرشداً، وعاش في ظلمات، وأعشته الضلالة عن معرفة الحقيقة، وأصبح لا يرى إلا صور الأشياء، وهكذا فإن الكافر ينظر إلى الحق بمنظار معكوس.

ولذلك عندما تخاطبهم رسلهم بالحق، يستنكرون دعوتهم، ويسفهون تصرفهم، لأنهم يخاطبونهم بمقلوب ما يفهمون على ظنِّهم الخاطئ. ويعملون من الطهارة والشرف والتضحيات بعكس ما يريدون من سفالات، فلا عجب إذاً أن يرى أعمى القلب ظلاماً في رابعة النهار الصائف، وأن يجادل في الحق بعدما تبيَّن، وهكذا استنكر قوم ثمود دعوة رسولهم لهم للعودة إلى الله، وأبدوا تعجبهم مما يدعوهم إليه: ﴿**قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا...**﴾: ناظرين فيك أنك عاقل: ﴿..**أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا...**﴾: أتأتينا بدين جديد؟! كل من سبقنا سار على هذا الطريق! هل جئتنا أنت بشيء جديد؟! أتخالف كل من سبق؟! ﴿...**وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾(٢): هذا شيء ظاهر خطؤه.

ومثل هذا الإنكار قد أنكره من بعدُ أهل مدين حينما: ﴿**قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا...**﴾: طول عمرنا ونحن سائرون بهذا، والآن أنت

(١) _ سورة هود الآية (٦١)

(٢) _ سورة هود الآية (٦٢)

وحدك فهمان! كل الناس سائرون بهذا وكانوا يعبدون الأصنام: ﴿..**أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء**...﴾: ألسنا أحراراً في أموالنا؟! تمانعنا في التصرّف بها كما نشاء! ﴿...**إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾(١): وكانوا من قبل يثنون عليه الثناء العظيم، فقالوا له: هل عقلك يدلّك على هذا الآن؟! أهذا كلام المنطق؟!

ومثل ذلك قد يحصل اليوم أيضاً، فلو أوضحت لهم مساوئ حضارتهم، وبينت لهم أنها غدت مصدراً للشقاء والألم، وأن هذا الألم والشقاء، ينبع من نفس المصدر الذي يحسبه الناس سعادة، فاستبدلوه بدين الله الخالق الرازق، لاستنكروا عليك ذلك، واستهزأوا بك، واتهموك بالتهمة نفسها، التي اتهموا بها غيرك: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ**...﴾: إن قلت له لا تفسد الناس بعملك، بالبناء، بالزخرف والترف والملاهي، يقول لك هذه نِعَمٌ من الله، أترجع بنا إلى القرون الماضية.

قديماً ما كان عندهم مدنيّة: ﴿.. **قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾: نحن في هذه الملاهي نتسلى تسلية لا نعمل شيئاً: ﴿**أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾: يظن نفسه محسناً: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ**...﴾: إن قيل له انظر مَنْ قبلك وماذا فعلوا: ﴿.. **قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء**...﴾: هؤلاء كانوا جهالاً، لا مدنية عندهم، هل نحن خلقنا للعمل فقط؟ يجب أن نتسلى: ﴿.. **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾(٢): ما سيحلُّ بهم.

إن قوم ثمود كقوم عاد كانت لهم حضارة متقدمة، وكان طابعها المميز هو البناء، وبذلك سماهم تعالى: ﴿.. **أَصْحَابُ الحِجْرِ**...﴾(٣).

---

(١) _ سورة هود الآية (٨٧)

(٢) _ سورة البقرة الآيات (١١-١٣)

(٣) _ سورة الحجر الآية (٨٠) لقد مر معنا عندما تكلمنا عن قوم عاد، بأن قوم ثمود كانوا يقطنون في وادي القرى أو منطقة الحجر، وليست تلك التسمية قد جاءت من وجود الحجارة في منطقة سكناهم، وإنما جاءت من استعمالهم الحجارة بكثرة في أغراض البناء. لقد ذكر تعالى في سورة الفجر الميزة الرئيسية لحضارات ثلاث: حضارة عاد وثمود وقوم فرعون، تلك الميزة هي الناحية العمرانية. قال تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ سورة الفجر الآيات (٦-١٤). من تلك الآيات الكريمة يتبين أن الفساد

لقد ساعد قوم ثمود على تشييد حضارتهم الغنى المادي الذي حصلوا عليه عن طريق التجارة أيضاً، والموقع التجاري الممتاز على طريق التجارة العالمية، وقد استثمروا تلك الأموال في استعمار [١] الأرض، فأنشأوا بها جنات تسقيها العيون، وبنوا في وسطها القصور [٢] الشامخات، كذلك كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً يصطافون بها فارهين. قال تعالى على لسان سيدنا صالح عليه السلام: ﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ**﴾[٣]: ظانين البقاء! أتظنون أنه لا إله لهذا الكون قابض على ناصيتكم! آمنين من الموت! ﴿**فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾: باقين، فكّر بمن سبق، مات وصار تحت التراب: ﴿**وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا...**﴾: ثمرها. متسق ممشوق في الفضاء. ﴿**...هَضِيمٌ**﴾: يهضم بسهولة. فقط للأكل! ﴿**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا...**﴾: تأخذون منها الحجارة لتبنوا القصور الضخمة المنتظمة والمرتبة: ﴿**..فَارِهِينَ**﴾: رفاهية العيش. (كم بيَّن الله وحذّر من خطر التطاول في البنيان، ذلك لعظيم خطره على الناس): ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ**﴾: أسرفوا على أنفسهم: ﴿**الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾[٤]: يحرضون وينشرون بأفعالهم الفساد بين الناس.

هنا كان نتيجة ما أحدثوه من البناء الضخم الفخم، فقوم عاد قد أشادوا مدينتهم حتى غدت أجمل بلاد الدنيا في ذلك العصر، وقوم ثمود الذين جابوا الصخر من الجبال، ويجلبونها إلى مدينتهم لبناء القصور بواسطة الماء الجاري في الوديان محمولاً على ألواح = =من خشب أو على سفن معدة لذلك. والفراعنة أيضاً استخدموا وادي النيل لجلب الحجارة من الجنوب لبناء الأهرامات التي وصفها تعالى كما وصف الجبال بالأوتاد، وتم بناء المعابد والقصور وغير ذلك، هذه الأعمال وما يلحق بها من زينة وفسق قد أحدثت الفساد في قلوب العباد، وانقسم المجتمع لطبقات مترفة أو مدقعة بالفقر محرومة مقهورة، فحلّ الشقاق وانهارت الإنسانية، عندئذ صب عليهم ربك سوط عذاب.

(١) _ قال تعالى:﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾ سورة هود. الآية (٦١)

(٢) _ قال تعالى على لسان سيدنا صالح:﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ سورة الأعراف. الآية (٧٤)

(٣) _ سورة الشعراء الآية (١٤٦)

(٤) _ سورة الشعراء الآيات (١٤٧-١٥٢)

ويمكن القول أن ثمود خلفت عاداً بحضارتها ونسجت على منوالها، إلا أنها لم تفقْها قوة ولا علماً.

هذا وإذا رجعنا إلى الآيات التي ذكرناها آنفاً، وأمعنا النظر فيها ثانية، نرى أن صالحاً عليه السلام، قد حذرهم من تلك الحضارة، وبين لهم فسادها، وما تجلبه لهم من شقاء، كما جلبت لعادٍ الشقاء ومن ثم الهلاك قبلهم.

وبديهي أن يستنكر المترفون منهم دعوة سيدنا صالح عليه السلام، ويتهموه بشتى التهم. ذلك لأن معظم الناس لا تؤمن إلا بالرفاه المادي سبيلاً للسعادة، أو على الأقل هو أحد الأسباب الرئيسية لها.

أما الرسل، وهم الذين يرون بقلوبهم حقائق الأمور، فإنهم ينظرون إلى الرفاه المادي بعكس ما ينظر إليه المترفون، فالمترفون ينظرون إلى الأمور بمنظار معكوس، بينما الرسل تنظر إليه بنور من الله، فيرون ما لا يرى أولئك، إذ يرون حقائق الأمور، بينما المظاهر خدّاعة. ومن تلكما النظرتين، أو من اختلاف المفهومين، ينشأ الخلاف بين الرسل وأتباعهم من جهة، وبين المترفين وأشياعهم من جهة أخرى ولا يخفى ما للرفاه المادي وما يتلوه من تمايز طبقي وتفرقة وعداوة بين الفقراء والأغنياء في المجتمع حتى يكون سبباً للمترفين لتكذيب الرسل فالهلاك.

والآن نريد أن نبين الكيفية في توليد الفساد، ومن ثم الشقاء الذي يحسبه الناس سعادة.

إن الإنسان يظل بمعيشته راضياً إذا شاهد أفراد مجتمعه يعيشون المستوى نفسه، الذي يعيشه تقريباً. وهذا الرضى يظل باقياً، طالما لم ير غيره قد سبقه في هذا المضمار كثيراً.

فبيته مثلاً يبقى في عينه جميلاً، ما لم ير قصوراً منيفة قد أشيدت إلى جانبه، ويبقى مسروراً بأثاثه ولباسه، ما لم ير جاره قد استحدث من الأثاث واللباس، ما يفوق أثاثه، جودة وأناقة.

كذلك يظل مسروراً بمأكله ومشربه، وأماكن لهوه وعاداته وتقاليده، سواء كانت سيئة أو حسنة، ما لم ير الدنيا قد تغيرت من حوله، عندئذ ينظر إلى ما كان يستحسنه بالأمس ويرتضيه، نظرة ازدراء واحتقار، ثم يبدأ الهم والغم يطارده في كل مكان، والضجر والسخط والتبرم من الحياة.

تُرى من الذي أحدث هذا الهم في نفس هذا الإنسان؟ ومن المسؤول عن شقائها؟ ومن الذي سلبه ذلك الرضى، وتلك السعادة، التي كان يتمتع بها نسبياً؟

أليس المترفون، هم الذين أفسدوا على السواد الأعظم من أفراد المجتمع حياتهم؟ فلكي تتمتع هذه الفئة القليلة في كل مجتمع بالحياة، فإنها تفسد الحياة على الغالبية العظمى من الناس.

ليس بوسع الناس جميعاً أن تبني قصوراً، وتقتني أثاثاً يناسب تلك القصور، ولو حصلوا على ذلك، وهذا محال، فهل يقف الأغنياء منهم عند حد، أم أنهم يسعون جاهدين إلى اختلاق تفنن جديد في الحياة، لكي يظلوا متميزين عن غيرهم من الناس؟

أجل: إن التسابق يظل موجوداً، لا من أجل الرفاه وحسب، بل من أجل التفاخر والتباهي أمام الآخرين: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾(١).

---

(١) _ سورة الحديد الآية (٢٠)

إذاً فالتسابق نحو الرفاه أو نحو التفاخر، ليس له نهاية، لأن النفس لا يستقر سرورها ورضاها طويلاً على شيء ألفته، بل تمجَّه وتطلب غيره، فكلما قضت من مطلب وطراً تفتقت لها مطالب جديدة، وتنقضي الحياة، وشهواتها لا تنقضي: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾[1]: ذلك لأن النفس لا نهاية لطاقاتها، فباستطاعتها أن تبتلع لذة الوجود من غير أن تشبع، أو من غير أن تروي طاقاتها اللامتناهية.

أما الله تعالى فقد أعد لها تلك الطاقات الهائلة، لترتوي من معينه الذي لا ينضب، ومن جماله وجلاله وعلمه ورحمته.

وفي الحديث القدسي:

(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) [2].

لذا إن أطاع الإنسان نفسه، وأراد إشباعها من شهوات الدنيا، فإنه يتردى، من غير أن يحقق لها إلا يسيراً من لذائذ الشقاء والضجر والسأم والضنك ويحسب أن فيها سعادته والحقيقة أنها لا تخلصه من شقائه ولا يزداد إلا ضنكاً وهمّاً.

وبذلك التسابق نحو الرفاه، تأخذ الحياة بالتعقيد بدل التبسيط، والشقاء بدل السعادة، ويكون السبب في هذا هم المترفون، الذين أفسدوا الحياة على الفقراء، بما أحدثوه من زخرف وزينة، ونتيجة لهذا الفساد، تفسد الضمائر، وتفسد القيم، ويصبح همُّ الناس جمع المال، ليحققوا به شهواتهم ورغائبهم ولا يهمهم من أي طريق جُلِب، ليكونوا كأمثال من فاقوهم بالترف أو ليتعالوا على من دونهم فيفسدوا قلوبهم ومعيشتهم.

إذاً، فإن الحضارة قد جلبت للناس شقاء وبؤساً، وولَّدت في نفوسهم حقداً وألماً، واستطاعت أن توقع بينهم العداوة، لا سيما بين المترفين والمحرومين، فالمترفون

---

(١) _ سورة التكاثر الآية (١٢)

(٢) _ أحاديث الأحياء رقم/٣/

يزدادون غنىً وتسلطاً واستغلالاً، والمحرومون يزدادون فقراً وعبودية وحقداً وإذلالاً. ولا عجب عندئذ أن يتكتل الفقراء ضد الأغنياء، ليسقوهم الكأس نفسه الذي سقوهم منه. ولكن هؤلاء الفقراء الذين حلوا محل ساداتهم، لا بد أن يعيشوا بعد حين بالعقلية ذاتها التي كانت لساداتهم، لأن الغاية التي قاتلوا من أجلها، هي نفسها التي تسنموا ذروتها. فضلاً عن ذلك، فإن كثرة المتطلبات الحضارية، تجعل الإنسان بخيلاً نحو نفسه ونحو ذويه، ولا يفعل من المعروف إلا قليلاً، وعدم فعل المعروف، يعتبر من الأسباب الهامة في تقطيع أواصر المجتمع، وفقدان المحبة فيما بينهم.

ومهما يكن من أمر فإن الأزمة الروحية والخلقية في كل حضارة، لن تُحَلَّ إلا بالقضاء على مسبباتها، وهذا يعني الرجوع إلى شرعة الله، وامتثال أوامره، لأنها هي الشرعة الوحيدة التي تنقذنا من شقاء الدارين. والتي أنقذت الصحب الكرام ومن تابعهم، من أجل ذلك حذر سبحانه وتعالى على لسان رسله من الاستغراق والتوغل في الدنيا لتمحيص طاقاتنا كلها، حتى لا نخسر الآخرة الباقية، وطلب إلينا أن نمشي في مناكبها، أي في أطرافها لا أن نغوص في أعماقها قال تعالى: ﴿.. **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾[1]. لأن التوغل كما رأينا، وكما نعيشه الآن في هذا العصر، يحدث في الأرض الفساد، وإذا فسد الشيء، يصبح ضرره أكثر من نفعه، إن لم نقل لم يعد له نفعٌ أبداً.

لم يقتصر إفساد الحضارة على أحوال المعيشة والأخلاق فحسب، بل إنها تفسد علينا طريق الوصول إلى سعادتنا الأبدية، أو الغاية التي خلقنا الله من أجل تحقيقها. من أجل ذلك، حذر سيدنا صالح عليه السلام قومه من مغبة أعمالهم، وبين لهم فسادها، وفساد معتقداتهم، وحذرهم من الفساد الذي أحدثوه في الأرض بعد إصلاحها، فما

---

(١) _ سورة الملك الآية (١٥)

كان جواب قومه إلا أن: ﴿**قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**﴾: تتخيّل تخيّلات وتتكلم. مستور عليك ما في هذه الأمور من نعيم.﴿**مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾(١).

وقد طلبوا منه آية، تثبت بأنه رسول من **الله** (٢)، فأرسل الله إليهم ناقة ضخمة، لها وِرْدُ يوم، ولهم وِرْدُ اليوم التالي، وبتلك الآية أصبح الماء قسمة بينهم وبينها، إلا أنهم لم يصبروا على تلك القسمة فعقروا الناقة.

وكان تعالى قبلها قد أخذهم بألوان من العذاب ليتوبوا، ويعودوا للحق فيصلحوا سيرهم المعوج، لكنهم تطيروا بصالح عليه السلام ومن معه، فردَّ عليهم بأن ما تطيروا به هو من عند الله، وذلك نتيجة أعمالهم المنحرفة، نتيجة افتتانهم في الدنيا وغرورهم بها.

أجل لقد نصحهم رسولهم مراراً، وبين لهم فساد مسلكهم، وبين لهم طريق سعادتهم في الدنيا والآخرة، إلا أنهم لم يقبلوا نصيحته(٣)، بسبب انهماكهم بالدنيا، وعدم تفكرهم بآلاء الله، وبالتالي عماهم القلبي. أوَ يحبون من يحاول نهيهم عن شهواتهم المنحطَّة؟ حتى لو أدت بهم إلى الفساد والتعاسة والشقاء، مما يظنونه دسماً وهو بالحقيقة سمٌ زؤام، ولمّا أطال نصحه لهم، وظنُّوه عائقاً فيما بينهم وبين ما يشتهون، أراد المترفون من قومه أن يتخلصوا منه، فكادوا له مؤامرة، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، فقبل أن تصل إليه أيديهم، وقبل أن ينفذوا مكرهم، أخذهم الله، هم وأتباعهم، من حيث لا يشعرون، إذ حاشا لله أن يمكِّن مخلوقاً من أن يلمس الرسول عليه السلام بلمسة أذى، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ**﴾: منهم من آمن ومنهم من لم يؤمن،

---

(١) _ سورة الشعراء الآيات (١٥٣-١٥٤)

(٢) _ قال تعالى:﴿**قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ، فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ**﴾ سورة الشعراء. الآيات (١٥٥-١٥٧)

(٣) _ انظر الآيات من رقم /٧٣ حتى ٨٠/ من سورة الأعراف.

فالذين لم يؤمنوا قالوا ائتنا بعذاب من عند الله، فأجابهم: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ...**﴾: قالوا ليفعل الله بنا ما يريد: ﴿**..بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ...**﴾: يستعجلون العذاب: ﴿**..لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ...**﴾: أهكذا بدلاً من أن تطلبوا الشفاء لنفوسكم: ﴿**..لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾: يغفر الله لكم. ﴿**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ...**﴾: تشاءمنا: ﴿**.. قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ...**﴾: ما تفعلونه معلوم عند الله، وإن ما يحدث لكم من إنذارات هو من عند الله ورحمته بكم، وليسَ لي به حولٌ ولا قوة: ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ...**﴾: قبائل: ﴿**.. يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ...**﴾: نقتله، ضاقوا به ذرعاً: ﴿**.. وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ، وَمَكَرُوا مَكْرًا...**﴾: دبّروا تدبيراً: ﴿**..وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾: بأن يَد الله فوق تسييرهم. أي أنّه لا إلّه إلا الله، لا فعّال، لا مسيّر إلا الله. ﴿**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[١].

كل هذه الأمثلة تبين رحمة الله تعالى بعباده بأنه يبين للإنسان أن يفكِّر في مصيره وما سيؤول إليه أمره هل هو إلى النعيم أم إلى الجحيم وما الذي يجب عليه أن يعمله ليتجنب الهاوية ويسمو إلى الجنان.

* * *

---

(١) _ سورة النمل الآيات (٤٥-٥٣)

قوم سيدنا لوط عليه السلام

آمن لسيدنا إبراهيم، سيدنا لوط، عليهما السلام، وراح بعد ذلك يدعو قومه إلى عبادة الله، وتَرْكِ السيئات، وكان لقوم سيدنا لوط سيئة انفردوا بها، دون غيرهم من الأمم التي سبقتهم.

تلك السيئة هي مباشرة الذكران من دون النساء، وهذه السيئة تترك في المجتمع آثاراً اجتماعية خطيرة، إذ أن ممارسة تلك العادة تخلق جيلاً متحللاً من القيم، ومن الأخلاق. وهي بالحقيقة تتويجٌ لسلوكية مجتمع منحرف. إن الفاعلين لتلك الشهوة الشاذة تفقد من المفعول بهم صفة الحياء والرجولة، وتحولهم إلى أشباه الرجال. إذ لا نستطيع أن نعدهم من الرجال ولا من النساء ومن الفاعلين تفقد صفة المروءة والوجدان. لذلك فاجتثاث الفاعل والمفعول به من الأرض أولى من بقائهم، ما داموا مصرّين، لأنهم أصبحوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وحيث أن قوم لوط عليه السلام هم أول من فتح باب الشذوذ الجنسي بالعالمين واخترعه وابتدعه، لذا كان عقابهم الردعي عنيفاً، وعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾[١]: تلقون بهذا الماء الطاهر في مكان نجس وتهدرونه وأنتم تبصرون ضعة نفوسكم وانحطاطها.

إن لوطاً عليه السلام، قد حذرهم من مسلكهم الشاذ هذا، وبين لهم أن فعلهم لم يسبقهم إليه أحد من العالمين. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: ﴿.. **أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾[٢]: هؤلاء جماعة يتظاهرون بالصلاح، هذه شهوة بكل إنسان.

---

(١) _ سورة الأعراف الآيات (٨٠-٨١)

(٢) _ سورة الأعراف الآية (٨٢)

لقد بلغت الوقاحة بقوم سيدنا لوط حد المجاهرة بخطيئتهم، وبلغ بهم العمى أن راودوا لوطاً عليه السلام عن ضيفه، وقد ضاق عليه السلام بهم ذرعاً، وعرض عليهم الزواج الشرعي من بناته حيث أن هذا هو أطهر لهم، حتى لا يخزوه في ضيفه، إلا أنهم رفضوا هذا العرض وقالوا: ﴿**قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ**...﴾[1]: لا نحبُّ النساء. ﴿...**وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**﴾: من الوساخة والسفالة.

فلما رفضوا الزواج من بناته، وأصروا على ما جاؤوا من أجله، طمأنه ضيوفه بأنهم لن يصلوا إليه، وأخبروه بأنهم ملائكة، جاؤوا ليقطعوا دابرهم مصبحين، ثم طلبوا من سيدنا لوط أن يسري بأهله بقطْع من الليل، من غير أن يلتفت منكم أحد بنفسه إلى أقربائه، لأنهم كفرة فجرة، وذلك كيلا تتلوث نفوسكم بالتفاتكم إليهم من شفقة أو عطف، أما امرأتك فقد قدرنا عليها ما قدرنا على قومك وإنه مصيبها ما أصابهم، لأن نفسها تغبَّرت من نفوس قومها، بسبب حبها لأهلها وميلها لهم، بدل الالتفات إليك، أو الاستماع لك.

من أجل ذلك حذر الله سبحانه وتعالى المؤمنين، أن يعلّقوا قلوبهم بمن حادَّ الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[2].

إن إتيان هذا المنكر أصبح في المجتمعات الحديثة شائعاً، كما أنه أصبح مشروعاً عند بعض الدول الغربية، وهذا الشذوذ تفشى كثيراً في بعض دول الشرق

---

(١) _ سورة هود الآية (٧٩)

(٢) _ سورة المجادلة الآية (٢٢)

الأدنى، فإذا أهلك الله قوم لوط بهذا العمل السيء، الذي يقضي على الحرث والنسل، والذي ليس له من شهوة سوى الشذوذ الجنسي في نفوس مرتكبيه، فما بالك وحال المجتمع الحديث كما نراه من تخنث ومشابهة بين الرجال والنساء، إلا أن نتوقع هلاكاً مروعاً يشيب لهوله الولدان.

قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ...**﴾: استاء وضاق صدره بهم: ﴿**..وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا...**﴾: ضاق صدره من مجيئهم، لأنه يعرف أن قومه أرذال: ﴿**.. وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**﴾: لا خلاص به: ﴿**وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...**﴾: السفالة: هذه صفتهم: ﴿**..قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ...**﴾: أزوّجكم إيّاهن: ﴿**..فَاتَّقُواْ اللّهَ...**﴾: ألا تخجلون؟! ﴿**...وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ**﴾: ألا يوجد فيكم رجل عاقل يستنكر هذا العمل؟! ﴿**قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ...**﴾: لا نحبّ النساء: ﴿**.. وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**﴾: من الوساخة والسفالة: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً...**﴾: لأردّكم: ﴿**..أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾: ظهرٌ أستند إليه، أو أحد أركن إليه في دفعكم: ﴿**قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ...**﴾: الملك لا يُعرف وهو بصورة إنسان، سيدنا إبراهيم عليه السلام، زوجة سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط عليه السلام لم يعرفوهم: ﴿**.. لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ...**﴾: إليهم بالمحبة: ﴿**..إِلاَّ امْرَأَتَكَ...**﴾: كانت تحب قومها، كفرت بحبّها لقومها، كذلك حبّ المرء يجرّه لحال من يحب: ﴿**.. إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ...**﴾: ستهلك معهم، لأنها كافرة مثلهم. على الإنسان أن يعلّق قلبه بأهل الطهارة: ﴿**..إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**﴾: جاؤوا وقت الصبح: ﴿**فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...**﴾: حصل لهم زلزال إذ قَلَب الأرض: ﴿**.. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ...**﴾: من سجل عملهم، كل واحد مسجّل عليه عمله من

حسنات وسيئات: ﴿.. **مَّنضُودٍ**﴾: متتالية، واحد بعد واحد. ﴿**مُّسَوَّمَةً**..﴾: كل واحد وبلاؤه على حسب ما يستحق، كل حجَر وعليه اسم صاحبه، يصيبه على حسب حاله، فالبلاء مخصص والرحمة مخصصة: ﴿..**عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ**...﴾: الآن: ﴿.. **بِبَعِيدٍ**﴾[1]: كل واحد سينال حقّه. زلازل هربوا منها، فإذا الحجارة ترجمهم من السماء.

إذن: على الإنسان ألا يعلق قلبه بالمعرضين فهذه زوجة رسول الله لوط عليه السلام كانت مغبرة النفس حيث كان لها محبة لقومها فجاءها البلاء معهم بمقدار ما تستحق، فمن حبها لهم وتعلقها بهم اغبرت واتسخت نفسها فصارت رائحتها القلبية من رائحتهم.

الله تعالى يقول للإنسان (أقبل عليَّ عبدي وانظر نتائج المعاصي) الإنسان الصحيح المؤمن لا يعلق قلبه إلا بأهل الحق، ولا يعلق قلبه بالكفرة (المؤمن يبغض لله ويحب لله) فأحبب أهل الكمال، فالمرء يحشر مع من يحب وأولئك هم الناجون من كلِّ كرب وهم: ﴿... **لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[2].﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[3].

* * *

(١) _ سورة هود الآية (٧٧-٨٣)

(٢) _ سورة يونس الآية (٦٢)

(٣) _ سورة التوبة الآية (١١٩)

أهل مدين

ومن حنان الله علينا أن يضرب الأمثلة لنا للموعظة والعبرة لعل عاص يتوب ويقلع مرتكب، ويزول الفساد من الأرض ويعيش الناس بسعادة حقيقية لا نغص فيها، ويضرب لنا مثلاً آخر عن أسباب هلاك الأمم: أهل مدين.

لقد أرسل الله إلى مدين أخاهم شعيباً: ﴿.. **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[(١)].

كان قوم سيدنا شعيب عليه السلام، قوم مدين، أي أهل دنيا ورفاهية وترف، إثراء وغنى فاحش. أقاموا حضارة دنيوية رائعة وسُمّوا **(بأصحاب الأيكة)** إذ جعلوا من حضارتهم جنة أرضية، أسسها الفساد والغش والخداع والحرام.

إذ كانوا أهل حضارة راقية ومدنيَّة عالية جمعوا صنوف لذائذ الحياة الدنيا وتباروا بالتنافس بها، كما كانت لديهم حدائق وجنائن وبساتين معطاءة أكرمهم ربهم بها فضلوا وأضلوا عن سبيله، وعلى مذبح الدنيا الدنية ضحوا بالقيم الإنسانية، فكان همهم الجمع والمنع، فالبائع يود السلب والنهب من الشاري، والشاري يودّ سلب البائع، وغدوا لا يهمهم إلا أمر أنفسهم، حتى فقدوا إنسانيتهم على حساب أنانيتهم، وغدا الإنسان ذئباً مُناه سلب أخيه الإنسان، وبما أن هذا الأسلوب من الحياة يفرق الإنسان عن أخيه الإنسان، ويوقع البغض والنفور والعداء ويجعل الحياة جحيماً نفسياً لا يطاق، وحين يذهب الإنسان إلى ربه إثر مفارقته الحياة. يذهب وليس له عمل صالح بين يديه يواجه به ربه ليرقى في جناته جزاء ما قدَّم، إنه لم يُحسن لمخلوقاته بل أساء ما استطاع دون رادع أو

---

(١) _ سورة الأعراف الآية (٨٥)

وازع، فلا أعمال يتقرب بها لربه لينال الجنات وبذا يخسر الداريْن دنياه وأخراه، فيسقط في وديان الحسرات والندامة والخجل، وخوفاً على قومه وحبّاً بهم نهض سيدنا شعيب ﷺ ناصحاً لهم رؤوفاً بهم شفوقاً عليهم، علّه ينقذهم، من وديان ومراتع الشقاء إلى مرابع السعادة والهناء. فالرسل كلهم على نسق واحد وكل متابع لهم من أهل الحق هذا قوله: ﴿...**يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ...**﴾، وقد جاء أهل مدين محل **(قحط)** وحفظ الله لسيدنا شعيب ﷺ ماله فذكرهم بمن سبق ممن هلكوا بسبب حبهم للدنيا وتنافسهم بها، وحذرهم من الفساد في الأرض بعد إصلاحها، بعمارة الأبنية والقصور، وما تبثه من فساد في قلوب العباد، فانظروا نتائج أهل الفساد الذين دلُّوا غيرهم على الأعمال المنحطة ماذا حلَّ بهم!

ولقد حذرهم سيدنا شعيب ﷺ من الفسق، ومن التلاعب بالكيل والميزان، أو أن يبخسوا الناس أشياءهم. لأن هذا الأسلوب الشيطاني، يولد الحقد والبغضاء بين البائع والمشتري، والغش والتحايل لا في البيع والشراء فحسب، بل في جميع المعاملات المعاشية. وهو أيضاً يفسد الضمائر ويعتادون على الكذب، وإذا فسد الضمير، شاع الفساد في الأرض، وحلَّ الشقاء، وخسروا الحياة الأبدية الأُخروية الباقية، على مذبح الحياة الدنيا الفانية. من أجل ذلك حذرهم رسولهم بقوله: ﴿.. **وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[1].

إن مثل الذين يبتاعون حاجيات الناس بثمن بخس، ويبيعونهم ما يحتاجون إليه بثمن مرتفع، كمثل المنشار الذي يأكل من الخشب في الذهاب والإياب. من غير أن يفيد الخشب إلا التقطيع والتمزيق.

كذلك فإن الأعمال التي كان يقوم بها أولئك القوم، تولد البغض بدل الحب، والقطيعة والتفرقة بدل التآزر والتعاون. إن شراء مقتنيات الناس بثمن بخس، ثم بيعهم

(١) _ سورة الأعراف الآية (٨٥)

بضائعهم بثمن مرتفع، هو أسلوب من يأكل ولا يطعم، وهو بالتالي أسلوب المطففين: **﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾**[1]

ولما حذرهم سيدنا شعيب من هذا الأسلوب، وبعد أن بين لهم النتائج التي تنجم عن تلك المعاملة، راحوا يحذرون الناس منه ومن أتباعه، ويقعدون لهم في كل طريق[2] ليصدوهم عن سماع الحق، وهكذا وبدل أن يستمعوا إلى موعظة رسولهم، قاموا يصدون عن سبيل الله ويتوعدونهم، لأنهم يريدونها عِوجاً. ناجزوه مناجزة وطلبوا منه تعنتاً أن يمطر عليهم كسفاً من السماء إن كان صادقاً فأخذهم الله بالهلاك: **﴿.. عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ...﴾**[3].

أما جوابهم فلا يختلف عما قيل لغيره من الرسل الكرام، كذلك فإن سيدنا شعيباً عليه السلام لم يقل غير ما قاله الرسل من قبل ومن بعد، لما فيه شفاؤهم وسعادتهم. إلا أن كل رسول يعطي اهتماماً خاصاً لمعالجة الظاهرة السيئة البارزة في قومه.

لذلك قال لهم رسولهم: **﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ...﴾**: تُبخّس له البضاعة وتحقرها لتأخذها بثمن بخس: **﴿..وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾**: كل ذلك يجرُّ الفساد بين الناس: **﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾**[4].

---

(١) _ سورة المطففين. الآية (٢٣)

(٢) _ قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام:**﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾** الآية (٨٦) من سورة الأعراف.

(٣) _ سورة الشعراء الآية (١٨٩)

(٤) _ سورة الشعراء. الآيات (٧١-٨٤)

وما كان جوابهم إلا أن: ﴿**قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**﴾: تتخيل: ﴿**وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾: هذا ظننا. ﴿**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾: نزِّل البلاء علينا. هذا هو الكفر: ﴿**قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾: هَو الذي ينزِّل: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ...**﴾: سحابة غمّت عليهم فأهلكتهم: ﴿.. **إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[1].

لقد بادت تلك الحضارة والمدنية وكأنها لم تكن وعاد الطابع البدوي الرعوي، وغدت الجنات والعيون غابات وأحراشاً طبيعية أصبحت للناجين بمثابة مراع يرعون فيها مواشيهم وسوائمهم: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ...**﴾: بآثارها ما تزال قائمة ظاهرة﴿...**وَحَصِيدٌ**﴾: زالت عن بكرة أبيها، لم يبق لها أثر: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ...**﴾: حاشا لله أن يظلم أحداً، خلقك وأعطاك أهلية تامَّة. فكيف يقولون: إنه كتب أناساً للنار، وأناساً للجنَّة؟! هذا كله يكذِّبه قوله تعالى: وما ظلمناهم: ﴿..**وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ...**﴾: هم أعرضوا، فضلوا، أرسل لهم الرسل ليرشدوهم، ما قدَّر الله عليك الشقاوة، لكن قدّر أنك إن سرت بهذا الطريق أصابك الشقاء، وإن سرت بهذا أصابك الخير، ما حتّم عليك. ظلموا أنفسهم إذ لم يفكّروا، كل من اجتهد ففكّر وعقل سبق، المجتهد يرقى: ﴿.. **فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ...**﴾: التي كانوا يعبدونها، كانوا يدعون آلهة، فما أفادتهم عند البلاء شيئاً. كذلك كل من يطيع ما سوى الله: ﴿.. **لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ..**﴾: ما استطاعوا دفع البلاء، كذلك الآن عندما يحلّ الموت بأحد، لا يستطيع دفعه عنه أحد، مهما كان له جند وقوّة: ﴿..**وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾: خسارة وخسران: ﴿**وَكَذَلِكَ...**﴾: هذا قانون، كل من سار بهذا السير حق عليه الهلاك. فكّر بنفسك، أعطاك الله أهليّة، تستطيع

---

(١) _ سورة الشعراء الآية (١٨٥-١٩٠)

بهذا الكون، الوصول للإيمان وحدك، من دون أحد: ﴿..**أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ**...﴾: ضمن عدالة، لا يأخذ إلاّ الظالم: ﴿.. **إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾: ولكن ليس ثمة من يفكّر: يراها بعيدة: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً**...﴾: دالّة، ظاهرة، مكشوفة: ﴿.. **لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ**..﴾: فقط، وهو كل من فكّر واستدل، فعرف أن هناك موتاً، وملكاً سيقبض روحه، ومن بعده عذاب أو جنة، هذا الشخص يستفيد من هذا الكلام.

ففكّر يا إنسان، مهما فعلت لا بدّ من الموت. هذه آية لمن يفكّر ويؤمن بالآخرة، فمن لا يفكّر بالموت، لا يفقه من كلام الله شيئاً، الأماني لا تغني: ﴿..**ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ**...﴾: من آدم عليه السلام، إلى يوم القيامة: ﴿..**وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**﴾(١): تتكشف حقائق الخلق، كل إنسان لابس ثوبه، كل واحد لابس عمله. هنالك الخزي والهوان، لقد ضيّعوا الغاية التي خلقوا وأوجدوا من أجلها، فتب وصلِّ الآن، فالحسنات يذهبن السيئات، فتلاف أمرك، لا تنقطع عن الله حتى تنزع الثوب الوسخ، وتلبس الثوب النظيف وتحقق الغاية التي خلقت لأجلها. فلا تنشغل بما هو ليس لك عما هو لك وبما خُلق لأجلك عمّا خُلِقت لأجله.

تلكم لمحة موجزة سقناها في هذا البحث، تكلمنا فيها عن حياة معظم الأمم البائدة التي ذكرها تعالى في كتابه الكريم. وأشرنا إلى أهم الأعمال التي كانت تفعلها، والأقوال التي عارضت بها رسلها. ثم تحدثنا عن المستوى الحضاري الذي بلغته بعض تلك الأمم كقوم عاد، وهذه الحضارات الزائغة بأفانينها المتعددة التي تشغل النفوس عن ذكر الله، وإذا أعرضت النفوس عن الله، أصبحت تعيش معيشة ضنكاً ولن تغنيها المادة عن الروح. كذلك تبين لنا من خلال دراستنا لتلك الأمم النتائج المؤسفة التي وصلت إليها، لما ظلموا أنفسهم، واتبعوا أهواءهم، ونسوا الغاية التي خلقوا من أجلها.

---

(١) _ سورة هود الآيات (١٠٠-١٠٣)

وكيلا يقع علينا ما وقع على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وكيلا نضيّعِ الغاية التي خلقنا من أجلها، لذا لا بدَّ من وقفة نبين فيها غاية الحق من إيجاد الخلق:

* * *

غاية الحق من إيجاد الخلق

لا بدَّ أن كل إنسان وعبْر فترات عمره قد دارت في خلده أسئلة كثيرة، فهو منذ طفولته ومع بداية إدراكه وتمييزه يسأل عما يراه. فقد يسأل الطفل إذا نظر إلى السماء مثلاً، لماذا تلمع هذه النجوم؟ وأين تذهب الشمس في المساء؟ ومن أين تجيء الغيوم؟ إلى غير ذلك من الأسئلة.

إلهامات وتساؤلات: ومع نمو إدراك هذا الطفل تكثر أسئلته، طالباً من خلالها التعرف إلى هذا الكون، وهكذا..

إلى أن يتجاوز في تساؤلاته حدود هذا الكون المادي، فينتقل إلى مجال آخر، فيتساءل عن موجد هذا الكون؟! وأين هو؟! وما غايته من إيجاده؟! فحب الاستطلاع من أسس طبائع الإنسان، فما حقيقة تلك الأسئلة؟ وما مصدرها؟ قد تظهر وكأنها منبعثة من نفس ذلك الطفل، إلاَّ أن الحقيقة غير ذلك، فهذه الأسئلة كلها موجَّهة من الله عن طريق ملائكته لهذا الطفل، على شكل صوت خفي ينبض في قرارة نفسه، علَّها تقوم بتحريض هذا الإنسان ودفعه للبحث عمَّا خُلِقَ من أجله. فمن أجل أي شيء خلق هذا الإنسان؟ وهل صحيح أن هذا السؤال لا جواب له؟

أم هل خُلِقَ من أجل مأكل ومشرب وزواج أو غير ذلك من شهوات؟ حتماً ليست هي الغاية التي خلقتَ من أجلها.. فكلُّ ما هو دونك من المخلوقات والحيوانات تحصل على مثل هذا، وهي أوفر حظاً منك بالحصول على تلك الشهوات والتمتُّع بها.. فإن كانت الغاية للأكل والشرب، فالبقرة مثلاً تأكل عشرات الأرطال من طعامها.. بلذة وشهوة ونَهَم، فأي إنسان مهما بلغ هل يسبقها بالطعام؟!

وإن كانت الغاية النكاح، فالطيور أسبق منه بكثير، فأيُّ ديك عنده الأعداد الكثيرة وقد تصل للعشرات من الدجاجات، وكذا كساء الطيور وأرياشها فهي ذات

جمال منقطع النظير كالطاووس مثلاً بما حوى من روائع الخلق، ما يغنيها عن علوم البشر ومصانع نسيجِه وصنع الملابس وما إليها من تعقيدات الحضارة ومدنيتها، وَلخلَق الله البشر على نهج الطيور الفتانة الرائعة الجمال دونما جهد ونصب لتكاليف الحياة المعقدة المرهقة، ولكفاه كما يكفي تلك الطيور الراقية البديعة التي تشدهُ العقول وتسبي القلوب، تغدو بالصباح خماصاً، وتعود بالمساء بطاناً، بلا جهد ولا عمل مضنٍ.

فما الغاية التي جئنا لأجلها إلى الدنيا إذن؟

قيل: خلقنا الله من أجل عبادته، والدليل قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[1].

لماذا خلقنا؟!

صحيح هذا، ولكن هذا الجواب للبعض هو سؤال في حدِّ ذاته، فلم خلقنا الله وأمرنا بعبادته؟ هل لأنه إلّه وينبغي للإلّه أن يكون لديه من يعبده؟ وهل هو سبحانه وتعالى بحاجة لعبادتنا وهو تعالى الصَمد الذي يمدُّ ولا يستمد؟

أم أنه خلقنا وأمرنا بالعبادة ليذيقنا صنوفاً من المشقات من أوامر ونواه؟! حتماً ما كانت الغاية لا هذه ولا تلك، وحاشا لله أن تكون كذلك. فإن كمال الله وأسماءه الحسنى تتنافى وهذه الغايات، فالله تعالى غني عنّا وعن عبادتنا.

إذ يقول تعالى: ﴿**مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾[2].

وفي الحديث القدسي الشريف:

(.. يا عبادي: لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كلّ إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلاّ كما ينقص المخيطُ إذا أُدخل البحر..) [1].

---

(١) _ سورة الذاريات الآية (٥٦)

(٢) _ سورة الذاريات. الآية (٥٧)

غاية خَلقنا:

إذن غاية الحق من إيجاد الخلْق هو أن يتعرف الإنسان على خالقه، وأن يعمل المعروف والإحسان، وذلك بأن يؤمن بالله ورسوله، ويصبح صاحب بصيرة يرى الخير من الشر، فيعمل الخير، فيسعد في دنياه ويلقى ربه بعد موته بوجه أبيض بما قدَّم لعباده تعالى من خيرات، فيخلد في جنَّاته بالغبطة الأبدية.

إليك بيان ما كنتُ قد قدَّمت له فأقول:

كان الله ولم يكن معه شيء، فلا أرض ولا سماء، ولا قمر ولا نجوم، ولا غير ذلك من مخلوقات.

فمهما قلتَ أول، فهو أول وأول، وليس لوجوده تعالى أول، ولا شيء قبله.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

الغاية من خلقنا..

وقد أراد الله وهو معدن الجود والإحسان، والرحمة والفضل والحنان، والجمال والعظمة والجلال، وما إليها من الأسماء الحسنى الدالة على الكمال، أراد تعالى أن يخلق المخلوقات ليذيقها من رحمته، وليغمرها بفيضٍ من برِّهِ وإحسانه.

وإن شئت فقل: أراد تعالى أن يخلق المخلوقات ليغمرها بذاته، حتى تسبح متنعمة في شهود جماله، وتتمتع مستغرقة في رؤية كماله.

وفي الحديث القدسي الشريف: **(كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق وعرفتهم بي فبي عرفوني)**[3].

---

(١) _ كنز العمال ج٥ رقم /٤٣٥٩٠/.

(٢) _ سورة الحديد الآية (٣)

(٣) _ وقد وافق على صحة الحديث الشيخ علي ملا القاري مستنداً إلى تأويل ابن عباس رضي الله عنه لقوله تعالى:**﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** الآية (٥٦) من سورة الذاريات: أي ليعرفوني. وقد اعتمده الصوفية وابن عربي وبنوا عليه أصولاً.

والمراد **بالكنز** هنا: هو ذلك الجمال الإلّهي العظيم، والكمال العالي الرفيع. ومعنى **المخفي:** أي الذي لا يعرفه أحد.

فأحببت أن أُعرف: وذلك من كرمه تعالى وكبير فضله، لأن من شأن الكريم أن يظهر كرمه وفضله، ويفيض برَّه وإحسانه.

فخلقت الخلق: ليتمتعوا بشهود ذلك الجمال الإلّهي، وليستغرقوا في رؤية ذلك الكمال الذي لا يتناهى. وهي تشير هنا إلى إيجاده تعالى المخلوقات في ذلك العالم الذي يسمونه عالم الأزل.

وعرفتهم بي: أي عن طريق رؤيتهم لأنفسهم، توصَّلوا لمعرفتي، فتمتعوا برؤية ذلك الكنز العالي، إذ شاهدوا طرفاً من جمالي وكمالي: كان ذلك كله قبل مجيئنا إلى الدنيا.

هذا، وسبب الخروج إلى الدنيا هو أن وقوف هذه المخلوقات عند درجة واحدة من الرؤية للجمال والجلال الإلّهي الذي شهدته، يجعلها فيما بعد تملّ الحال الذي هي فيه، مهما كان عالياً، ولا بدَّ لها حتى يكون النعيم والفضل تاماً، من أن تترقى في الرؤية من حال إلى حال أعلى، بصورة جديدة كل الجدَّة ولا تتناهى. وتقريباً لذلك من الأذهان نقول:

لو أن رجلاً يجلس في مزرعة فاتنة جميلة لم تر مثلها العين، وظل مقيماً فيها أمداً طويلاً.. فلا شك أنه يملّها، ولا يعود يرى بعد حين ما فيها من متعة وجمال، ولا بد له حتى يدوم له النعيم، من أن ينتقل إلى بستان جديد آخر أجمل وأحلى وأبهى مما هو فيه.

الملل: ولا شك أن الملل يتطرَّق إلى النفوس، فهي بطبيعتها تملّ دوام الحال الواحد..

حتى أنها تملّ تكرار ودوام الأصوات والأنغام الطروبة، بل والمآكل الفاخرة بتكرارها، وكافة المشتهيات المتكررة بذاتها.

وحيث أن المخلوق لا يستطيع أن يترقى في رؤية الجمال الإلّهي من حال إلى حال أعلى، إلاَّ إذا كانت له أعمال طيبة تجعله واثقاً من رضاء خالقه عنه، وتكون له بمثابة مدارج يستطيع أن يتقرَّب بها إلى الله تعالى زلفى، لذا منحنا تعالى حرية الاختيار لنكسب الأكثر، وأخرجنا تعالى إلى هذه الدنيا لنصبح أولي بصيرة، نميِّز الخير من الشر، والغثَّ من الثمين، والعمل الدنيء من الأعمال الإنسانية السامية، والباقي من الزاهق الفاني، فننطلق إلى فعل الخيرات، لذا أرسل لنا رسلاً وأنبياء، أدلاَّء على الحق، ولنخضع لأوامره الخيِّرة لنا، برؤيته تعالى التي تديم نفع ما نطبِّقه أبد الآباد في الحياة وبعد الممات، فننفع عباده الذين يحبهم تعالى كما يحبنا، لأنه هو أوجدهم وخلقهم ونمَّاهم.. وبأعمالنا الطيبة لهم، يرضى عنَّا، فحين ننتقل إليه تعالى إثر انتهاء آجالنا، فإنما ننتقل بوجه أبيض بأعمالنا الطيبة، فنُقبل عليه تعالى، ونتمتع بجناته اللانهائية من جنة لجنة أعلى وهلمَّ جرّاً، مرتكزين على الثقة بما قدّمنا من أعمال عالية طيبة، تتكرَّر بالآخرة أمامنا، فتكون بمثابة مدارج لمعارجنا بالجنّات.

إذن: فالله تعالى خلق الإنسان لفعل المعروف وعمل الإحسان، ولما يبنى عليهما في الآخرة من إكرامات وجنات وتلك غاية وجودنا إن آمنّا به تعالى فعرفناه، فصرنا أولي بصائر به تعالى، فهو نور السماوات والأرض، نرى الخير ونعمله، ونرى الشر فنتجنبه، فهو مانح وخالق كل فضل ونعمة وإحسان، وما هذه الدنيا بذات قرار، فكل من عليها فان، ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام.

وبما أن الناس اليوم على وجه هذه البسيطة، ضيّعت تلك المعرفة الثمينة، وخسرت الأعمال العظيمة التي تنتجها معرفتها بالله تعالى، وأعملت تفكيرها فقط

بالحياة الدنيا الدنيئة، فإن البلاء بات بكل لحظة متوقعاً، شأنهم بذلك شأن الأقوام السابقة الهالكة بل أدهى من بلائهم وأَمرّ.

* * *

الفصل الثاني

في هذا الفصل:

- **الساعة وحتمية وقوعها.**

* * *

الساعة وحتمية وقوعها

يعتبر موضوع الساعة من المواضيع الغامضة والمشوشة، ليس عند المسلمين وحسب، بل عند غيرهم من أصحاب الديانتين اليهودية والنصرانية.لقد خلط علماء المسلمين، وعلماء النصارى، بين الساعة التي يأتي بها السيد المسيح عليه السلام، وبين الساعة التي تقوم بها القيامة. فكان معنى قولهم إذ قالوا: إن الساعة التي يأتي بها السيد المسيح، هي نفسها الساعة التي بها تقوم القيامة، وكما أن مفهوم الساعة غامض ومشوش لديهم، فإنهم لم يدركوا الغاية التي يأتي بها السيد المسيح عليه السلام.

فاليهود مثلاً الذين لم يعترفوا بالسيد المسيح عندما جاء في المرة الأولى، يأملون من مجيء السيد المسيح الحقيقي بزعمهم، أن يعيد لهم عزهم الآفل ومجدهم المنهار، وذلك بعد أن يصبح الملك العالمي.

والنصارى يأملون أيضاً، أن يدخلهم السيد المسيح ملكوت الآب، بعد أن كفر عنهم سيئاتهم وافتدى بدمه الخطيئة الأولى.

أما المسلمون فغايتهم منه عند مجيئه، أن يقتل الدجال واليهود، ويكسر الصليب، من غير أن تمسهم الأحداث التي ترافق مجيئه بسوء، وهم الآن على ما هم عليه، تلك أمانيهم، أما الحقيقة فليست كذلك، الحقيقة أن تتعرف على رب الحق والحقيقة، فإذا آمنت بالله من ذاتك بذاتك، عن طريق الاستدلال بالكون حق الإيمان، تجد كل مسألة في القرآن واضحة أشد الوضوح، مبينة كفلق الصبح.

من أجل ذلك لن تجد لهذا الكتاب مصدراً سوى القرآن الكريم، الجامع للصحف السماوية، والتوراة والزبور والإنجيل، والسنة النبوية المطهرة التي تشرح عملياً معاني

القرآن، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى ما فرط في الكتاب من شيء[1] وبيَّن فيه كل شيء.

إننا إزاء مفهوم جديد، وإن شئت فقل إزاء حقيقة واقعنا، فهي جديدة كل الجدة، غريبة كل الغرابة، عما ألفه الناس وما سمعوه من منقول، وهذه الحقيقة الواقعية اليقينية، مبنية على الاستنباط من القرآن وحده، الذي يشمل السنة والحديث والفقه، وكل ما يفيد الإنسان ويسعده في الدنيا والآخرة.

وإن شئت الحقيقة فقل إن الإيمان التقليدي، غير المبني على اليقين الذاتي بالبحث والاستدلال، هو الذي يجعل القرآن على الناس عمى، وهذا الإيمان الذي يخلو من اليقين، هو الذي يجعل بيننا وبين معانيه الرفيعة السامية، حجاباً مستوراً، وهو الذي يمنعنا أن نستشف ثقل القول الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم ﷺ.

وهذه الحقيقة قد توافق أو توازي ما قاله الأولون في بعض الأحيان، وقد تخالفهم أو تعاكسهم في أحيان كثيرة. لهذا لا نريد أن نناقش أقوالهم أو آراءهم المتضاربة، كأن ننفي قولاً ونثبت آخر، أو نستخلص من مجموع الآراء رأياً وسطاً، ثم نخرج كتاباً ليس فيه إلا الجمع والتنسيق، ثم نقول للناس قد ألَّفنا كتاباً، من غير أن نقول لهم إننا جمعنا لهم مما قاله الأولون كتاباً.

والآن لنرجع إلى موضوع الساعة، نستجلي معناها من المعين الذي لا ينضب، ومن ذلك المصدر الذي لا عوج فيه ولا اختلاف، من كتابٍ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

---

(١) _ قال تعالى:﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الآية (٣٨) من سورة الأنعام، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ الآية (٨٩) من سورة النحل

لقد ذكرنا في فصل سابق أهم أعمال ومعتقدات معظم الأمم البائدة، وبيَّنا الأسباب التي أدت إلى هلاكهم، ونريد في هذا الفصل أن نستعرض أعمال ومعتقدات البشرية اليوم، ثم نقارن بعد ذلك هذه الأعمال والمعتقدات مع تلك، وبعد المقارنة سيتبين لنا ما إذا كنا في نجوة من الهلاك الوشيك، أو أننا سوف ننتهي إلى نفس المصير الذي انتهوا إليه، إن لم نغير السلوك الخاطئ، ونخضع لحكم الله في كتابه الكريم.

إن معتقدات الأمم البائدة لا تختلف من حيث الجوهر أو المضمون، عن معتقدات أمم هذا العصر، ولم يتبدل فيها إلا الشكل والعرض، ذلك لأن الأنفس البشرية لا تتبدل باختلاف الزمان والمكان، وإنما الذي يتبدل هو ما تعيه النفس أو تحويه من حق أو باطل، أو من حقائق وأوهام. وعلى أساس هذا الوعي أو هذا الاحتواء، تطلب النفس من الفكر أن يبحث لها عن المبررات، ليمنطق لها ما تعتقد وتهوى، وبما أن النفس الكافرة بربها لا تحوي إلا شهوات الدنيا أو شهواتها، ولا ترى إلا صور الأشياء والأشكال، لذلك فإن الذي يتبدل من المعتقدات لديها، هو التغيير والتبديل الذي يطرأ على شكل المادة، وهذا التبديل هو الذي دعيناه بالعرض.

فإذا كانت الأمم البائدة تعبد الكواكب، وتتخذ لها رموزاً، فإن الغاية هي جلب منفعة أو اتقاء خطر، وإن تعلقهم بالصورة دون شهود الحقيقة، هي التي أوحت لهم مثل تلك المعتقدات.

وإذا كنا ننظر إلى تلك المعتقدات نظرة ازدراء وسخف، فإن معتقدات الأمم الحاضرة لا تقل عن تلك سخفاً وازدراء.

فمهما تبدلت المفاهيم وتغيرت الشكليات، فإن الجوهر يظل واحداً، لقد استبدلت الناس الآلهة المتعددة، بآلهة متعددة أخرى، فمن البشر من اتخذ الطبيعة إلَهاً،

وغيرهم اعتبر العقل المتفوق هو الإلّه. فالطبيعة بنظر الشيوعية مثلاً هي البارئة المصورة، أما سر خلقها فلم تبح به إلا لرسلها **(دارون وماركس وانجلز ولينين)**.

إن نظرية دارون: **(الاختيار الطبيعي أو بقاء الأصلح)** التطورية قد مهدت للآخرين نظريتهم المسماة **(النظرية الديالكتيكية)** وهذه النظرية التي بها قوام الخلق والمعاش، تقوم على أسس ثلاثة:

الأول: تحول التبدلات الكمية إلى تبدلات كيفية، وهذه الفكرة أوحتها الطبيعة إلى دارون وأضرابه الذين سبقوه، وخلاصتها أن التباين بين ظواهر الطبيعة، هو تباين كمي. أي هي عبارة عن عملية تجميع وتركيب كمي للأجسام، فلا تتبدل نوعياً، وهذا التفسير الميكانيكي للتطور أو للارتقاء، أوقعهم في أخطاء كثيرة، ووُجِهتْ إلى تلك النظرية سهام نقد مميتة.

الثاني: وحدة صراع المتناقضات، وهذا القانون كما تقول الشيوعية يكمن في العلاقات المتبادلة بين محتوى الشيء وشكله، بين الجوهر والظاهر. والعلاقات المتبادلة تعني أن جميع الأشياء والظواهر ذات تناقضات داخلية، وإن كل شيء هو وحدة متناقضات، وهذه المتناقضات في الشيء، هي سلبية وإيجابية، لها ماضيها ولها مستقبلها، وفيها ما مضى زمانه، وهو في طريقه إلى الموت، وفيها ما هو في طريق النمو والتطور، وصراع هذه الاتجاهات المتناقضة التي تحتويها الأشياء، هو مصدر التطور والقوة المحركة له.

وفي اعتقادهم أن مرحلة حل المتناقضات هامة جداً في التطور، فعندما يستنفد القديم ذاته، ويصبح لجاماً عائقاً في طريق الجديد، فإن التناقض بين القديم والجديد ينبغي أن يحل عن طريق انعدام القديم، وظفر الجديد.

الثالث: قانون نفي النفي، وهذا القانون يعني نفي النوعية القديمة، وإحلال النوعية الجديدة، فمثلاً البرجوازية حلَّت محل الإقطاع بعد أن نفته، والاشتراكية

سوف تحل محل الرأسمالية، ويمكن القول على أساس ذلك بأن الشيوعية ستحل محل الاشتراكية، ولا بد أن يأتي يوم ونتيجة لهذا الصراع أن تنفى الشيوعية من الأرض[١].

إن رسل الطبيعة قد اعترفوا بأن آلهتهم عمياء، وغير واعية. وأهدافها من خلقها تتم بدون وعي.

ولكن ما يضير هذه الآلهة العمياء عماها وعدم وعيها، طالما أنها تخلق خلقاً واعياً، وتنظم الأمور تنظيماً عقلانياً على غاية من الدقة والإبداع والتكامل، وهذا الإبداع في التنظيم، وهذا السر في الخلق كله، قد ساقته يد المصادفة!

وبعد ذلك هل رأيت سخفاً أشد من هذا المعتقد؟ أم رأيت عمى أبعد من هذا العمى، أليس هذا هو الضلال البعيد؟ وهل المصادفة تتكرر؟ إن تكررت أصبحت قانوناً وخضعت لإرادة مسيّرة لها، فمن يُشرق الشمس في نفس اللحظة من كل يوم في كل عام سابق ولاحق؟! هل هذه مصادفة؟ ولكن لا عجب: ﴿.. **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾[٢]. من لا يؤمن بلا إلّه إلا الله فهو في ظلام قلبي، نوره الدنيا الزائلة.

ومن هذه الآلهة السائدة في هذا العصر أيضاً، إلّه العقل أو إلّه العلم. إن هذا الإلّه هو من جنس الإنسان نفسه، إلا أنه يمتاز عن الإنسان العادي بتفوق ذكائه وقدرته على الكشف والاختراع، والبشرية تأمل من هذه الآلهة المتفوقة، أن تحقق لها كل ما كانت تصبو إليه من الإلّه القديم الذي قضى نحبه، باعتقاد الفيلسوف نيتشه.

---

(١) _ وهذه بشّر بها العلاَّمة محمَّد أمين شيخو قدَّس الله سره بزوال الشيوعية من روسيا من ذلك العهد بالخمسينات من القرن الماضي، حين كان الاتحاد السوفيتي بذروة مجده وقوته.

(٢) _ سورة النور الآية (٤٠)

وهذا الإلّه (أي الإنسان المتفوق) هو من نتاج الطبيعة التي ألّهها ماركس وأضرابه، يحاول أن يتمرد على آلهته الأم، ويسخرها لمشيئته ويتصرف بها كيف يشاء، لأن أمه فضلاً عن عماها وعدم وعيها، رعناء وظالمة، وتأبى أن تجود عليه إلا بالنزر اليسير، بالرغم من غناها الفاحش، لذلك فبمحاولته للسيطرة عليها، يريد أن يجعل على الأرض جنات النعيم، ولم يكتف هذا الإلّه أو هذا الابن العاق لأمه، أن يسيطر عليها، بل يسعى ليسلب منها سر الحياة، حتى لا يبقى تحت رحمتها أو تحت وصايتها، تقضي عليه متى شاءت، من غير أن تتركه يتمتع بالحياة. فأمه باعتقاده، تتخبط في مصير مخلوقاتها تخبطاً عشوائياً. إن الذي ساعد الناس على تقبل فكرة هذا الإلّه الجديد، والإيمان بقدرته، هو ما أحرزه الإنسان من تقدم تكنيكي هائل. إذ أصبح نتاج هذا الإلّه هو شغل البشرية الشاغل في العصر الحديث، وإلى جانب هذا النتاج خلق لها من المتاعب ما يفوق التمتع بنتاجه أضعافاً مضاعفة، فضلاً عن ذلك فقد وضع من أسلحة الدمار الشامل ما تستطيع أن تقضي به عليه، وعلى البشرية جمعاء.

أما شريعة هذا الإلّه، فقد جاءت نتيجة طبيعية لنتاجه، فقد علّم الناس البخل، والجشع، والمكر، والخديعة، والفسق، والغلظة، والظلم، والخيانة، وبمعنى آخر فقد استطاعت هذه الآلهة من خلال نتاجها، أن تفسد على الإنسان نفسه، وبالتالي أفسدت عليه معيشته، إذ كيف يتمكن الإنسان أن يؤمّن ما صنعه من زخرف وزينة إذا لم ينغمس ويسترسل في الحياة الدنيا، ويسخّر كل طاقاته وملكاته من أجل تأمين متطلبات الحياة التي يعيشها مجتمعه، وإذا لم يبخلْ ويَحْتَلْ ويفسق ويكذب ويسرق. كذلك لم تقف شريعته عند تلك الحدود، بل استطاع أن يقيد الناس ويسلبهم حرياتهم التي منحت لهم، وأصبح الفرد عنصراً تافهاً لا قيمة له، وأضحى وكأنه جزء من أجزاء آلته الصماء.

ليت شعري، كيف تستسيغ البشرية حياة تقوم على الظلم والفسق والصراع والعبودية؟! وكيف يمكن أن تحل السعادة على مجتمع يحيا حياة مشحونة بالحقد والرياء؟

إنه لا يمكن أن تكون السعادة المنتظرة في ظل إلّه العلم إلا وهماً ابتدعته مخيلة المهووسين به. إذ كيف يكون ذلك في مجتمع فقد القيم الإنسانية، وفقد صفته الإنسانية؟

لقد تجرد إنسان هذا العصر من كل القيم التي تجعله إنساناً، واستبدلها بقيم بهيمية من نوع مفترس أو محتال، ثم أحل محل الفضيلة، الرذيلة، واستبدل شريعته المثلى، بشريعة الغاب.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١].

تلك نماذج عن أهم المعتقدات المستحدثة في عصر الذرَّة، فهل نعتقد بعد هذا أن تكون الشعوب القديمة قد وصلت بكفرها بخالقها ومربيها إلى ما توصلت إليه البشرية اليوم؟ وهل أنكرت وجود الخالق كما أنكرته في هذا العصر؟

إن إبليس على شدة كفره لم ينكر وجود الخالق، ولا العزة الإلّهية، ولا الربوبية أيضاً [٢]، بل أنكر العدل الإلّهي، عندما ظن بأن الله فضل سيدنا آدم عليه بغير الحق بزعمه، كذلك فإن عبدة الأصنام لم ينكروا الله، بل اعتقدوا بأن تلك الأصنام (الحجارة) هي الوسيلة لتقربهم إلى الله زلفى. أما أن يحكموا على الله بالموت (مجانين) أو ينفوا وجوده، فهذا ما لم يفعله الأوَّلون. ليس بالأمر العجاب

---

(١) _ سورة الأعراف الآية (١٧٩)

(٢) _ **﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ...﴾** الآية (٣٩) من سورة الحجر، **﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** الآية (٨٢) من سورة ص. اعتراف بالعزة الإلّهية وبالخالق.

أن تصل الناس بكفرها وإنكارها وجحودها إلى ما وصلت إليه الآن، كما أنه ليس بمستبعد أن يصبح إبليس تلميذاً عند أئمة الكفر منهم، يعلمونه كيف يُضِل الناس، ذلك لأن للكفر قوانينه، وللإيمان قوانينه أيضاً.

فالكفر أو الإيمان يزداد وينقص، بحسب سلوك هذا الطريق أو ذاك.

فأيما السبيلين سلك فإنه يبتعد عن الآخر.

وبما أن معظم الناس في هذا العصر اتخذت الدنيا سبيلاً، واكتفت وارتضت بها حياة، فلا نعجب إن صدرت من أفواههم مثل تلك الأقوال، وظهرت منهم مثل تلك الأعمال، لا سيما في المجتمعات الأوروبية خاصة، وفي سائر المجتمعات البشرية عامة.

أما سبيل الآخرة أو سبيل الله، فهو باتجاه معاكس لطريق الدنيا الدنية، فكلما ابتعد الإنسان عن حب الدنيا، اقترب من الله واستقام له طريقه. وما دام في قلبه شيء منها، يظل مشدوداً إليها، بقوة ما في قلبه منها. وفي اللحظة التي يتخلص من عقالها، يكون قد تخلص من أكبر عقبة تعترض سبيله إلى الله، وعندها تبدو له الحقيقة، سافرة من غير قناع.

إن السبب في عدم رؤية الحقيقة، هو أن الإنسان إذا أحب الدنيا فإن النفس لا تتذكر إلا ما تعي، ولا تفقه إلا ما تحتوي، فإذا يممت وجهها شطر الدنيا، فإنها تختزن من الشهوات بقدر توغلها فيها، وتصبح لها غطاء، وهذا الغطاء يكون بمثابة حاجز يمنعها من سماع الحق، لذلك فحينما يلقى عليها شيء من الحق، لا يكون له وقع فيها، ولا ميل له، لأنها لم تع منه شيئاً، وبالتالي لا تفقه منه شيئاً.

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا، نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا**

يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾[1]. فهم نجوى مع الشيطان وللدنيا، يخاطبهم الشيطان ويزين لهم أعمالهم، لأنهم بعيدون عن الله مثله، وحب الدنيا الفانية قد ملك قلبهم.

قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾[2]: هنا يصف حالهم وقولهم: قلوبنا مستورة مرتاحة مما تأمرنا به، لا نريد سماع بيانك اتركنا واعمل بما ترى إننا عاملون بما نشتهيه. كانت الدنيا الزائلة غاية مُناهم.

أما المؤمن فإن القرآن يصبح له تذكير وهدى، يذكره بالحقائق التي رآها بنفسه، فكلما وعى المؤمن من الحقائق أكثر، رأى من القرآن حقائق أعمق وأغزر، ويرى القرآن وكأنه ترجمان لمكنونات نفسه أو لما كان قد شاهده من الحقائق التي نالها بإيمانه بالآيات الكونية (صنع الله) من قبل.

ومهما تقدم الإنسان في معارج القدس كمالاً وعلماً، ومهما رأى من الحقائق الفكرية والعقلية يجد القرآن ليس سابقاً إليها وحسب، بل شارحاً ومفصلاً لتلك الحقائق أيما تفصيل.

وبذلك الفهم للقرآن، يستعظم الرسول، المفيض لحقائق القرآن فيضاً، لما حوت نفسه الكريمة ﷺ، من العلم ومن الكمال، الذي لم يدانه بمثله أحد في العالمين.

وكيف لا يكون ذلك، وقد بلغ ﷺ سدرة المنتهى في العلم الإلّهي والرحمة والكمال؟ إن القرآن وإن كان ذكرى للعالمين، إلا أن معانيه الرفيعة لا يتذكرها إلا العالِمون، الذين يخشون ربهم بالغيب.

ولذا فإن الله جل شأنه، لا يطلب من الرسل إلا أن يذكِّروا الناس بعهد الله وميثاقه والبعث والجزاء، والنظر إلى ما يؤول إلى خالقهم ومربيهم ومسيرهم.

---

(١) _ سورة الإسراء الآيات (٤٥-٤٧)

(٢) _ سورة فصلت الآية (٥)

غير أن هذه الذكرى ما كانت لتلقى جزافاً من الرسل، بدون وحي من حضرة الله إليهم، أما غيرهم من الذين أصبح لهم علم بالكتاب، فيكون عن طريق رابطة المؤمن القلبية برسول الله ﷺ وفهمه لمعاني الكتاب، وهذه ناحية جد مهمة، ذلك أن الرسول لا يعلم ما في نفوس البشر، بل الله هو العليم بالسر وأخفى، ولذا فإنه سبحانه يوحي إلى الرسول، القول الذي يجب أن ينطق به عند اجتماع الناس إليه، لأن هذا القول هو الأنسب لهم في تلك اللحظة. ومن أجل ذلك أوحى تعالى إلى رسوله الكريم، أن لا يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، ولم يقتصر هذا التنبيه على الرسول الكريم ﷺ وحده، بل ذكر سبحانه أن جميع الرسل لا يسبقونه بالقول. معصومون[١]، لا ينطقون إلا بعد قول الله وأمره. عباد مكرمون منزهون عن الزلل.

وبما أنه تعالى وحده هو المطلع على أسرار نفوس خلقه، ولا يأذن لأحد أن يطلع على ما في نفوس الآخرين، لأن من صفاته الستار، لذلك هو الذي يوحي إلى الرسول أن يتكلم بهذا القول أو بذاك، أما الرسل وإن كان قولهم حقاً، إلا أنهم

---

(١) _ لقد جاء في التفاسير: أن الذين لا يسبقونه بالقول من الآية الكريمة:﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾الآية (٢٧) من سورة الأنبياء، هم الملائكة، أما الحقيقة فإن الذين لا يسبقونه بالقول في هذه الآية هم الرسل، كما لا ننكر أن الملائكة أيضاً لا يسبقونه بالقول.

ودليلنا على صحة ما ذهبنا إليه هو: مسرى الآيات، كذلك فإن السورة التي وردت فيها هذه الآية الكريمة هي سورة الأنبياء، والآيات تدور حول أعمالهم. والآن لننظر إلى الآيات التي تسبق تلك الآية ثم الآيات التي تليها. قال تعالى:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ، وَقَالُوا اتَّخَذَ = =الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾الآيات (٢٥-٢٨) من سورة الأنبياء..من خلال قراءة هذه الآيات الكريمة لم يرد ذكر للملائكة بل السورة كلها تدور حول الأنبياء وإذا كان المفسرون قد ضربوا لذلك إبليس مثلاً لتدعيم حجتهم فإن ذلك المثال غير صحيح أيضاً من ناحيتين: الناحية الأولى إن إبليس لم يدّع الألوهية بل اعترف بالربوبية بقوله:﴿**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ...**﴾ الآية (٣٩) من سورة الحجر كما أنه اعترف بالعزة الإلَهية عندما قال:﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾الآية (٨٢) من سورة ص.

أما الذي أنكره إبليس هو (العدل الإلهي) عندما زعم بأن الله فضَّل آدم عليه وهو خير منه كما أنه نسب الغواية إلى الله وتلك صفة كل كافر يتخذ الشيطان ولياً. الناحية الثانية: إن إبليس ليس من الملائكة، لأن الملائكة لا يتوالدون حتى تكون لهم ذرية أما الذين لهم ذرية فهم الإنس والجن وإبليس كما ذكر تعالى هو من الجن، قال تعالى في سورة الكهف:﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ...** ﴾كذلك فإن الله خلق الجن وإبليس أبوهم من النار بينما الملائكة من نور.

لا يعلمون أي الكلام أحق بالقول من غيره، لأنهم لا يعرفون ما في نفوس المجتمعين إليهم عموماً وإحاطةً. ونتيجة للوحي تجد لكلامهم وقعاً في النفوس، ويظنون وكأنَّ الرسول يعلم ما في أنفسهم، لأنهم يرونه يتحدث بما يهمهم وما يعنيهم فرداً فرداً كل في مجاله وأفقه.

أما المؤمنون، فإنه بحديثه يذكرهم بما شاهدوا من الفضل الإلّهي، أو بما شاهدوا من ملكوت السماوات والأرض، فيزدادون إيماناً، ويزدادون خشوعاً. وأما الكافرون والمنافقون، فإنهم يرون كل كلام الرسول إنذاراً، بينما يراه المؤمنون بشيراً. فحينما يقرأ المؤمن القرآن يستبشر به، بينما يجده الكافر عائقاً أمام رغباته وأعماله.

وإذا مر على المؤمن شيء من قصص الأنبياء، يجد كمالهم ويجدهم دائماً وأبداً الطليعة لكل مكرمة. بينما المنافق أو الكافر يؤول أقوالهم وأفعالهم نقصاً فإذا قال تعالى مثلاً: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى...**﴾[1]. فإنه يفسر هذا الهوى هوى جنسياً، بينما يراه المؤمن عشقاً إلّهياً، وهياماً بحضرة الله وجماله وجلاله، وذلك هو الحق[2].

وإذا أراد الله أن يقضي على عادة من عادات الجاهلية السيئة، كعادة التبني مثلاً واختار الرسول ﷺ لتلك المهمة، وأمره بأن يتزوج من زينب زوجة متبنيه زيد، وإذا تحرج الرسول الكريم الطاهر من اختراق تلك العادة المتأصلة، وخشي من انطلاق ألسنة الناس بسبب اختراقه لتلك العادة، وأراد ربك أن يبدي ما كان يخفيه الرسول ﷺ من هذا الحرج، راح الذين في قلوبهم مرض يتهمون الرسول

(١) _ سورة صٓ الآية (٢٦)

(٢) _ انظر كتاب عصمة الأنبياء للعلاَّمة محمَّد أمين شيخو قدَّس الله سره.

الطاهر بحبه لزينب، ويختلقون لتلك الحادثة قصصاً شيطانية، ما أنزل الله بها من سلطان[1].

وقل مثل ذلك في السادة الأنبياء يوسف، وسليمان، وأيوب عليهم السلام.

أما الناحية الأخرى فإنها لا تقل سوءاً عن هذه الناحية.

وتلك الناحية هي اعتبار أعمالهم السيئة ونسبتها قدر مقدر من الله، ونفي المشيئة والاختيار عن أنفسهم، ونسبتها إلى الله. وفي هذا القول ما فيه من الإغراء على ارتكاب السيئات.

أما إذا خاضوا في ذات الله، فإنهم يصورونه إلّهاً محدوداً بعرشه، بعيداً عنا بعداً مسرفاً، ويوم القيامة يكون جالساً على عرشه، والملائكة يحملونه هو وعرشه، أما يده، وأما عينيه، وأما وجهه فللمعرضين تصورات غريبة وبعيدة كل البعد عما يعني فيها.

وأما أسماؤه الحسنى، فإنهم يؤولونها تأويلاً مخالفاً لما اتصف به سبحانه من صفات الكمال المطلق، في كل اسم من أسمائه. لذلك فحينما يقرأ الذين في قلوبهم مرض القرآنَ، لا يجدون فيه إلا قصصاً وأمثالاً، لا رابط يربطها ولا انسجام بينها. ذلك لأن نفس المعرض عن الله، لم تكتسب من الله شيئاً، فلا علم ولا طهارة، ولا كمالاً ولا حقائق، سوى ما اكتسبه في عالم الأزل، ومن هذا العلم الضئيل الذي طمس معظمه باجتراحه السيئات، يراوده حينما يقرأ القرآن الشك وربما التكذيب.

قال تعالى: ﴿**فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ*، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ**﴾[2].

إن سبب عدم استعظامهم لكتاب الله، وتكذيبهم لمعانيه السامية الرفيعة هو ما وعته نفوسهم من الباطل، وهذا التكذيب أو الشك هو ما حصل لعلماء بني إسرائيل

(١) _ انظر كتاب حقيقة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم تظهر في القرن العشرين للعلاَّمة محمَّد أمين شيخو قدَّس الله سره (بحث قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب رضي الله عنها).

(٢) _ سورة الإنشقاق الآيات (٢٠-٢٣)

من قبل، لأن نفوسهم، نتيجة كفرهم، قد تغلفت بالباطل، فأصبحت قلوبهم كالحجارة بل أشد قسوة، وأصبحت التوراة عليهم عمى، ولما لم يروا بالتوراة شيئاً، هجروها، وراحوا يخطون للناس ديناً من عند أنفسهم، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله. تماماً كما هجر بعض المسلمين القرآن، وولوا وجوههم شطر الخرافات، التي ما أنزل الله بها من سلطان.

إن الكثير يظنون أنهم إذا حفظوا شيئاً من القرآن، وكثيراً من الحديث والفقه، أصبحوا مؤمنين، وهذا جميل ولكن لا يكفي لنطلق على أحدهم صفة عالم أو مؤمن، فالعالم الحقيقي هو من يرى ويذوق ما يحفظ، فإذا ذكرت الرحمة الإلٓهية فلا بد وإنه ذاق شيئاً منها، وإذا ذكر العدل فلا بد أن يكون قد لمس شيئاً منه، وبمعنى آخر أن يؤمن بحقيقة ومعنى ما يقوله من الكلام، ويشهد حقائقه، لا أن يؤمن بالكلام نفسه، لأن الكلمة بحد ذاتها، رمز لمعنى، وليست هي المعنى، فإذا شاهدنا أحد المحيطات على الخارطة، فهذا لا يعني أنه هو ذلك المحيط. فإذا لم تشاهد البحر يظل تصورك له ناقصاً إن لم نقل يظل بحدود الخريطة التي رأيتها أو رسمتها. وهكذا فإذا لم تلمس القدرة الإلٓهية، فإن حفظك لكلمة القدير لا وزن لها، وهذه الكلمة سرعان ما تفلت منك إذا رأيت سيفاً شهر في وجهك. فلو كنت لمست القدرة أو لمست بأنه القاهر فوق عباده، وعلمت بأنه سبحانه على صراط مستقيم، لما أرهبك هذا السيف الذي أشهر في وجهك أبداً إن كنت مستقيماً.

إن الإيمان القائم على الشرك [(١)] هو السبب في التكذيب والشك، وهذا الإيمان الإشراكي، يرجع إلى عدم التقيد بالسنن الإلٓهية التي رسمها رب العالمين، طريقاً للوصول إليه، والإيمان به إيماناً سليماً من كل شائبة. وخير الطرق هو الطريق الذي سلكته الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، وبذلك أمرنا بقوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ**

---

(١) _ قال تعالى:﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾الآية (١٠٦) من سورة يوسف.

الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(١). وقال جل شأنه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾(٢).

فلو رجعنا إلى مسلك الرسول قبل البعثة وأثناءها، ثم تدبرنا معاني القصص التي أوردها تعالى عن رسله الكرام. ومن ثم نظرنا إلى الآيات المكية كيف أنها تحث الإنسان على التفكير، والتعمق في آيات الله الكونية صنع الإلّه العظيم، ونسلك بالإيمان مسلك أبينا إبراهيم ﷺ. لجنينا ثماراً يانعة وإيماناً لا يتزعزع، ولكننا وبدل أن ندخل البيوت من أبوابها راح البعض من علمائنا يحشون أذهان الطلاب بمعلومات سابقة لأوانها، إن لم نقل خالية من كل فائدة، بل ربما كان ضررها أكثر من نفعها. وتلك العلوم التي حشوا بها أذهان الطلاب لا تستطيع أن تقف أمام النظريات الملحدة، بالرغم من سخف الأخيرة وتفاهتها.

ولو كان ما حشته مقلدة العلماء في أذهان طلابها من عند الله، لما وقفت في طريقهم أعتى نظرية فلسفية جاء بها علماء هذا العصر المتوحش، بل لجعلوها أضحوكة أمام المعتقدين بصحتها، ذلك لأن الله أنزل على رسوله قولاً ثقيلاً، وهذا القول يزهق الباطل أنى وجده. إذ أن معاني القرآن محجوبة عن الناس بسبب ما تحمله أنفسهم من السيئات، وبسبب زعمهم القائل أن الأوائل قد فسروا القرآن تفسيراً لا يجوز من بعده الاجتهاد، لأنهم هم وحدهم الذين فهموا الدين، وأي فهم لمن جاء بعدهم لا يمكن أن يتعالى على فهمهم أو حتى يصل إلى مستواه ووضعوا حولها هالات مقدسة. وبذلك الادعاء الماكر، عطلوا على الناس فكرة الاجتهاد، وحرموهم من نعمة التفكير، إلا ضمن المجال الذي رسمته دسّاً لهم الأجداد.

---

(١) _ سورة الأنعام الآية (٩٠)

(٢) _ سورة الأحزاب الآية (٢١)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[١]. وبهذا راحوا يصدُّون الناس عن سبيل الله تعالى، وما من أحد يصدُّ زورهم ويقيم عليهم الحجج فيدحضهم ويردهم خائبين.

والعجب العُجاب أن مقلّدة العلماء بالرغم مما يصل إليه المسلمون، من ترك دينهم بأسباب هذه الصفاقات المدسوسة، راحوا يضعون حول الكتب القديمة هالات مقدَّسة، وإثباتات واهية، جعلتها عندهم بديل القرآن الكريم، بل كانت قرآنهم العملي. فجمَّدوا التفكير، وأغلقوا باب الاجتهاد، وألقى فريق منهم كتاب الله وراء ظهورهم، فنسبوا قصص الرذيلة والسفالة للرسل والأنبياء (وحاشاهم عليهم الصلاة والسلام).

كيف نؤمن ببعض ما أوردوه في تفاسيرهم وخاصة وصفهم الرسل الكرام الذين هم خيرة الله من خلقه بصفات يندى لها الجبين. وكيف نصدق تفسيرهم للآية:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾[٢]: من قول يتندى له وجه الفضيلة، ونأبى تكرار قولهم المدسوس السافل الخبيث.

ثم كيف نصدق بأن الله بعيد عنّا هذا البعد الذي وصفوه لنا، والله يقول بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد، أم كيف نصدق بأن الله بعرشه محاط، وهو تعالى يقول أنه بكل شيء محيط، وكيف نؤمن بأن (طه) اسم رجل اسمه بالنبطية (عك) " انظر تفسير الطبري" أم كيف نؤمن بتفسير سورة الناس والفلق، وقضية سحر الرسول من قِبل لبيد اليهودي، إذ متى كان للشيطان سلطان على عباده المخلَصين والشيطان ذاته ينفي عن نفسه ذلك بقوله لرب العالمين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ

(١) _ سورة البقرة الآية (١٧٠)

(٢) _ سورة يس الآية (٥٥)

الْمُخْلَصِينَ﴾[1]: بفتح اللام وهم الأنبياء والرسل فكيف بسيدنا محمد ﷺ سيد المخلَصين؟!

وما اتهموه به ﷺ أنه: **(كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ...)** [2]

فمن هي أم حرام حتى ينام عندها، هل هي زوجته؟!! أليس لرسول الله ﷺ زوجات ولكل منهن حجرتها الخاصة وينام عندهن؟ ما حاجته أن يذهب إلى امرأة أجنبية؟ إلا أن تكون فرية نكراء، ودسيسة خبيثة، بحق أشرف الخلق، وهل لرسول الله ﷺ من وقت (وهو المشغول دائماً بالدعوة) للذهاب والنوم عند أم حرام، ومهام العباد والبلاد كثيرة وكبيرة، وهي ملقاة على عاتقه الشريف ﷺ، وهو الذي لم يصافح امرأةً قط، وقولهم كانت أم حرام تفلي رأسه؟! ما الذي كانت تفليه برأسه؟!! هل هذا الظن يليق برسول الله ﷺ ؟! إن رسول الله ﷺ الهادي المهدي، مبرأ من تلك الأقوال، ومن كل الأقوال التي تخطِّئه، والتي تزيغ القلوب عنه ﷺ وتجعل الناس يظنون به الظنون، ويقطعون الناس من الصلاة عليه، والاستشفاع به إلى الله تعالى.

وفي بحوثهم عن الغسل والجنابة، يتكلمون بأحاديث مرعبة بحق زوجات الرسول الطاهرات، لا سيما أمَّنا عائشة رضي الله عنها بأنها وحاشاها قالت:

(كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد، كلانا جنب، وكان يأمرني فأتزر، فيباشرني وأنا حائض...) [3] أليس هذا بقول شيطان مَريد؟!

وقد استغل الحاقدون على الدين الإسلامي، وعلى رسول الله ﷺ، هذه الترّهات وغيرها واستخدموها مطاعن بحق المبرّأ ﷺ.

---

(١) _ سورة الحجر الآيات (٣٩-٤٠)

(٢) _ صحيح البخاري رقم/٢٦٣٦/.

(٣) _ صحيح البخاري رقم/٢٩٥/٢٩٦/.

والأدهى من ذلك أنهم يضعون لتلك الروايات تبريرات وغايات، لا تمت لصفات الرسول ﷺ ولأهل بيته الطاهرات بصلة، لتنطلي على عامة الناس.

لن نؤمن بما قالته الأجداد إلا بالحق، بالحدود التي لا تنسب إلى الله الظلم ولا تنافي الأسماء الإلَهية الحسنى، وبالحدود التي تظهر كمال رسله الكرام وكمال كلام الله تعالى وإحكام بعضه ببعض.

تلك نبذة عن معتقدات هذا العصر، أما أعمالهم فإنها لا تقل سوءاً عن معتقداتهم، فالمصانع التي أقامتها الأمم القديمة قد لا تكون بذات بال أمام مفاعل الذرة، ومصانع أسلحة الدمار الشامل، وأما التلاعب بالكيل والميزان فيعتبر حيل أطفال أمام التلاعب بقوت الشعوب وامتصاص ثرواتهم، وأما بطشهم فلا يعتد به أمام الإبادة الجماعية وأمام الآلات الجهنمية.

واللباس، وما أدراك ما اللباس، إنه يشف حتى يصف، ثم أصبح العري أو شبه العري هو الدارج في هذه الأيام.

وتشبُّه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، يكاد يكون مألوفاً اليوم. والزنى تبعاً لذلك قد تفشى تماماً في كل المجتمعات، والشذوذ الجنسي قد أقرته بعض الحكومات بشكل رسمي.

وخلاصة القول لقد تجاوزت معتقدات وأعمال البشرية في هذا العصر حدَّ المألوف، وبلغ الفساد والفسق عند أكثر الشعوب ذروته، وما تبقى منها فإنها ماضية على سنن من سبقوهم في الفساد بخطى سريعة.

إن الله سبحانه وتعالى قد ارتضى للبشرية حدوداً، ورسم لها سنناً، وأنزل إليها شرائع، فإذا تجاوزت البشرية تلك السنن، وتخطت تلك الحدود، وأهملت الشرائع، فإنها تفسد النفوس وبفسادها تفسد الحياة، وبما أن الفاسد المفسد والمتعمِّد بطغيانه، لا خير فيه، فالنار عندئذ مثواه، وبئس المثوى والمصير.

ولا أظن بعد هذا الذي بيناه، أن تظنَّ أن البشرية بمفازة من الهلاك، بل الأصح أنها أصبحت على قمة الهاوية، أو على شفا جرف هار، وهم الآن في سكرتهم يعمهون، وفي غمرتهم لاهون. ولقد أنذرنا تعالى كثيراً في كتابه الكريم، ولكن الآيات والنذر لا تغني لقوم لا يؤمنون.﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ، وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ، أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ، أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**﴾[1].

أما وقد بين لنا تعالى نوع البلاء الذي أصاب كل أمة من تلك الأمم السابقة، فقوم سيدنا نوح وقوم فرعون قد أغرقهم، وقوم ثمود أهلكت بالطاغية، وعاد أهلكت بريح صرصر عاتية. أما أمم هذا العصر، فسوف تهلك بنار حامية، لا تبقي ولا تذر. وأما مصادر هذه النار، فهذا ما سنبينه بعد قليل.

إن المتعمق بمشاكل العصر يرجع بخيبة أمل، ويشعر بأن قوى الشر قد رسخت جذورها، إذ لا يمكن إصلاح البشرية، إلا باجتثاث مسببات الشر والفساد، ولا يوجد شر ولا يوجد ضلال أكبر من هذه المفاسد الدنيوية المأساوية التي تغلغلت في القلوب فأتعستها، وكانوا قد ظنوها فيها الحياة والماء الغدق، فإذا بها سبل البلاء والوباء، والشقاء والحروب، وغضب الطبيعة، وجنون الأنعام وهلاكها، إذن لن تسعد البشرية إلا بإزالتها، ثم إقامة شريعة الله في أرضه، وتلك الخيبة التي يتحسسها المرء تتجلى في عوامل عدة منها:

سباق التسلح والصراع المحموم بين الدول الكبرى على مناطق النفوذ، والتقدم العلمي المخيف، ثم عدم كفاية الأنظمة الملائمة لهذه الثورة التقنية الهائلة، وقلة مرونتها.

---

(١) _ سورة القمر الآيات (٤٠-٤٦)

هذه الأسباب وغيرها، تدعو الإنسان بألا يتفاءل بمستقبل يسوده السلام. كذلك فإن الجهد المبذول لإنقاذ السلام لا يزال ضعيفاً، والنتائج التي تمخضت عنها مؤتمرات السلام من نزع السلاح، أو الحد من انتشاره، أو تقليص كميته، لا يذكر، ولم تتمكن الدول الكبرى بعد من اتخاذ قرار يحول دون وقوع الكارثة.

إن مؤتمرات نزع السلاح، والجهود المبذولة لإنقاذ السلام، تعترضها عقبات كثيرة، نذكر منها:

أولاً: فقدان الثقة بين الأطراف المتصارعة المالكة للأسلحة النووية والهيدروجينية، والنظر بعين الشك والحذر كل إلى خصمه.

ثانياً: عدم التفريط بالمصلحة الوطنية والسيادة القومية، لصالح الجنس البشري، فالسلوك الدولي، لم يتعدَّ بعد المستوى القومي، ولا يزال محصوراً في فلك المصلحة الوطنية، ولذا فأي تهديد للسيادة القومية، أو إضرار في النواحي الاقتصادية، أو السياسية أو الأمنية، يجعلها تلوّح لمن يهدد مصالحها باستعمال تلك الأسلحة الرهيبة التي لن يقتصر ضررها على الخصم وحسب، بل يتعداه ليعم البشرية بأسرها تقريباً.

ثالثاً: وجود نظامين متصارعين في العالم وهما، النظام الغربي والشرقي، وكل نظام تقف وراءه كتل بشرية هائلة تمتلك أفتك الأسلحة، وتسعى من خلال نظامها أن تبسط يدها على البشرية جمعاء. وبما أن القائمين على كل نظام يمقت كل منهما النظام الآخر، فإن الرد سوف يكون حاسماً إذا شعر أحدهما بأن النظام الآخر بدأت ترجح كفته.

رابعاً: التسابق الجنوني نحو التسلح كماً وكيفاً، وحجتهم في ذلك (إذا أردت السلام فتهيأ للحرب) ومعنى ذلك أنه إذا كان أحد الطرفين أكثر قوة، فإن الآخر سيتلكأ عن إثارة الكارثة، وحسب هذه النظرية يظل التسابق قائماً، حتى لا يتجرأ أحد الطرفين المتنازعين على ذبح خصمه، وهذه النظرية إن دلت على شيء،

فإنما تدل على الذعر الدائم، والتوتر المستمر، بين أفراد المجتمع البشري. ولكن أما يكون للخوف والتوتر من نهاية؟ فإذا رأينا استحالة نزع السلاح وتدميره، أما تكون الحرب هي السبيل الوحيد للوصول إلى النهاية؟

مما أسلفنا يتبين لنا أن عوامل الشر الدافعة نحو الحرب، أكثر وأقوى بكثير، من عوامل الخير الدافعة نحو السلام. كذلك فإن عوامل الفساد لا تزال مستشرية، ولا تزال تزداد عمقاً وانتشاراً.

من كل ذلك نستنتج أنَّ البلاء بات وشيكاً، وفي أية لحظة، والكارثة آتية لا ريب فيها، وهي ليست من الظالمين ببعيد.

إن البلاء ليس قدراً محتوماً، لو رجعنا عمّا نحن فيه، لارتفع البلاء، ولأوجد الله لنا وسيلة، تخلصنا من هذا الخطر الجاثم على صدرنا، أمماً كنّا أم أفراداً. قال تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾[1]. فبابُ التوبة والرجوع إلى الله مفتوح ولا يغلق أبداً إلا عند الموت أو وقوع الهلاك[2].

لقد أطلق رب العالمين على هذه الكارثة اسم **(الساعة)** والساعة أينما ذكرت في القرآن فإنها عموماً تحمل معاني عدة:

الساعة التي يموت فيها الإنسان، أو الساعة التي تقوم بها القيامة، أو الساعة التي نحن بصددها.

وإذا تركنا ساعة الموت، وساعة يوم القيامة حالياً واكتفينا بالساعة التي يأتي بها السيد المسيح عليه السلام، لوجدنا أن تسمية الحرب العالمية أو الحرب النووية القادمة، هي

---

(١) _ سورة يونس الآية (٩٨)

(٢) _ ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ الآية (١٨) من سورة النساء.

تسمية للحرب المطهّرة: ﴿**بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**﴾[1]: وهي الساعة المرافقة لقدوم السيد المسيح عليه السلام المنقذ للبشرية رسول السلام والطمأنينة والأمان بعد القلق المرهق والشقاء وطوبى لمولود زمانه. إذ وعده تعالى بقوله: ﴿**إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[2].

أي عند ظهوره الآن، وقريباً جداً، فالأمارات السابقة لظهوره عليه السلام تمت بإذن الله وانتهت، وجاء الفرج لكل المؤمنين، وقد حق قول رسول الله ﷺ:

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة) [3].

وقوله ﷺ: **(لاَ تَقُومُ السّاعَةُ إلاّ عَلَىَ شِرَارِ الْخَلْقِ)** [4]: وهي ساعة هلاك العالم الفاسد، وقصم ظهر الكفر وأهله. إذ أن الحرب النووية القادمة تمتاز كغيرها من الحروب بالسرعة والمفاجأة، ولكن هذه الحرب تختلف من حيث الغاية عن الحروب التي سبقتها، إذ في الحروب السابقة كانت الغاية من السرعة والمفاجأة هي إحراز النصر، أما في هذه الحرب، أي الحرب النووية والهيدروجينية، فغايتها اتقاء خطر الفناء، والقضاء على الخصم قضاء تاماً، قبل إعطاء الفرصة له ليتمكن من الرد على خصمه. ولذا فإن البادئ في هذه الحرب، سوف يلقي أكبر كمية ممكنة من القنابل الذرية والهيدروجينية وغيرها من أنواع الأسلحة ذات التدمير الشامل، في الدقائق الأولى، للقضاء على العدو قضاءً مبرماً، ومحوه من

(١) _ سورة القمر الآية (٤٦)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (٥٥)

(٣) _ أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) _ صحيح مسلم.

الوجود، غير أن وسائل الإنذار الحديثة، والتيقظ التام سوف تفوت على البادئ هذه المباغتة، وسيتمكن الخصم من الرد عليه، وإفنائه أيضاً. لذلك فإن الحرب القادمة لا نصر فيها، بل هلاك شبه مبرم. ومن هنا يتبين أن الحرب القادمة سوف تكون سريعة، لا تتجاوز الساعة من الزمن، وسوف تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.

قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ**﴾: بعد بيانك هذا: ﴿**عَنِ السَّاعَةِ**﴾: يسألونك عن الساعة متى وقوعها، بدلاً من أن يفكِّروا في قولك ويتبّعوه، حيث إنهم لم يعبؤوا بقوله سألوه هذا السؤال: ﴿**أَيَّانَ مُرْسَاهَا**﴾: متى وقوعها؟﴿**قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ**﴾: لا أحد يعلم وقتها، أنا مُبلّغ لا أعلم الوقت، ولكن لها إشارات وعلامات.﴿**ثَقُلَتْ**﴾: عظُمت: هولها عظيم، من فوقهم ومن تحت أرجلهم، نيران وزلازل، لا تبقي ولا تذر. أتدري ما فيها من هول؟ فقط تسأل عنها! ماذا أعددت لها؟

لو فكَّر لعرف عظمة الله ولما سأل هذا السؤال، بل لخاف منها: ﴿**فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾: هول، شدائد من السماء والأرض، من الأرض ينبعث بلاء، ومن السماء بلاء: ﴿**لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً**﴾: على غفلة، على حين غِرَّة. لكن البلاء ما هو فقط بلاء الدنيا: بلاء في الدنيا وفي الآخرة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا**﴾: كأنك لا تعرف شيئاً عنها، ولا تعلمها. كأنك لا تدري عنها شيئاً: تريد أن تُخلِّصهم من العذاب، وهم يريدون أن يمتحنوك امتحاناً. وهم كفرة اليهود، إذ أرادوا امتحان الرسول لأنها مذكورة عندهم: ﴿**قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ**﴾: وقت وقوعها لا يعلمه سواه: ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[١]: هذا الهول الذي فيها.

لا يعلمون شيئاً عنها ولا يفكِّر فيها أحد. والله عليم أن وقتها قريب جداً وجميع الإشارات وقعت. فما أشقى من لا يفكِّر ويستعد لها! كما أنه ورد في الأثر عنه ﷺ

---

(١) _ سورة الأعراف الآية (١٨٧)

يحدثنا عن القنابل النووية والهيدروجينية: **(لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها)** [1].

ولما كانت هذه الكارثة تهم البشرية عامة، لذا كان لزاماً علينا أن نعطي صورة واضحة عنها، وأما ما سيعقبها من أحداث يتوقف عليها مصير البشرية، فهذا ما سنذكره بعد قليل بإذن الله. إن ما يحول بين الناس وبين الله، هو حب الدنيا الدنية بهذه الحضارة المادية العمياء المدمرة، التي طغت على عقول الناس وقلوبهم، لذا فإن الرجوع إلى الله مرهون بإزالتها، وبما أن البشرية لا تتنازل عن هذه الحضارة الدنيوية طوعاً، فإن الله هو الذي يزيلها، وعلى أيدي صانعيها: ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[2]: عملوا تدبيرات وحيل وترتيبات لرد الحق فأتى الله بنيانهم من أصله فخرَّ عليهم ما صنعوه، ونزلت قنابلهم عليهم، هم دبّروا لصدِّ الناس عن الحق، والله أرسل لهم بلاء فالسكين التي حدَّها ضرب نفسه بها، أذاه عاد عليه: ﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ...**﴾[3].

إن البشرية لم ولن تمر عليها كارثة بلغت من الشدة مثل ما ستبلغه هذه الكارثة. ولن ينجو منها إلا كل مؤمن، أو من عنده القابلية للإيمان. أما الملاجئ الأرضية فإنها لن تغني من الله شيئاً، إن شاء أن يهلكهم، ومنطق هذه الحرب يؤكد ذلك، فالذين لم يُقض عليهم من الصدمة الأولى، فإن الإشعاعات الذرية والتلوث، وفساد الجثث، والزلازل، ستحول بينهم وبين الحياة، بعد خروجهم من الملاجئ، ولا ندري أيضاً ما سيخرج لهم من باطن الأرض. فالإنسان لا يستطيع أن يبقى في الملجأ زمناً طويلاً، ولو افترضنا أن كل شيء قد هيئ فيه، فإن الحياة

---

(١) _ كنز العمال ج١٤ رقم/٣٨٥٧١.

(٢) _ سورة النحل الآية (٢٦)

(٣) _ سورة النحل الآية (٢٧)

خارجه غدت مستحيلة، فكل شيء خارج الملجأ غدا هامداً لا حراك فيه، هدوء مرعب، إلا من أنين الرياح، لا أهل ولا بيت ولا ولد إذ أن كل شيء قد تحول إلى رماد.

ترى ماذا تتصور أن تكون حال هذا الإنسان الذي خرج من ملجئه بعد حين، ناهيك عن الغبار الذري المرعب وآثاره السامة، إن حالته النفسية سوف تبلغ حد الجنون أو الانهيار. وسيدرك المتفائلون بإعادة الحضارة بعد الحرب من جديد، أنها أماني، وأن ذلك لرجع بعيد.

إن الدمار سوف يكون متناسباً مع شدة الفسق، وعلى أساس ذلك فإن مناطق المعسكرين الشرقي والغربي، ستصبح قاعاً صفصفاً، وستكون جثث شعوبها حطباً لتلك النار، ومن ثم رماداً تذروه الرياح. وسوف لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم بعد ذلك ركزاً.

أما منطقة الشرق الأوسط خاصة التي هي مهد الأنبياء، فسوف يكون حظها من الدمار أقل، وهذا لا يعني أن تبقى فيها بعض مظاهر الحضارة فهذا محال، فهي كغيرها من المناطق، ستعاني من الزلازل الأرضية والمجاعة، الشيء الكثير، وسوف تكون مسرحاً للحروب التقليدية، ولن ينجو منها إلا القليل، بعد أن تكون الحرب قد أخرجت لهم كل أمراضهم النفسية، وهيأتهم للطهارة نتيجة التجائهم إلى الله، من شدة ما سيعانون، من الجوع والخوف والألم.

لذلك فالملاجئ التي يجب أن نعدها فقط، هي الالتجاء إلى الله، والالتجاء من الآن، ولن يفيد الالتجاء إذا أزفت الآزفة، إذ ليس لها من دون الله كاشفة، فالتوبة، والاستعداد، والتحرُّس يجب أن يكون قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الدعاء.

انظروا إلى الأمم السابقة ماذا حلَّ بهم: ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً**﴾: مثلكم: ﴿**وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ**﴾(١): فكِّر بمن سبق أين هم الآن؟ ماذا كانت نتائج أحوالهم؟ وأنتم إن لم ترجعوا للحق ستُهلكون: هذا تهديد عام لكل منحرف. فالإنسان ولو عرف بفكره فلن يستفيد شيئاً، لا بدَّ من العقل: بالعقل الإنسان يعرف الحقائق: ﴿**فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا**﴾: جاء البلاء، جاءهم الهلاك: ﴿**إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ**﴾(٢): من البلد، تراكضوا ليخلصوا من البلاء. لمَّا حصلت الزلازل: أين المفر؟ ستُسأل غداً عند الموت عن الصوم، الصلاة، الحج، كل شيء له صورة وحقيقة، والحقيقة بلا صورة لا تفيد، والصورة بلا حقيقة لا فائدة منها: لا بدَّ من الجمع، فالذي يأتي بالصور لا يستفيد شيئاً: ﴿**لَا تَرْكُضُوا**﴾: أنتم غداً مثلهم. قلنا لهم قبل ذلك على لسان رسلهم لا تركضوا غداً عند البلاء، هكذا قالت الرسل: ﴿**وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ**﴾: لا تفسدوا الخلق، عملكم هل هو منطقي وطيّب؟﴿**وَمَسَاكِنِكُمْ**﴾: التي تسكنونها، ما سكنت نفوسكم فيه من الدناءة والخبث، وانظروا إلى هذه المدن من حكمها؟ من سكن بها؟ أين هم الذين سبقوا وعاشوا قبلك؟

هل ستبقى أنت وتخلد؟﴿**لَعَلَّكُمْ**﴾: تعرفون إن فكَّرتم فتدركون أنكم بعد هذه الحياة: ﴿**تُسْأَلُونَ**﴾: تعرف لماذا خلقت وتتدارك الأمر فتعرف أنك ستُسأل عن هذه الأشياء كلها: ستُسأل عن كل ما فعلت. أما إن لم تفكِّر، فلن يخطر السؤال لك على بال: ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا**﴾: عند نزول البلاء عليهم: ﴿**إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾: ولكن ما الفائدة من هذا القول عند البلاء والهلاك؟﴿**فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ**﴾: ومعارضتهم للحق وتكذيبهم لرسلي: ﴿**حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ**﴾: إذا ظلَّ الإنسان متعلِّقاً بالدنيا "لا يفكِّر بالموت"، فإن لم يفكِّر بالموت، يظل مكذِّباً للحق: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا**

---

(١) _ سورة الأنبياء الآية (١١)

(٢) _ سورة الأنبياء الآية (١٢)

السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[1]: لعب اتخذناها! فكِّر يا إنسان بالسماء والأرض والجبال هل هي لعب؟! كلها لسعادتك. هل خلقنا الدنيا لعباً؟! ألا تفكِّر لماذا خلق الله الكون؟ خلقك لتكون إنساناً.

وهذه الواقعة، سوف لا ينجو منها إلا كل مؤمن، أو من هو قابل للإيمان، إذ في هذه الساعة سوف يهلك كل مجرم، أما الذين لديهم قابلية للإيمان، فإن الحق سيعرض عليه إما على لسان السيد المسيح عليه السلام، وإما على لسان أتباعه، فإن آمن واهتدى وصدق بالحسنى، فسوف يحيا حياة طيبة في الدنيا، وفي الآخرة يكون من الصالحين، وإلا سيهلك مع الهالكين. إن البلاء سوف لا يأخذ الصالح بجريرة الطالح، كما أنه ليس صحيحاً المثل القائل: **(الرحمة مخصصة والبلاء يعم)** وهو مثل مغلوط، فالقرآن الكريم كلُّه وبه الحجة البالغة، لا يؤيد هذا الزعم، بل يبين أن الرحمة مخصصة، والبلاء مخصص أيضاً. إن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا عن الأقوام السابقة التي أهلكت، أنه قد نجّا من بينهم المؤمنين، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾[2]. ﴿**فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**﴾[3]. وقل مثل ذلك عن قوم لوط، وأهل مدين وغيرها من الآيات.

تلك سنن وقوانين لا تتبدل ولا تتغير، وهذه القوانين تنطبق على الفرد كما تنطبق على الجماعة.. وقد وعد سبحانه بأنه سوف ينجي المؤمنين إذا أصاب قومهم البلاء، قال تعالى: ﴿.. **كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[4].

---

(١) _ سورة الأنبياء الآيات(١٢-١٦)

(٢) _ سورة هود الآية (٥٨)

(٣) _ سورة هود الآية (٦٦)

(٤) _ سورة يونس الآية (١٠٣)

أما الآية الكريمة: ﴿**وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[1]: فهي تعني أولئك الذين بإمكانهم محاربة الفتنة ثم تقاعسوا عنها، لذلك فإنه لا بد أن يصيبهم ما أصاب الذين كانوا سبباً في إيقاظها، لأنهم[2] بعدم نهيهم عنها دليل على رضاهم بها، أما إذا استشرت الفتنة واستفحلت، وخرجت عن نطاق مقاومة المؤمنين لها، فما على المؤمن إلا نفسه، ومن يستطيع هدايتهم، أو من له سلطة عليهم.

لقد بين لنا تعالى هول هذه الساعة، وبين لنا أن النجاة في عصرها، لا يكون إلا بالتقوى، أي الإيمان المبني على الشهود، إذ لا يمكن للإيمان التقليدي أن يثبت صاحبه أمام هذه الشدائد.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[3].

إن هذه الآية لا تشير كما يُظن، إلى يوم القيامة، لأن أحمال النفس من شهوات كالنساء والمال والجاه والبناء والسيارات واللباس وما شابه ذلك [4]تكون سقطت جملة وتفصيلاً عند الموت، فلا حمل ولا أطفال ترضع وأمهات تُرضع يوم القيامة، كما أنه لا يبقى للإنسان أية أمنية سيئة يحملها في ذلك اليوم، فإنه يتمنى أن يكون بينه وبينها أمداً بعيداً، أما أحمال النفس وكل ما يشغلها قبل قيام الساعة، تكون موجودة

---

(١) _ سورة الأنفال الآية (٢٥)

(٢) _ الفتنة: هي كل ما يوقظ الشهوة المحرمة في النفوس.

(٣) _ سورة الحج الآية (١٢)

(٤) _ ولفهم أحمال النفس نضرب المثال التالي: لو أن رجلاً اقتنى قصراً منيفاً غاية في الجمال على شاطئ البحر، وسكن مع أولاده العشرة، واقتنى عدة سيارات، وله عدة بواخر وزوارق للتجارة، وأصابه الغرق، هل يتذكر في هذه اللحظة قصره أو سيارته أو أولاده أو بواخره، أم أنه يذهل عن كل هذا لينجو بنفسه.

أما لو كانت نفسه مطمئنة فإنه يغيظه أدنى تلف لأدنى شيء يمتلكه. أما الآن هول الغرق والاختناق أسكره وأذهله عن كل هذا. أحمال النفس هنا: هي ما تحمله النفس من شهوات، كشهوة النساء والمال والجاه وما شابه ذلك.

فيها، ولا تضعها إلا عندما ترى شدة هولها، حتى أن كل مرضعة تذهل عما أرضعت، كم عند الوالدة من عطف على ولدها، ولكن ساعتها تذهل عنه، بل هذه الأحداث الهائلة تحدث في الدنيا عند وقوع الزلازل المرعبة، إذ لا يبقى للنفس من هم إلا اتقاء شدة البلاء، وينسى الإنسان كل شيء، إلا هذا الخطر المحدق به: ﴿.. **وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى...**﴾: الهول ينسيهم كل شيء: ﴿.. **وَمَا هُم بِسُكَارَى...**﴾: ما شربوا خمراً، لكن العذاب أسكرهم وشغلهم عن كل شيء: ﴿.. **وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾: إذا كان الله تعالى يصف هذا اليوم وعذابه بالشدة، فكيف هو يا ترى؟!

هذا وقد ورد ذكر للساعة في الإنجيل أيضاً، وسنذكره في حينه.

ولا غرابة، فالسيد المسيح عليه السلام عِلْمٌ للساعة، وهو المعني بالأمر، وهو المأمور بإعلاء كلمة الحق في الأرض من قيام الساعة وإلى يوم القيامة بإمداد من الله تعالى، ولكن فهمت النصارى كما فهم المسلمون بأن الساعة التي يأتي بها هي ساعة يوم القيامة.

أقول: ما فائدة مجيء الرسول عليه السلام عند يوم القيامة؟!

أما انتهت فترة الامتحان؟! أما ينتظر الناس ليؤتى كلٌّ منهم كتابه؟! إما بيمينه وإما بشماله، وما فائدة النصح وهل تنفع موعظة عندئذ؟! أما كشف الغطاء وأصبح البصر يومئذ حديد؟!

* * *

الفصل الثالث

في هذا الفصل:

- **أشراط الساعة.**
- **خروج بيت المقدس من أيدي المسلمين.**
- **طلوع الشمس من مغربها وانشقاق القمر.**
- **النفوذ من أقطار السماوات والأرض.**
- **خروج يأجوج ومأجوج.**
- **خروج دابة الأرض.**
- **زخرفة الأرض.**
- **ظهور الدخان.**
- **أشراط الساعة الصغرى.**

* * *

أشراط الساعة

﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[١]

إن الله سبحانه لا يأخذ الناس على حين غرة، ودون سابق إنذار، وهو جل شأنه لرحمته بعباده يرسل[٢] إليهم رسولاً يحذرهم مما هم فيه من الكفر والضلال، وينذرهم إذا لم يتوبوا ناراً أعدت للكافرين.

فإذا رجعوا عما هم فيه، ونهوا النفس عن الهوى، فإن الله من بعدها لغفور رحيم، يبدل سيئاتهم حسنات، ويرفع عنهم عذاب الخزي: **﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾**[٣].

وأما إذا عتوا عن أمر ربهم، وأصروا على كفرهم، فإن الله يأخذهم بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، لعلهم يرجعون، أو يبلوهم بالبأساء والضراء، ويلبسهم شيعاً ليذيق بعضهم بأس بعض، أو يضرب عليهم الذلة والمسكنة، أو يذيقهم شيئاً من الجوع والخوف وعدم الأمن، إلى غير ذلك من ألوان العذاب، لعلهم بتلك المصائب أو تلك العلاجات، يصحون من سكرتهم، ويتنبهون من غفلتهم، فإذا لم يذعنوا لأمر الله، ولم يعتبروا من تلك المصائب الناشبة الآن في كل بقاع المعمورة، من أعاصير وعواصف استوائية، وزلازل وبراكين، وجفاف وفيضانات في بقاع أُخرى، وطوفانات كسونامي وغيرها الكثير في أرجاء الأرض، وحروب مدمرة، وأمراض مستعصية للإنسان والأنعام، كجنون البقر، وانفلونزا الطيور، وطاعون

(١) _ سورة الأنعام الآية (١٣١)

(٢) _ قال تعالى:﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾الآية (٥٩) من سورة القصص.

(٣) _ سورة يونس الآية (٩٨)

الأغنام، ونفوق النوق والجمال، وغيرها، فإن الله بعد ذلك يأخذهم بعذاب يوم بئيس: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾[1].

لذلك فقد حذَّرنا تعالى على لسان رسوله الكريم، بالعلامات أو الإشارات التي تسبق تلك الساعة، لعلنا نتدارك أمرنا، ونثوب إلى رشدنا، فنرجع إلى ديننا، ونؤمن بالله ورسوله، وعندئذ سوف ينصرنا نصراً عزيزاً، ويبدل خوفنا أمناً، وعسرنا يسراً، وضعفنا قوة، فنخدم إخواننا بني البشر، لسلوك الطريق المستقيم، وكي ننعم جميعاً بحياة الرغد والهناء والمحبة والوئام، تحت لواء الرسول الرحيم، فنغدو بهذه الحياة في جنّة حقيقية ننعم بها جميعاً، نحن الأخوة أولاد أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام، فيعم ذلك بالعالم، لا لننهب ثرواتهم، أو نذلهم بغير الحق، كما تفعل بعض الدول اليوم، بل لنحررهم [2] من عبودية المادة ومن عبودية شهواتهم، وبمعنى أشمل لنؤدي لهم رسالة السماء، كي يعرفوا طعم الحرية، وطعم العدل، وطعم السعادة. وننال بذلك الأجر والثواب من الله تعالى.

وإلاَّ نفعل ذلك ونبقى مصرِّين على ما نحن عليه، فحاشا لله أن ينصرنا، وحاشا له أن يعزنا، لأن الله جلَّت قدرته لو سودنا على العالم لأعطينا الناس فكرة مشوهة عن الإسلام.

هذا وإن كنت قد فصلت في هذا الموضوع، فإني أضيف هنا لُمحاً عن كيفية الفساد، ذلك لأن حب الدنيا الدنيّة، وما فيها من مفاتن، هي الأساس في إعراض الناس عن الله جل شأنه.

فإذا التفتت النفس إلى الدنيا، واستغنت بها عن الآخرة، يصبح همها شهوتها المنحطّة، وما أكثرها، وتشغل ساحتها، وتصرفها عما سواها.

(١) _ سورة هود الآية (١٠٢)

(٢) _ قال تعالى:﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾ الآية (٧٥) من سورة النساء

وبغية تحقيق تلك الرغبات المتزايدة، يسعى الإنسان بكل ما أوتي من قوة، ويبذل كل ما وسعه من جهد، لسد متطلبات الحياة الكثيرة والمعقدة التي فرضها عليه مجتمعُهُ، وهو في غنى عنها.

إن السعادة نسبية، فالنفس ترضى بالقليل إن وجدت المجتمع الإنساني كله أو حتى البيئة التي يقطنها، تعيش في مستوى معين بسيط، ولكن الإنسان إذا سكن في بيئة متفاوتة الطبقات أو المستويات المعاشية، فإنه من غير شك تأخذه الغيرة، والألم، والحقد، وبمعنى آخر، لقد أفسد عليه مجتمعه حياته، والله لا يحب الفساد، وعندها يشمر عن ساعد الجد، ويسعى بشتى الطرق، ويتذرع بمختلف الوسائل، ليسد الرغائب التي فرضها عليه مجتمعه الفاسد، ولا يبالي إذا سلك طرقاً ملتوية دون وازع من ضمير، لإرواء غليله، ما دام هذا الطريق أو ذاك يحقق له ما يريد.

إن مهمة الرسول الكريم إذاً هي تصحيح الوضع الاجتماعي المتردي، الذي يقودهم نحو الهاوية، نحو الشقاء الأبدي. فيأتيهم بالهدى، والكتاب المنير، ويعظهم ويقارعهم بالحجة، فإن سمعوا وعملوا بما سمعوا، فإن الله من بعدها لغفور رحيم، يبدل سيئاتهم حسنات، ويبتعد الهم والقلق والألم والظلم والشقاء بطبيعته، ويصلح بالهم. وإن أبوا واستكبروا فإن الله يأخذهم كما ذكرنا بألوان من العذاب، لعلهم يرجعون، وإذا لم يفدهم العلاج، ولم يقبلوا نصح الرسول الكريم، فعندئذ ينذرهم تعالى على لسان رسوله، فإن أصروا على كفرهم، واستهزأوا بما أنذروا، عندئذ فإن البلاء حالٌّ بهم لا محالة، وسينجي الله الذين آمنوا منهم برحمة منه ومتاع إلى حين.

قال تعالى: **﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾**[1].

---

(١) _ سورة هود الآية (٥٨)

وقال سبحانه عن قوم لوط: ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[١].

وعن قوم شعيب قال: ﴿**وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾[٢].

هذا ولما أصبحت الفتن تتوارد كقطع الليل مظلماً، فإن الله سيهلك الذين كفروا منا وأصرُّوا على كفرهم، وسينجي الذين آمنوا برحمة منه، وسيجعلهم بعد ذلك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

تلك قوانين لا يمكن التغلب عليها، لأن الله غالب على أمره، فإذا فسقت أمة، أو أمم فإن هلاكهم سيكون محققاً، فلا مؤتمرات السلام، ولا اجتماعات نزع السلاح، ولا فكرة التعايش السلمي، ولا توازن القوى، ولا أي شيء في الوجود، يمكنه أن يصرف البلاء المنتظر إذا آن أوانه، اللهم إلا بشرط واحد فقط، وهذا الشرط هو ابتعاد البشرية عما أُترفوا فيه، وتغيير هذا النهج، نهج الضلال والكفر، والرجوع إلى رياض الدين، والتمسك بتعاليمه قولاً وفعلاً، وأخذ الكتاب بقوة، والعمل به بقوة أيضاً، ولما كان هذا الشرط، يكاد يكون مستحيلاً، بسبب الانصراف الكلي نحو الدنيا، والابتعاد الكلي بالنسبة لمعظم البشرية عن الله، فإن الساعة آتية لا ريب فيها، وهذا ما بينه سبحانه وتعالى، عندما قرن وقوع القول على الناس بخروج دابة الأرض[٣]، وبما أن دابة الأرض قد أخرجت، فإن البلاء بات محققاً، ذلك لأن البشرية في هذا العصر، تقترف من السيئات ما فاق أعمال الأمم السابقة جميعها، وأنها بلغت من الطغيان مبلغاً لم يصله أحد من العالمين من قبل، لذا فإن الله عز

(١) _ سورة الذاريات الآيات (٣٥-٣٦)

(٢) _ سورة هود الآية (٩٤)

(٣) _ انظر شرحها بالفصل الثالث-خروج دابة الأرض.

وجل لن يتركنا نعيث في الأرض فساداً. كلا... فإنه مصيب الذين ظلموا في عصرنا ما أصابهم، بل أدهى من ذلك كله وأمرُّ.

إن الرسول الكريم محمد ﷺ، حذرنا من هذا البلاء، وبين لنا الأشراط الدالة على وقوعه. وكذلك سوف يظهر الله السيد المسيح عليه السلام، وهذا الظهور بات وشيكاً، مؤكداً ما قاله سيدنا محمد ﷺ. وإذا لم تستمع البشرية لداعي الله، فإن البلاء سوف لا يلبث طويلاً، وسوف لا ينجو منه إلا كل مؤمن، أو قابل للإيمان، ولن تفيدهم صياصيهم، ولا غيرها من الاستعدادات، إذا أراد الله أن يهلكهم.

أما الأشراط أو العلامات أو الإشارات التي تسبق الساعة، فهي كثيرة، لذا نذكر منها ما جاء ذكرها في القرآن الكريم وتم وقوعها فعلاً.

فمن هذه الأشراط الكبرى:

خروج بيت المقدس من أيدي المسلمين

وقبل تفصيل هذا الشرط نقول من هم الذين تكون القدس في أيديهم عند فتحها من قبل المسلمين؟

لقد جاء في الأثر بأن القدس قد فتحت في زمن عمر بن الخطاب، وكانت يومئذ تحت سيطرة النصارى من الرومان، كما فتحت ثانية على يد صلاح الدين الأيوبي، وكانت يوم ذاك تحت سيطرة النصارى من الصليبيين، ولكن هل إلى هذين الفتحين أشار القرآن؟ أم إلى فتح آخر؟ إذا ما رجعنا إلى القرآن الكريم نجده قد نوه إلى ذلك الفتح في سورة الإسراء. قال تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا**﴾(١).

من هذه الآيات يتبين أن بيت المقدس عند فتحه يكون بيد اليهود الإسرائيليين، وليس بيد المسيحيين من رومان وصليبيين.

وهذا ما تدل عليه تلك الآيات الكريمة: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ..**﴾: إن الله قضى في الكتاب، أي في التوراة، أن بني إسرائيل ما داموا على استكبارهم، وعدم تقديرهم لرسولهم، وعدم تفكيرهم في آلاء الله، وبالتالي عدم إيمانهم بالله، فإنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وهذا الفساد قد جاء ذكره في العهد القديم، لقد جاء في سفر أرُميا في الإصحاح الثاني: **(إنذهلي أيتها السماوات من هذا الفساد واقشعري وانتفضي جسداً فإن شعبي صنع شرَّين).**

---

(١) _ سورة الإسراء الآية (٤٧)

وهذا مصداق للآية الكريمة: ﴿.. **لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..**﴾، وبما أن العهد القديم هو عبارة عن تاريخ بني إسرائيل بغض النظر عن صحة رواياته فإن هذا القول لا شك مأخوذ من التوراة كلام الله. وأما جملة **(صنع شرَّيْن)** فلا يؤخذ بمعناها الحرفي بأن الشرين قد حدثا في الماضي بسبب التحريفات التي أحدثوها، وبسبب سوء الترجمة، كذلك فإن في القرآن الكريم آيات جاءت بصيغة الماضي، وهي تعني المستقبل [١].

أما الفساد الأول فانظر ما ضمَّنوه أسفارهم لا سيما **(سفر أشعيا وأرميا)** فإنك ترى وصفاً لفسادهم وإفسادهم يفوق حد الوصف [٢]، وهذا الفساد والإفساد قد جاء قبيل تنفيذ الوعيد من رب العالمين، لقد بيّن تعالى بأن الإفساد الأول ستكون عقوبته إرسال عباد له أولي بأس شديد. والآن لننظر ما جاء في الإصحاح السابع من سفر أشعيا:

(... تقتلون، وتسرقون وتزنون، وتحلفون، ثم تأتون وتقفون بين يدي الرب في هذا البيت الذي دعي باسمي وتقولون أُنْقِذْنا حتى تصنعوا جميع تلك الأرجاس. أفصار هذا البيت الذي دعي باسمي مغارة للصوص).

ونتيجة لذلك الفساد جاء جواب الرب كما ورد في نفس الإصحاح:

---

(١) _ مثال ذلك قوله تعالى:﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ الآية (١) من سورة النحل.

(٢) _ من ذلك الفساد نذكر ما جاء في الإصحاح الخامس من سفر أشعيا: (.. **كيف أصفح وقد تركني بنوك وحلفوا بما ليس إلَه. وحين أشبعتهم فسقوا وإلى بيت الزانية تبادروا، صاروا أحصنة معلفة هائمة =**

=كل يصهل على امرأة قريبه أفلا أفتقد على هذا يقول الرب، ولا تنتقم نفس من أمة مثل هؤلاء، "لقد غدر بي آل إسرائيل وآل يهوذا، ها أنذا أجلب عليكم أمة من بعيد يا آل إسرائيل أمة قوية، أمة قديمة، أمة عريقة" أمة ليست تعرف لسانها ولا تفهم ما تتكلم به. جعبتها كقبر مفتوح كلهم جبابرة وصفهم تعالى: **(أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) يأكلون حصادك، وخبزك وغنمك، ويدحرون بالسيف مدنك الحصينة، آثامكم وخطاياكم منعت الخير عنكم).**

(وبما أنكم عملتم كل هذه الأعمال وقد كلمتكم مبكراً [1] ولم تسمعوا فسأصنع بهذا البيت الذي دعي باسمي كما صنعت ((بشيلو)) وأنبذكم على وجهي كما نبذت جميع إخوتكم).

وفعلاً كان تدمير البيت أمراً مفعولاً على يد الملك الكلداني **(بختنصر)**. وبعد توبتهم ورفع شأنهم بعصر سيدنا داود ﷺ الذي قتل **(جالوت)** وأصبحوا خير أمة، ولكنهم عادوا للفساد وإفساد حياة الأمم، فغيروا سيرتهم التي كانوا عليها بعهد سيدنا داود وسليمان عليهما السلام.

ومنذ ذلك الحين وحتى عام /١٩٦٧/ ظل هذا الشعب خاسراً للقدس وخارجها تحت حكم ووصاية الدول ورعايتها.

لقد بين تعالى في الآية السابقة، بأن الله قضى لهم في الكتاب، بأنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أما وقد أشرنا وذكرنا شيئاً من فسادهم، إلا أننا لم نذكر عن إفسادهم شيئاً، لأننا نعلم أن كل فساد يتبعه الإفساد، إذ كل فاسد يحاول إفساد غيره ليكون له ذلك مبرراً أمام الله والناس بزعمه، فمن ذلك قولهم: ﴿.. **اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ**...﴾[2].

ذلك لأن الشيء لا يظهر بشكل واضح إلا بضده، فإذا وجدت فئة مؤمنة وأخرى كافرة، فإن سلوك الثانية يظهر بشعاً أمام سلوك الأولى، ونتيجة لهذا التفاضل يتولد الحسد والغيظ من قبل الكفار، وعندئذ يسعون لإفسادهم، لكي يزول ذلك التفاضل، ولكيلا ينكشف للناس زيفهم. وبالنسبة لبني إسرائيل عندما أصبحت نفوسهم خبيثة، ولكيلا يظهر للناس فسادهم، أو تقام عليهم الحجة يوم القيامة، بزعمهم، راحوا يسعون في الأرض الفساد، وقد تذرعوا بشتى الوسائل، لتبرير إفسادهم.

---

(١) _ إن جملة **(وقد كلمتكم مبكراً)** دليل آخر بأن الله قضى لبني إسرائيل مبكراً أي في التوراة بأنه سيدمر البيت إذا بلغوا من الفسق هذا الحد.

(٢) _ سورة العنكبوت الآية (١٢)

لقد جاء في أسفارهم قصص كثيرة من الأساليب الملتوية، التي كانوا يتبعونها في سبيل الإفساد، فمن جملة الأساليب مثلاً، استخدامهم للنساء، والمال، والفسق، ونشر الترف.

والكثير من هذا الشعب كان ولا يزال، ينشر الفساد كلما سنحت له الفرص وواتته الظروف. لأنه كان يبغي جمع المال، والمال مادة الشهوات والفساد، لا يقتصر على الإغراء بالشهوات، وإنما يلحقها إفساد العقائد التي تدين بها الأمم أيضاً. وتلك المحاولات قد نلمسها في بعض كتب التفسير، وفي الأحاديث المدسوسة، وقد تمكن هؤلاء مع غيرهم من الداسين، أن يدسوا في الدين الإسلامي الشيء الكثير[1]، كما أنهم استطاعوا بالمساعي مع غيرهم، بهذه الدسوس وسذاجة من يتقبلها، أن يفرقوا الأمة الإسلامية، إلى شيع وأحزاب وطوائف كثيرة متناحرة.

تلك لمحة موجزة عن فسادهم وإفسادهم، وعن علوهم وتدميرهم في المرة الأولى، أما في المرة الثانية من فسادهم الثاني في الأرض، فهو بيِّن لكل ذي عين، وما فساد أوربا، إلا من مكر المفسدين من هذا الشعب، وتمكنوا في فترة لا تزيد عن ربع قرن، بواسطة حبل من الناس الغربيين والشرقيين، وهم الذين أمدوهم، بأن يبسطوا نفوذهم على كامل فلسطين، وبعض الأراضي المجاورة لها، وكان عام /١٩٦٧م/ أكبر علو لهم، فقد أتموا سيطرتهم واحتلالهم لمدينة القدس: ﴿**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا**﴾[2]: فيتم هلاك الكفرة الجاهلين منهم، على أيدي المؤمنين، ثم لا بدَّ وأن يؤمن الباقون منهم جميعاً، على يد سيدنا عيسى عليه السلام، بدلالة قوله تعالى

(١) _ ما يسمونه بالإسرائيليات كتلك الروايات التي تشوه سيرة أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم من أن يهودياً رهن عنده النبي الكريم درعه. ويهودياً سحره. ويهودية سممت النبي الكريم. وأن اليهودي (دحية الكلبي) الذي كان يشبه جبريل (بزعمهم) خدع الرسول وأوحى له بالخروج إلى بني قريظة. فما دمنا نقول صلى الله عليه وسلم فلا يمكن أن يتسمم، أو يُسحر، أو يخدع، أو يفتقر مطلقاً، لأن السلام يعني الأمان من الله تعالى. كما قال صلى الله عليه وسلم (السلام أمان الله في الأرض) فأنّى لمخلوق أن يضرّه أو يذلّه والله مانع رسله. قال تعالى:﴿**... وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...**﴾ الآية (٦٧) من سورة المائدة.

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٧)

ووعده: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[١]: هذا حتماً سيقع عمّا قريب، وأما آية جمْعهم بفلسطين: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾[٢]. وليست كلمة ﴿الآخِرَةِ﴾: تعني يوم القيامة بل هي آخر فسادهم وكفرهم وذلك بعد تجمعهم، فقد وقعت، وقد اجتمعوا الآن بفلسطين.

وقبل أن نختم هذا الشرط أو هذه العلامة الكبرى من علامات الساعة عن خروج بيت المقدس من أيدي المسلمين لليهود، حيث وقع ذلك عام /١٩٦٧/ نود أن نتعرض للنقطة التالية:

لقد ذكر لنا تعالى في كتابه الكريم، أن بني إسرائيل قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، كما أنه كتب عليهم التشريد في الآفاق. وما دام الأمر كذلك، فلماذا أصبح لهم هذا الشأن؟

الحقيقة أن بني إسرائيل لا يزال مضروباً عليهم الذلة والمسكنة، ضمن حالتين كما ورد في الآية التالية: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[٣].

الحبل الأول: هو حبل الله: أي تحت سيطرة أمم إسلامية.

والحبل الثاني: وهو حبل الناس، يعني بأن الله لا يمد بني إسرائيل وهم على هذه الحال إلا عن طريق الناس من غير المؤمنين، وهؤلاء يسخرونهم لخدمة مصالحهم، وتنفيذ غاياتهم ومآربهم، على مبدأ فرِّق تسد. وهذا أمر واضح لكل ذي بصر بأن قيام دولة إسرائيل وبقاءها مرهون بحبل أمريكا وأوروبا. أما الغاية من تسليط هؤلاء

(١) _ سورة النساء الآية (١٥٩)

(٢) _ سورة الإسراء الآية (١٠٤)

(٣) _ سورة آل عمران الآية (١١٢)

وهؤلاء علينا من قبل الله تعالى، هي رحمته تعالى بنا، لعلنا نتعظ ونرجع إلى ديننا وإنسانيتنا، ونتوب إلى الله متاباً، بعد أن بلغنا من الفسق والضلال ما بلغنا. ولأننا دون غيرنا المعنيون والمكلفون بنشر الحق إلى العالم أجمع، ونحن الأمة الوسط الذين اختارنا الله، منذ أن بعث الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ فينا، وهذا الرسول الكريم جاء ليكون علينا شهيداً، ونكون شهداء على الناس، ولكن بيان شهادة الحق للناس لا تكون إلا إذا أقمنا الصلاة، وحصلنا على الزكاة القلبية والطهارة. وهذه الصلاة لا تقام إلا إذا اعتصمنا بالله تعالى، وأصبح لنا الولي، دون دول الشرق والغرب.

قال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾[١]

وما لم نرجع عن غيِّنا، فإن الله جلت حكمته، سوف يظل مسلِّطاً علينا سوطاً من العذاب، ومَن يذيقنا كأس الذل والهوان: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾[٢].

أما العز، ونحن على ما نحن عليه، فهو محال، وما لم نتب توبة نصوحاً، ونرجع إلى ديننا، نحكم بما أنزل الله، فإن البلاء سوف لا يفارقنا، حتى يقضي الله بأمره.

وهنالك قانون عام ساري: فالله يسلط الكافر على المؤمن العاصي، عله يتوب ويرجع إلى إنسانيته، فإن عاد واستقام، وللصلاة والزكاة أقام، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، سلَّطه تعالى بدوره على الكافر فيردعه، لعله يؤمن، فإن آمن، رفع عنه

---

(١) _ سورة الحج. الآية (٧٨)

(٢) _ سورة الأنعام الآية (١٢٩)

الذل. وأفعاله تعالى كلها خير بحق الجميع: ﴿.. **وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[1].

وأما بنو إسرائيل، فقد سحبت منهم شهادة الحق للناس، منذ أن جاء السيد المسيح عليه السلام في المرة الأولى، ولولا كلمة سبقت من الله لقضي بينهم من بعد أن هموا بقتل السيد المسيح عليه السلام. وقد جاء في القرآن الكريم ما يبيّن ذلك بعد ذكر طائفة من أنبياء بني إسرائيل ذكر تعالى قائلاً عن الأنبياء: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء**...﴾: اليهود﴿... **فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا**...﴾: العرب: ﴿..**لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾[2]. وهذه الكلمة متوقف انتهاؤها على عودة السيد المسيح عليه السلام في المرة الثانية، فمن لا يستجيب له، فإن هلاكهم سيكون محققاً وكاملاً.

وخلاصة القول: أن الله وعد بني إسرائيل إن لم يتوبوا ويستقيموا فيؤمنوا ويقدِّروا رسوله وعديْن:

الأول: عند خروجهم من مصر، بقيادة الرسول الكريم موسى عليه السلام واستقرارهم في فلسطين، حين كانوا هداة مرشدين للبشرية، وبتطاول الزمن عليهم فسدوا وأفسدوا، وحادوا عن طريق الحق، فسلط الله عليهم بختنصر، فتابوا وعادوا للحق، تحت لواء سيدنا داود وسليمان عليهما السلام.

الثاني: إذا جاء وعد الآخرة (أي الوعد الثاني): ﴿.. **فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا**﴾[3]: من بعد هذا التشريد عند أمم الأرض، وهذا ما نلحظه في هذه الأيام، فقد اجتمعوا في فلسطين من جميع أنحاء المعمورة وأصبح المسجد الأقصى

(١) _ سورة آل عمران الآية (٢٦)

(٢) _ سورة الأنعام الآية (٨٩)

(٣) _ سورة الإسراء الآية (١٠٤)

أسيراً عندهم والوقعة الثانية سيدخل المؤمنون مع السيد المسيح عليه السلام المسجدَ فاتحين.

وهاكم تأويل الآيات في سورة الإسراء: ﴿**وَقَضَيْنَا**﴾: حكمنا وبيّنا: ﴿**إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ**﴾: إن لم تدخلوا من باب موسى عليه السلام عليَّ، ولم تسيروا ضمن أمري: ﴿**لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ**﴾: إن تركتم لا إلّه إلا الله، ملتم لغير الله، ما آمنتم بالله: ستميلون للدنيا، وتجعلون الناس يميلون إليها، سيكون هذا مصيركم.

وتفسدون مرتين: ﴿**وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾[١]: حيث أن قلبهم ممتلئ بالخبث. إن تباعدتم عن الله ولم تعظموه، سيقع بقلبكم حب الدنيا وستعلون بها: ﴿**فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا**﴾: سيكون هذا لكم: الفساد الأول: ﴿**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾: وقد فسدتم، وهذا وقع لمّا تسلّط عليهم **(بختنصر)**: ﴿**فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ**﴾: فجاؤوا لتأديبكم، وحصل لكم ما حصل: ﴿**وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً**﴾[٢]: مفعولاً: أي وقع هذا وانتهى. هذا الخطاب لليهود في عهد رسول الله ﷺ، ذكّرهم الله بما جرى لهم. ثم تبتم ورجعتم والتجأتم، وعاهدوا فجاءهم سيدنا داود عليه السلام: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ**﴾: بعصر داود عليه السلام، وانتصر سيدنا داود على العدو ورفع الله شأنهم، فأعطيناكم مالاً وأولاداً: ﴿**وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا**﴾[٣]: صار لكم مقامكم العالي، بتوبتكم وإيمانكم، فغدوتم بعهد سيدنا داود وسليمان عليهما السلام، خير أمة أُخرجت للناس، لأنكم كنتم تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله. الآن أرسلنا لكم محمداً ﷺ ومعه القرآن، فخاطبهم تعالى: ﴿**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ**﴾: الآن قد حصل لكم يا بني إسرائيل أولاً ما حصل، ولكن إن أحسنتم وآمنتم به، فتبتم ودخلتم من باب محمد ﷺ عليَّ حوَّلت عنكم البلاء، خلصتم منه: ﴿**وَإِنْ أَسَأْتُمْ**﴾: ظللتم على ما أنتم عليه الآن من الفساد: ﴿**فَلَهَا**﴾: ستحصل لكم الثانية:

---

(١) _ سورة الإسراء الآية (٤)

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٥)

(٣) _ سورة الإسراء الآية (٦)

﴿**فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ**﴾: الوقعة الثانية والأخيرة: ﴿**لِيَسُووُؤواْ وُجُوهَكُمْ**﴾: ستستاؤون كما حصل لكم زمن (**بختنصر**) إذ سنرسل لكم هؤلاء المؤمنين، بقيادة السيد المسيح ﷺ: ﴿**وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا**﴾[1]: لا يبقون لكم أثراً، بل يقطِّعونكم تقطيعاً. وهكذا فالله تعالى، يرسل على الإنسان إن فسد (ضربة) فيرجع إلى الله، فيعطيه الدنيا مرّة ثانية، فإن نكل، جاءه الهلاك ولا مفرّ منه: ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ**﴾: إن تبتم رفعت عنكم الشدائد، هنالك أناس كثر منهم سيؤمنون مع سيدنا عيسى ﷺ عند ظهوره الآن: ﴿**وَإِنْ عُدتُّمْ**﴾: للمعارضات: ﴿**عُدْنَا**﴾: لتأديبكم. وهذه عامة لكل إنسان: ﴿**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا**﴾[2]: تحصرهم: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ**﴾: الذي أنزلناه على رسولنا في ليلة القدر: ﴿**يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾: للبشرية، أهدى وأقوم وأمثل طريق. خلقك تعالى للسعادة، لتعيش في الدنيا سعيداً، وفي الآخرة سعيداً.﴿**وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾: دنيا وآخرة: ﴿**الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ**﴾: الصالح للإنسانية، المثمر له دوماً يؤتي أكله كل حين بإذن ربه، إذ لا شائبة فيه، لأن غايته بعمله وجه الله، ونتاج هذا العمل يديمه الله له، على الحرث والنسل إلى يوم القيامة، المؤمن حقّاً يعمل الصالحات، يرى السعادة في الأعمال الصالحة، الصلاة كلها وسائل للعمل الصالح، لتكون من أهل الإحسان: ﴿**أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾[3]: لا نهاية ولا حد لهذا العطاء: ﴿**وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**﴾: لكنك ستترك الكل، أنت لاهٍ في الدنيا فهل أنت مؤمن بالآخرة؟ لست بمؤمن ولا بمفكر بها، المؤمن ليس هذا عمله: ﴿**أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[4]: المؤمن بها حقاً يستقيم، فلا يشذ أبداً.

* * *

(١) _ سورة الإسراء الآية (٧)

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٨)

(٣) _ سورة الإسراء الآية (٩)

(٤) _ سورة الإسراء الآية (١٠)

طلوع الشمس من مغربها وانشقاق القمر

* إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يسيران نحو غاية معينة ولأجل، لا يتبدلان إلى آخر الدوران، وأي تبديل في نظامهما، يتبعه تبديل نظام الكون كله، فإذا طلعت الشمس من مغربها، فمعنى ذلك أن الأرض بدأت تدور بعكس اتجاهها الأول، وبالتالي أصبح الليل سابقاً للنهار، وهذا ما لا ينبغي أن يكون، لأن الله قد نفى ذلك بآية صريحة: ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[1].

لذلك فإن هذه الإشارة أو هذه العلامة لا تعني هنا هذا الكوكب الملتهب الذي يشرق في الصباح، ويغرب في المساء وإنما معنى طلوع الشمس هنا، هو معنى مجازي.

كما أنه تعالى حدثنا عن رسول الله ﷺ أنه سراج منير، والسراج هو الشمس: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾[2]. فكان ﷺ شمس النبيين رحمة للعالمين نور الله الذي به يُرى طرفٌ من أسماء الله الحسنى، فهنا جاء معنى السراج مجازياً كشفاً لحقيقة رسول الله ﷺ الكاشف لما أغلق والفاتح لما سبق.

كما أن سيدنا يوسف عليه السلام رأى والده وأمه في الرؤيا شمساً وقمراً وإخوته كواكب.

أما الشمس التي هي مدار بحثنا وجدها ذو القرنين عليه السلام تغرب في عين حمئة فهل يعقل أن تغرب هذه الشمس التي في السماء في بقعة من بقاع الأرض رغم ضخامتها أم كيف يجد قوماً عندها وهي في السماء. وماذا يحدث لو اقتربت

---

(١) _ سورة يٓس الآية (٤٠)

(٢) _ سورة الأحزاب الآيات (٤٥-٤٦)

الشمس من الأرض وخرجت عن مدارها المعروف علمياً بداهةً؟ ألا تتبخر الكرة الأرضية وتفنى؟

إذن: المقصود بطلوع الشمس من مغربها، هو بزوغ الحضارة وعلومها البرَّاقة من جهة الغرب، أو من الجهة التي غربت فيها، لا من المشرق عن طريق شمس النبيين ﷺ السراج المنير.

إن حضارة هذا القرن، قد أشرقت على المعمورة من الغرب، وانتشرت كالشمس في أرجائها، إذ ما من أحد إلا وعليه أثر من آثار أشعتها، وما من امرئ إلا ووسمته بميسمها.

تلك الحضارة التي انتشرت عمقاً واتساعاً، في أنحاء الأرض، قد غزت عقول الناس وقلوبهم، وأزاغت قلوبهم عن منبع النور الحقيقي، وجعلتهم يعيشون في ظلمات وقلق، ونتيجة ما أرسلته مع أشعتها من شوب، استطاعت أن تبهر عقول الذين كفروا، حيث جعلتهم في ظلمات لا يبصرون، وبهذا العمى القلبي، راحت البشرية تعب منها عبّاً دنيوياً محضاً، لا إيمان فيه.

* فما شروق الشمس من مغربها، ولا انشقاق القمر، إلا معاني مجازية، ترمز وتدل على أشراط الساعة الكبرى، وبداية الآية الكريمة: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[1]: تؤكد هذا المعنى وتبينه بوضوح، بأن اقتراب الساعة مرتبط بانشقاق القمر، وليست كما يقال أنها معجزة لرسول الله ﷺ ومما يؤكد هذا المعنى أيضاً:

* أن الله تعالى لم يؤيد رسوله بالمعجزات، ولا بخوارق العادات، وإنما أيده بقرآن يقذف بآياته باطل الكفار، فإذا هو زاهق لا حياة فيه.

* ذلك لأن للمعجزة تعريف: وهي تكون ظاهرة مكشوفة للناس وفيها تحدٍّ، كما بينها تعالى بمعجزة عصا سيدنا موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ**

(١) _ سورة القمر الآية (١)

النَّاسُ ضُحًى﴾[1]: والمعجزة ليست بناقلة لأحد من الكفر إلى الإيمان، ما لم يعمل فكره، ويتأمل في هذه الكائنات، صنع الإلّه العظيم. وقد بين تعالى بآية واضحة سبب منع إرساله المعجزات، أن كذب بها الأولون، قال تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ...**﴾[2]، فبعد التكذيب بالمعجزة، الهلاك الحتمي، والله يدعو إلى دار السلام، ولا يرضى لعباده الهلاك، فهل يرسل لهم ما يهلكهم، وهو العليم بأحوالهم وبتكذيبهم؟! فإن جاءت المعجزات وما آمنوا، سيهلكون، وهم لن يؤمنوا، وهاكَ نظرة سريعة لصنائع المعجزات.

* **فالنار:** كانت على سيدنا إبراهيم عليه السلام، برداً وسلاماً، وما زاد ذلك قومه إلاَّ كفراً وعناداً، ولم يؤمن من قومه أحد، وأصبحوا فيما بعد، قوم لوط المرجومين بحجارة من سجيل.

* **خروج الناقة من الصخرة:** معجزة أرسلت لقوم سيدنا صالح عليه السلام، بناء على طلبهم، ومن صخرة هم عيَّنوها، فما جعلت قومه يعظمونه في شيء، بل ما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿**مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا..**﴾[3]، ثم عقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: ﴿.. **يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[4]، وهلكوا.

* وقال آل فرعون لسيدنا موسى عليه السلام بعد أن رأوا ما رأوا، من آيات بيِّنات ومعجزات: ﴿.. **مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[5]، وازدادوا كفراً وعناداً.

* أيضاً معجزات سيدنا عيسى عليه السلام أحيا الميت وأبرأ الأكمه والأبرص، وخلق من الطين طيراً بإذن الله، أما قومه: ﴿.. **فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾[1]،

---

(١) _ سورة طه الآية (٥٩)
(٢) _ سورة الإسراء الآية (٥٩)
(٣) _ سورة الشعراء الآية (١٥٤)
(٤) _ سورة الأعراف الآية (٧٧)
(٥) _ سورة الأعراف الآية (١٣٢)

ومكروا مكراً ليقتلوه عليه السلام، وحل بهم الهلاك الحقيقي، إذ حُرموا من: ﴿.. **الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...**﴾[٢]: بعد كفرهم. والله آواه وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين، ويقال أنها ربوة دمشق، أي: سحب تعالى هذا الخير العظيم، عليه السلام، عنهم بكفرهم.

* وكما أشارت الآية الكريمة إلى أنه لا فائدة من رؤية المعجزات، إن لم يصدُقْ الإنسان بطلب الحق، في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ**﴾[٣]: إن لم يكن الإنسان هو بذاته طالباً للحق فسينكث ويعود للمعارضة ويظن المعجزات سحراً، فالإيمان أصل من دونه لن يصدق المرء بطريق الكمال.

فالمعجزات ليست بناقلة أحداً من الكفر إلى الإيمان من الأقوام السابقة، لذا أتت الآية الكريمة بإيقاف ظهور المعجزات: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ...**﴾[٤]، بل لا بدَّ من إعمال الفكر الدقيق، فيما يسمعه الإنسان من الهدى والبيان، كما آمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكما آمن صحابة رسول الله ﷺ، فرفع تعالى شأنهم، أو النظر والتأمل في هذه الكائنات، مع الخشية من الفراق الذي لا بُدَّ منه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾[٥]

القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الخالدة:

(١) _ سورة الصف الآية (٦)

(٢) _ سورة الأنعام الآية (٨٩)

(٣) _ سورة الحجر الآيات (١٤-١٥)

(٤) _ سورة الإسراء الآية (٥٩)

(٥) _ سورة ق. الآية (٣٧)

* أمَّا معجزة القرآن، فلا تنحصر في ناحية معينة، كجمال الأسلوب، ولا في جرسه العجيب، ولا في غزارة معناه، مع إيجاز لفظه ومبناه، وإنما تشمل أيضاً، احتواءه على علوم البشر، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، قال تعالى:

﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ...**﴾[1]. قال رسول الله ﷺ: **(كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هديَ إلى صراط مستقيم)** [2].

هذا ولم يرسل تعالى الرسل الكرام صلوات الله عليهم، إلا بلسان قومهم. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ...**﴾[3].

ففي عصر سيدنا موسى عليه السلام كان السِّحر بأوجهِ، فأيَّده الله تعالى بمعجزة أبطل بها شعوذتهم ودجلهم وتخييلاتهم وأما سيدنا عيسى عليه السلام فقد جاء بعصر الطب وتفوقه، بمعجزات ما أبطل علمهم، كإحيائه الموتى بإذن الله، وخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأكمه والأبرص.

وكذلك سيدنا سليمان عليه السلام جاء بعصر الملك، وكيف أن الله وهب له من الملك ما لم يهبه أحداً من بعده.

---

(١) _ سورة الأنبياء الآية (١٠)

(٢) _ سنن الترمذي رقم/٣٠٧٠/.

(٣) _ سورة إبراهيم الآية (٤)

وكذلك الأمر في عهد سيدنا محمّد ﷺ إذ أصبح الزمن زمناً يتبارى فيه البلغاء، ويتنافس فيه الشعراء، ولم يبق للملك والسلطان تلك القيمة التي كانت له عندهم من قبل، فبيتُ شعر بنظر العرب آنذاك، أثمن لديهم من قصور كسرى وقيصر، فجاءهم رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، معجزة أبدية مكشوفة ظاهرة لكل الناس، وفيها تحدٍّ من الله تعالى لهم: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ..**﴾: تحدٍّ واضح من الله تعالى لهم. ﴿... **وَلَن تَفْعَلُواْ**...﴾: وهذا تحد لكل الأزمان وإلى نهاية الدوران، إذن: ﴿**فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[1].

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى الوحيدة، التي أيَّد الله تعالى بها رسوله الكريم ﷺ، وقد ذكر ذلك عز وجل، مبيناً أن لا معجزات سوى هذا القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[2].

ألم يكفهم أنه أنزل على رجل منهم لا يعرف القراءة والكتابة، والذي يتحدى به بل بسورة منه، أمراء البيان وفحول الشعراء، أن يأتوا بمثله وفي سائر الأزمان والعصور، وعجزوا ويعجزون إلى يوم القيامة، ولو كان الإنس والجن بعضهم لبعض ظهيراً. ألا يعتبر بحق معجزة. بل أعظم معجزة دائمة لمن أراد وجه الحق!

أوليس ما نحن واقعون فيه بهذا الزمان، من إشارات وعلامات للساعة، قد بينها تعالى في كتابه الكريم، منذ أربعة عشر قرناً ونيف، أليس هذا بمعجزة؟!! ألا

(١) _ سورة البقرة الآيات (٢٣-٢٤)

(٢) _ سورة العنكبوت الآية (٥٠-٥١)

يستدل من علامات الساعة المذكورة في القرآن الكريم، أن هذا الكتاب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ كيف وصف رسول الله ﷺ هذا الزمان بهذا الوصف الدقيق، وعبّر عنه بكلمات جامعة مانعة... أليس هذا بمعجزة؟!

إن كلمة شروق الشمس من مغربها، وانشقاق القمر، وغيرها من الآيات التي تخص الساعة، لهي من أكبر المعجزات والرحمات الإلّهية، التي أفاضها تعالى على رسوله الكريم، لكي نتدارك أمرنا، ونعود إليه تعالى.

قال تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ**﴾(١)

* هذا ولما كان الغيب لله، فإنه لا يطلعه إلا لمن ارتضى من رسول، وهذا الغيب قد كشفه جلّ وعلا لرسوله الكريم ليلة أسرى به، والرسول ﷺ لم يضن علينا بما كشف له تعالى من علم الغيب(٢).

فذكر الأحداث الكبرى التي ستجري في المستقبل. وما علامات الساعة التي نتحدث عنها الآن إلا من آثار تلك الفتوحات الغيبية، التي أراه الله إياها. وأوردها تعالى في كتابه العزيز.

إذن: فإن انشقاق القمر كما بيّنا آنفاً ليس بمعجزة، وإن الروايات التي ذكرت حول هذه الآية، لا صحة لها أبداً أنه انشق فلقتين، فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل. فقال النبي ﷺ بزعمهم: (اللهم اشهد) فذلك يتنافى مع القرآن الكريم بما أوردناه بآيات سابقة، ويتنافى مع القوانين الكونية التي سنَّها تعالى، وإنما آية الانشقاق، وحديث طلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض، إشارات ودلائل لقرب وقوع الساعة، ولو أن آية انشقاق القمر حصلت بزمن الرسول ﷺ حينها لوقعت الساعة في تلك الأثناء، وهذا ما لم يحدث، بل امتدت الدنيا إلى وقتنا هذا، ونحن الآن نعيش هذه العلامة، وقرب الساعة الحتمية.

---

(١) _ سورة القمر. الآية (٥٢-٥٣)

(٢) _ ﴿**وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ، وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ**﴾() الآيات (٢٢-٢٤) من سورة التكوير.

لقد بيّنا قبل قليل عن طلوع الشمس من مغربها، وبيّنا بأنها رمز للحضارة القادمة من الغرب، هذه الحضارة التي ظلت محجوبة وبشكل عملي، عن الشرق الإسلامي حتى أوائل القرن العشرين تقريباً، وبدأ إشراقها بدون حجاب، بعد الحرب الكونية الأولى، وبدأ العالم الإسلامي عامة، والعربي خاصة، ينسلخ عن منبع النور الإسلامي، من شمس النبوة، السراج المنير ﷺ، مستمداً نوره من هذه الشمس الدنيوية المحضة التي بانت من الغرب، فأصبح قمراً للغرب، يعكس وهج شمسها.

لقد اختار الله تعالى هذه الأمة الإسلامية العربية أمة وسطاً، ليكونوا شهداء على الناس بما يستمدونه من نور الله، عن طريق رسوله الكريم ﷺ، إلا أنهم الآن هجروا هذا النور واستبدلوه بنور الحضارة المادية المحموم، وبذلك فقد الأمل منهم تقريباً في إقامة الحق على الأرض، لأن هذه الأمة الوسط بين رسول الله ﷺ وخلق الله، والمكلفة بإنقاذ العالم، من الظلمات إلى النور الإلّهي، قد تحولت بوجهتها إلى الغرب، لذلك، فإن اقتراب وقوع الساعة بات محققاً، ولا بد في هذه الحالة، من مجيء منقذ للبشرية ينقذها من شمس الباطل إلى شمس الحق، والسيد المسيح رسول السلام، هو المهيأ لهذا الإنقاذ.

فيا أيها الناس اتقوا ربكم، إن زلزلتها لشيء عظيم، وإن عذابها لشديد.

هذا وإن انشقاق القمر الذي ورد ذكره في الآية الكريمة، إن هو إلا حدث من الأحداث المسطرة في الزبر، يبين الله تعالى فيها لأهل كل عصر، ما يهمهم من الآيات في الوقت المناسب، ليعلموا أن الله حق، وأن الرسول ﷺ وما جاء به هو الحق من ربه [(١)]، وليعلموا أن الله على كل شيء شهيد، وبيده نجاة ونصر من يتقيه.

فبما أن القمر المذكور بالآية الكريمة: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[(٢)]: لا يعني ذلك الكوكب المنير كما ذكرنا، إنما يشير إلى معنى مجازي، وهو البلد الذي

---

(١) _ ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ الآية (٥٣) من سورة فصلت

(٢) _ سورة القمرالآية (١)

يستمد من الحضارة الغربية، التي هي الشمس للعالم، من الاختراعات والإبداعات، ولها التبعية وبكافة الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية، ولفترة وجيزة كانت هذه الدول تتنعم بنتاج حضارة شمس الغرب، ونتاج علومه الدنيوية المحضة، عوالم المادة، من سيارات وطائرات وقطارات والمصانع الضخمة، وشبكات الاتصال والفضائيات، ووسائل اللهو والإنترنت، ونقلت كل فنونه حتى في اللباس والأدوات المنزلية والغناء، فأصبح العالم يعيش بتلك الصور الدنيوية محجوباً عن الحقائق الباقية، بالاتجاه الكلي نحو هذه الشمس. فقد أشاح الناس بالعالم أجمع، عن مبدع السماوات والأرض، وما أعدّه لهم من جنات باقيات، باتباعهم لهذه الحضارة الآنية، والتي تعقبها خسارة أبدية.

لقد أصبح الشرق كله، قمراً يستمد نوره من شمس حضارة الغرب، وما العالم الإسلامي إلا جزء لا يتجزأ من الشرق، شأنه شأن باقي الدول، يستمد نوره أيضاً من هذه الشمس الحضارية. ثم وبفقدان الروح والغذاء القلبي للبشر، بدأت تدرك ما فيه من خطر، وبدأت بالانشقاق، كإيران وشعوب وقبائل باكستان وأفغانستان والقرن الأفريقي والعراق وغيرهم، حتى أن الانشقاق حاصل بين الدولة الواحدة فيما بينها (إذاً الانشقاق حاصل في كل الدول على أعلى وأصغر المستويات) بكل ما تتضمن كلمة الانشقاق من معنى. أما انشقاق الصين فتمّ نحو الأسوأ، ويا ليتهم لم ينشقّوا.

انشقّوا عن استعمار بلادهم ولكنّهم قتلوا أنفسهم إذ غدوا (كالمستجير من الرمضاء بالنار)، أو كما يقول المثل العامي (طلعنا من تحت الدلف إلى تحت المزراب)، لقد هووا بانشقاقهم عن الغرب إلى قاع الشيوعية التي لا روح فيها أبداً ولا حياة قلبية، بل فيها نكران الإله والآخرة، فهم بالضلال غارقون، وثبت عليهم وعلى بلادهم ما أطلقه أهل الصلاح الأوّلون (أنّ بلاد الصين هي بلاد الخَطا)، حتى الكثير من الأثرياء في العالم وغيرهم، عبروا عن انشقاقهم عن هذه الحضارة وإفلاسها في نفوسهم، بما

سجلت من حالات كثيرة في الانتحار، وخاصة في الدول الراقية. وإليك نبذة من اعترافاتهم:

وحتى عن ملذات وملاهي مدينة نيويورك المتنوعة فإن "**جيمي والكر**" المتهم بكل شيء إلا بعمق نظرته وغور تفكيره قال عنها في آخر سني حياته:

(أصبحت اليوم لا أرى سحر وفتنة الأمس إلا شيئاً مبهرجاً تافهاً).

ويقول "**دراموند**": **(إن أعلى متع الأرض ليست إلا ألماً متنكراً** "مقنعاً"**).**

ويقول "**سير أرنولد**": **(عجباً، كما هي الريح كذلك هي الحياة البشرية الفانية، عويل، ندب، تحسر، غضب، كدح).**

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا...**﴾[1]. وهكذا فليست اللذائذ الدنيوية المحضة سوى شقاء وألم وخسارة أبدية وحسرات مغلفة بغلاف برَّاق مخادع.

إن ما نعيشه اليوم من كوارث وفيضانات وزلازل ومجاعات، وحروب وأعاصير مدمرة وحرائق في الغابات والمدن، ومن ذوبان القطبين الشمالي والجنوبي وانخفاض في المياه الإقليمية ونقص كبير من مستويات الأنهار، وارتفاع درجة حرارة الأرض وفساد البيئة نتيجة لما ذكره تعالى: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ...**﴾[2]: وبما أن الله تعالى منح الإنسان حرية الاختيار، وهم اختاروا وصمَّموا على ما لم يرضه الله لهم. لِما يعود عليهم بذلك من هلاك، ولكنهم أصرُّوا فأعطاهم طلباتهم ومشتهياتهم، وكل واحد سار بهواه فتغير نظام الكون، زلازل، طوفانات، قحط. حلّ البلاء الذي أشرنا إليه وسيعقبه الهلاك العام إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويلتجئوا إلى ربهم، ليصلحوا ما أحدثوا من عظيم الفساد، والذي عاد عليهم بأمراض غريبة أصابت الإنسان، وأمراض أخرى

---

(١) _ سورة طّه الآية (١٢٤)

(٢) _ سورة المؤمنون الآية (٧١)

أصابت الأنعام، مصدر غذائنا، ومن آلام وأمراض نفسية على مستوى العالم، حتى أوصلت الكثير منهم إلى الانتحار، وكل ذلك نتيجة انغماس الناس بالحياة الدنيا، واتباعهم شمس هذه الحضارة الغربية، التي أعمتهم عن الحقائق، وأصمتهم عن سماع الحق، بسبب ما اقترفت أيديهم من آثام: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾(١).

فكم هو ربنا رحيم ورؤوف بهذا الإنسان، فالدنيا لا يمكن أن تكون جنة، لأنها ليست باقية، ومصيرها إلى الزوال، وأما المؤمنون بما يستمدون من شمس الرسول الكريم ﷺ، الذي يأتيهم بالأنوار من الله، فهم في الجنّة، وبه تعالى الحياة الأبدية السرمدية الباقية، وما وصلت الناس إليه اليوم من ضيق وحزن وألم، فلا بد أن يبدل الله شقاءهم سعادة، بعودة وشروق شمس السيد المسيح، حبيب الله، رسول السلام، والأنبياء جميعاً هم شموس الحقائق، وكان ظهورهم دوماً في الشرق الأدنى، مهبط الرسل والنبيين، والانشقاق ظهر في هذا العصر فقط، عن شمس الغرب المادية المحضة. وهذا الانشقاق مرحلي، ورفْض مبدئي لأمّ الحضارة التي ولّدتها، والكشْف عن زيفها وغرورها، وتهيئة لرفضها الكلّي إثر الحرب العالمية الثالثة وعظيم أهوالها الكبرى وكربها، فعندها يتمّ الرفْض الكلّي والتقبّل بالأشواق لعصر المنقذ رسول الله المسيح عليه السلام، عندها تزول عن العيون الغشاوة، وعن الآذان الوقر، وتتفتّح القلوب لأنوار الحقيقة بقدوم السيّد المسيح عليه السلام.

وخلاصة القول:

إن سورة القمر ومن بدايتها، تتحدث عن التكذيب والإعراض الكلي عن الله تعالى، وتستعرض الأقوام السابقة حين أتاها العذاب، ابتداءً من قوم سيدنا نوح، إلى قوم سيدنا هود، إلى قوم سيدنا صالح، إلى قوم سيدنا لوط، إلى قوم سيدنا

---

(١) _ سورة الروم الآية (٤١)

موسى، وبعد هلاك المكذبين على طول الزمان، يذكر تعالى في آخر السورة، تكذيب أهل هذا الزمان، والنهاية المؤسفة التي سينتهون إليها، شأنهم في ذلك، شأن من سبقهم من الكافرين، الذين كذبوا دعوة الرسل، وقد اجتمعت فيهم جميع علل الأقوام، من كفر وعناد وتطاول في البنيان، وشذوذ في الأخلاق، وغش وإعراض: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ**﴾: بالحرب القادمة: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾: إذ أن هذه الحرب النووية الهيدروجينية، لا نصر فيها أبداً: ﴿**بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ...**﴾: ساعة البلاء العام: ﴿.. **وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**﴾[1]: هذه الساعة هي أدهى بهلاكهم، من الساعات التي مرت على الأقوام السابقة، وكلمة ﴿... **وَأَمَرُّ**﴾: أي أشد مرارة من غيرها، وذلك لعموميّتها بأرجاء الكرة الأرضية.

* * *

---

(١) _ سورة القمر الآيات (٤٤-٤٦)

النفوذ من أقطار السماوات والأرض

قال تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ**﴾[1].

إن هذه الآيات الكريمة ظهرت حكمتها الآن، إذ يبين الله بأن نفوذ الإنس والجن، من أقطار السماوات صعوداً نحو التسلح ضمناً والأرض غوراً للتنقيب، لا يتم إلا بسلطان، بقدرة ومعرفة وعلم، من استطاع أن يعرف ذهاباً في السماوات أو غوراً في الأرض فله ذلك ولكن يجب أن يعدَّ العدة، فلا نفاذ إلا بسلطان الفكر.

هذا الشيء قد تم فعلاً، واستطاعوا أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض، بعد أن تخلصوا من سلطان الأرض أو جاذبيتها. ولكن على الإنسان ألاَّ يغتر بما وصل إليه، لأن هذا العلم إنما هو من نتاج الفكر والعقل، اللذين وهبنا الله إياهما لنسمو بهما، لا لنكون كالجن الذين يصعدون من أقطار السماوات والأرض، للشر واستراق السمع، كما قالت الجن: ﴿**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا...**﴾: من السماء: ﴿.. **مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ...**﴾[2]: فهذا ليس برقيٍ إنساني، بل كالرقي الشيطاني، والجن أدنى مرتبة ومنزلة من الإنس، بل الرقي بالإيمان بالله والأنس والسموِّ به، فنبلغ مرتبة الإنسانية الحقّة، وننال الجنات من حضرة الله، دنيا وآخرة، وهذا الفكر يحمل طاقات هائلة، أُعدّ لنصل به إلى موجدنا، لنحقق إنسانيتنا، والغاية التي خلقنا من أجلها كما أشرنا، أما وقد وجهه الناس إلى غير ما أعد له، فإنه أيضاً يبدع في الجهة التي صوب نحوها، ولكن بطريق يؤدي إلى هلاكهم.

---

(١) _ سورة الرحمن الآيات(٣٣-٣٥)

(٢) _ سورة الجن الآية (٨٩)

أما إذا استهانت الناس بالقدرة الإلَهية، فغشَّت نفسها، وحولتها عن مصدر خيرها سبحانه، وظنت أنها ستتصرف هي بالوجود، كيفما تريد وحسبما تشاء، عندئذ حذرنا تعالى بقوله: ﴿**يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ**﴾[١]: بهذه الحضارة الفضائية النووية التي صنعتها الإنس لا نصر فيها، بل خسارة تفوق الوصف لكلا المتصارِعَيْن.

في الآية: ﴿**يُرْسَلُ**...﴾: إمهال وتحذير، ولكنه إمهال غير طويل. وفيهما أيضاً فعل يرسل مبني للمجهول، ومعنى ذلك أنهم بتنفيذهم ذلك، يُرسل عليهما بواسطة أو بأخرى، شواظ من نار ونحاس، قد تكون هذه هي القنابل النووية المحمولة بواسطة المركبات الفضائية والأقمار الاصطناعية، عندئذ فلن تنتصرا بهذه الحضارة، التي سوف يتم القضاء عليها بها قضاءً مبرماً، ولن يكون هناك بهذه الحرب النووية منتصر.

قال تعالى: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ**﴾[٢].

وهذا البلاء الذي سيحصل يوم الساعة الكبرى وعندها سيعلم الكفار أي منقلب سينقلبون، وكيف أن الله تعالى يحذِّر وينذر وينفِّذ، ومن أصدق من الله حديثاً.

* * *

---

(١) _ سورة الرحمن الآية (٣٥)

(٢) _ سورة الملك الآيات (١٦-١٧)

خروج يأجوج ومأجوج

قال تعالى: ﴿**وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ، إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾[1].

إذن حنان الله ورأفته تقتضيان أن يُهلك من لا يرجع إليه من القرى وحرام على قرية أن تبقى في العصر المقبل عصر سيدنا عيسى عليه السلام بل يهلكها تعالى لأنها لا ترجع إليه.

لله جل شأنه في هذا الوجود سنن و قوانين لا تتبدل ولا تتغير، فمن تلك السنن الخاصة في إهلاك القرى.

أولاً: إن الله لا يأخذ القرى إذا أراد هلاكها، وأهلها غافلون.

ثانياً: إن الله حرم على نفسه إهلاك قرية، إلا إذا انقطع الأمل منهم في الرجوع إليه.

ثالثاً: اعتراف أهل القرى الهالكة، بأنهم كانوا ظالمين.

أما بالنسبة لشعوب هذا العصر، فإن استحالة الرجوع إلى الله مقرون بانفتاح يأجوج ومأجوج على الناس، لبث عقيدتهم.

فالله يحجب الفساد على من فيهم الخير، فإذا نضب ذلك منهم، بعث إليهم من يظهر لهم كوامن أنفسهم، حتى لا يكونوا مغشوشين بأنفسهم، أو يظنوا بأنهم ما زالوا على الحق.

لقد أذن الآن ليأجوج ومأجوج، المفسد والفاسد، الآج والمأجوج بنار الترف وزينة الدنيا، أن ينشروا عقائدهم الفاسدة، لنفوس أصبحت مستعدة لتقبل تلك العقائد.

وقد وصف تعالى الكيفية في نشر مبادئهم فقال تعالى:

---

(١) _ سورة الأنبياء الآيات (٩٥-٩٨)

﴿... **وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**﴾ والحدب هو خروج الظهر، ودخول الصدر والبطن، دلالة على الضعف والعجز.

والحدب أيضاً هو ما ارتفع من الشيء كحدب الموج والرمل بسبب ضغط بعضه على بعض، والغليظ المرتفع من الأرض، نتيجة التصدع والضغط.

أما كلمة﴿... **يَنسِلُونَ**﴾: الماضي منها انسلَّ، وتعني انطلق باستخفاء، وبصورة عامة فإن الانسلال، وكل ما هو مشتق من كلمة ينسلون، تعني: السعي إلى ما يريده المرء بذكاء وحذر. ومن تلك المعاني الأخيرة نستنتج بأن (يأجوج ومأجوج) يسعون في نشر دعوتهم بين الناس.

ولكي تسمع دعوتهم، ولتصبح مقبولة بين فقراء الناس، فإنهم يأتونهم من نقاط الضعف في المجتمعات المضطربة، حيث ضغط الأغنياء، وتسلطهم على الفقراء، مبينين لهم بأن شقاءهم وتعاستهم سببه أغنياؤهم، وأن القضاء عليهم يعني القضاء على الظلم الاجتماعي، وبالتالي القضاء على البؤس والفقر والشقاء.

وقد حصل ذلك في منتصف القرن الماضي حينما بدأت الأفكار الشيوعية الإلحادية بالتسلل إلى هذه المجتمعات وبث هذه الأفكار المسمومة، ولولا حصول الحدب أو الوضع غير الصحيح وغير السليم في تلك المجتمعات، لما راجت أفكارهم الإلحادية.

والحدب أيضاً: هو الشيء المتفاوت من ارتفاع وانخفاض، وذلك بتعالي الدول الغنية، على الدول الفقيرة، وبهذا التفاوت وهذا التعالي حصل أيضاً الانشقاق بين الدول، مما أتاح الفرصة ليأجوج ومأجوج وهما الصين وروسيا، أن يستغلا هذا التفاوت، لنشر أفكارهم الهدّامة الإلحادية، كما أن تجار الصين الشيوعية بثوا بضائعهم الرخيصة بين شعوب العالم، بسبب الغلاء الفاحش، مع الفقر المدقع، عندها استطاعوا التدخل بالاقتصاد والتجارة، ويكون لهم بذلك باع ليس بقليل.

هذا وإن كافة الخرائط الجغرافية القديمة السابقة كانت تشير إليهما، وتسمي إقليمي الروس والصين بتسمية يأجوج ومأجوج.

أما وصف أولئك القوم بكلمتي: **(يأجوج ومأجوج)** فلأنهم بدعوتهم تلك، يؤججون الفتنة بين الطبقات الغنية منها والفقيرة، ويشعلون الثورات بين الأمة الواحدة أو بين الأمم، وهذا ما حصل معظمه في منتصف القرن الماضي. لقد بين تعالى بأن يأجوج ومأجوج إذا فتحت على العالم، وأخذت بنشر دعوتها بين الأمم، ثم أصبحت لتلك الدعوة الفعالية والقوة صفة العموم، فإن الوعد الحق بات قريباً، والساعة السابقة له والتي يظهر فيها السيد المسيح عليه السلام، سيد هذا الزمان، ليمسح كل ظلم وجور، غدا وشيكاً، وأما يوم القيامة فإن أبصار أصحاب النظريات اللاإنسانية، التي انتشرت في العالم، شاخصة يوم القيامة من شدة الرعب والهلع يقولون: ﴿.. **يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾[1]: وسوف يكونون هم وآلهتهم من مبدعي هذه النظريات الهدامة، كما قال أصدق القائلين جل جلاله: ﴿.. **حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾[2].

* * *

(١) _ سورة الأنبياء الآية (٩٧)

(٢) _ سورة الأنبياء الآية (٩٨)

خروج دابة الأرض

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ، وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1].

لقد شرط الله جل شأنه في الآية الكريمة، من الآيات الآنفة الذكر، بأنَّ وقوع الهلاك لا يكون إلا بعد ظهور دابة الأرض، وبما أن تلك الدابة قد ظهرت، فإن البلاء أو الساعة أصبح أمراً مبرماً، ولم يبق إلا تنفيذه، أما تحديد وقوع هذه الساعة فهذا لا علم لأحد به، لأن الغيب لله ولا يجليها لوقتها إلا هو، ولأنها لا تأتينا إلا بغتة، ولكن تكامل أشراطها ينذر بحلولها الآن، وفي أي وقت، ونحن يقيناً على أبوابها. أما الآيات التي تسبق هذه الآية، فإنها تبين صفة الذين يقع عليهم القول، فهم الذين أماتت الدنيا قلوبهم، وأصمَّت آذانهم، وطمست على أبصارهم.

أولئك ما كان لأحد في العالمين القدرة على هدايتهم، لأنهم أعرضوا عن الحق، وولوا وجوههم شطر الباطل، وما كان الله ليهديهم، بسبب استسلامهم لشهواتهم، التي أصبحت لهم آلهة تسيّرهم. أما الذين يسمعون الحق، فأولئك الذين يؤمنون بآيات الله وله لا إلى شهواتهم مسلمون.

وبما أن الناس عموماً في هذا العصر، قد أسلموا لشهواتهم العنان، وأقبلوا على الدنيا بكليتهم، ودخلوا إليها من أوسع أبوابها، لذا فإن إمكانية التوبة باتت شبه مستحيلة، ونتيجة لذلك فقد حق القول على أكثرنا، بأننا مهلكون، وما الأعاصير المهلكة، والزلازل المتتابعة، وأمراض البقر والطيور الفتاكة، والفيضانات والقحط

---

(١) _ سورة النمل الآية (٨٠-٨٢)

والجراد، إلاَّ ابتلاءات الهلاك الشمولي القادم الآن إلينا، وهذه الابتلاءات الرهيبة المتتالية، لم يسبق لها مثيل من ألوف السنين، ومئات الأجيال.

إن الهلاك أصبح لمن هذه صفته رحمة، لأن وجوده في الدنيا، بات له ولغيره ضرراً، ولذا ومن رحمة الله بهم، من أن يزدادوا إثماً، وبالتالي سعيراً، فإن الله يأخذهم، أخذاً شديداً ومباغتاً.

إن الله لم يشر في الآية الكريمة السابقة، بأنه سوف يخلق لهم دابة، بل قال تعالى: ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ...**﴾[1]: كما أنه جل شأنه لم يشر أن الغرض من إخراجها، أن تكون للناس معجزة، بل منع بآية صريحة إرسال المعجزات في زمن سيدنا محمّدٍ ﷺ، لعدم جدواها كما أشرنا سابقاً.

قال تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾[2].

هذا وليس من المصادفة في شيء، أن يخص في هذه الآية الكريمة **(الناقة)** كمعجزة من بين تلك المعجزات الكثيرة التي أرسلها الله تعالى على رسله الكرام قبل سيدنا محمد ﷺ، وإنما ذكْره لتلك المعجزة بالذات، لها دلالتها ولها ما يبررها، وهذا يعني أن لا يتوهم الناس أو يظنوا بأن الدابة التي سيخرجها للناس، هي من جنس حيواني، أو أن يكون الغرض من إخراجها آية أو معجزة.

بل له من إخراجها غاية أخرى، لا تمت إلى المعجزة في شيء، وكذلك فإن إخراج الدابة ليس له صفة المعجزات. ليس من المنطق في شيء أن يكرر سبحانه معجزة مشابهة لمعجزة سابقة كذَّب بها الناس.

---

(١) _ سورة النمل الآية (٨٢)

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٥٩)

إن معنى الدابة في اللغة، هو كل شيء يدب على الأرض، وغلب على ما يُركب ومن هذا المعنى جاءت لفظة دبابة، وهي آلية القتال، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تدب على الأرض، ولذا فإن معنى الدابة لا يقتصر على الحيوان فحسب، بل يشمل ما يدب على الأرض من الجماد أيضاً.

ولغة: كل ما دب على الأرض فهو دابة.

لقد ذكر لنا تعالى عن ناقة سيدنا صالح عليه السلام بأنها ناقة الله وسقياها، وتلك الناقة هي من لحم ودم وروح، بينما لم يشر إلى هذه الدابة التي سيخرجها من الأرض بأنها تتمتع بصفة الحياة، ما عدا لفظة تكلمهم. ومسألة الكلام فقد أصبحت الآلة تشاركنا به، بالمسجلات والمذياع والتلفاز وغيرها.

أما حدثنا صلوات الله عليه عن السيارة يصفها: **(سيكون بعدي سلطان الفتن على أبوابهم كمبارك الإبل لا يعطون أحداً شيئاً إلا أخذ من دينه مثله)** (١). الإبل تستخدم للنقل والترحال والسيارة كذلك وتقف أمام بيت صاحبها كما تبرك الإبل وتلزم موضعها.

كما أنه ﷺ وصفها بدقة أكثر قال ﷺ: **(تبعث نار على أهل المشرق فتحشرهم إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، يكون لها ما سقط منهم وتخلف تسوقهم سوق الجمل الكسير)**(٢). أي أن السيارة صناعة الغرب وبها نقلوا ثقافتهم وحضارتهم ووسائلها إلى العالم، فتوجه أهل المشرق إليهم يعبُّون من معينها الآسن، وأما أنه ﷺ سمّاها ناراً كناية عن محركها الانفجاري والنار هنا: نار المحرك الانفجاري للبنزين بالمكابس (البسطونات) والحقيقة أعظم والحديث: **(نار تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا)** حيث ينام صاحب السيارة ويبيت سواءً ليلاً أو نهاراً، تكون معهم أمام البيت أو الفندق، وهذا هو وصفها من الداخل إذ وصفها لصحبه الكرام من الخارج من أن متابعها لا يدركها وهي تدركه، وهذه من نبوءات الأنبياء التي لا

(١) _ رواه الطبراني.

(٢) _ أخرجه الدارقطني في الأفراد والطبراني والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو.

تخطئ. **(يكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياثر** (السيارات) **حتى يأتوا أبواب المساجد نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف فالعنوهن فإنهن ملعونات)** [1]: فالعنوهن: واللعن هو البعد، أي ابتعدوا عنهن لأنهن ملعونات: أي بعيدات عن الله.

كما أنه ﷺ حدث عن الطائرات إذ يقول: **(لتقصدنكم نار هي اليوم خامدة، تغشى الناس، فيها عذاب أليم، تأكل الأنفس والأموال تدور الدنيا كلها في ثمانية أيام، تطير طير الريح والسحاب، حرّها بالليل أشد من حرّها بالنهار، ولها ما بين السماء والأرض دوي كدوي الرعد القاصف، هي من رؤوس الخلائق أدنى من العرش)** [2].

(تغشى الناس، فيها عذاب أليم، تأكل الأنفس والأموال) لا يخفى ما للقوة العسكرية الجوية من قوة تدميرية شاملة. **(حرّها بالليل أشد من حرّها بالنهار)** لأن الليل مظلم ساتر لها عن الإصابة بالمدفعية المضادة للطائرات سابقاً وتنجح المفاجأة بالقصف للمدن والمواقع العسكرية ليلاً وكناية عمّا ركّب فيها من أجهزة تكييف وتعديل لدرجات الحرارة **(تطير طير الريح والسحاب، حرّها بالليل أشد من حرّها بالنهار، ولها ما بين السماء والأرض دوي كدوي الرعد القاصف، هي من رؤوس الخلائق أدنى من العرش)** يشير ﷺ إلى ضعف إيمان الناس اليوم، إذ يظنون أن بها حول وقوة ولها فعل، وينسون أن الحول والقوة بيد الله تعالى صاحب التجلي العظيم.

ولا يُعلم إلى الآن أن شيئاً أخرج من الأرض، وأصبح يدب على الأرض إلا السيارات والدبابات وما شابه ذلك، من القطارات وغيرها. ومادة هذه الآليات قد استخرجت من الأرض، أي من المناجم الحديدية، لذلك أصبحت هذه الدابة تكلم الناس بما ركب عليها من أجهزة لا سلكية أو مذياع (راديو) أو غير ذلك. وقد قيل بأنها

(١) _ أحمد والحاكم.

(٢) _ كنز العمال ج١٤ رقم/٣٨٨٨٦/.

تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه، وتستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه، وكذلك الشمال والجنوب.

وهذا القول صحيح، لأن هذه الأجهزة ينفذ صوتها من جميع أقطار الأرض. وهذه الدابة ركب عليها حمار الدجال الذي يُقال بأنه المذياع.

فالمذياع المحمول منه أو الثابت، أصبح ينقل إلى الناس أقوال الدجالين، وهذه الإذاعات باستطاعتها أن تقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، لما لها من قدرة الإسماع، إذ معظم أقوالها تدجيل بتدجيل، ليس فيه من الحق إلا القليل.

(إن أُذُن حمار الدجال لتُظِلُّ سبعين ألفاً) (١).

وقوله ﷺ: **(إن طول ذيل حمار الدجال بين(٤٠ –٧٠)ذراعاً، وأن الشعْرة فيه تغنّي).**

(أي إبرة المذياع أو المؤشر لنقل صوت الإذاعات) وقوله الشريف: **(وأن الشعرة فيه تغني)** أي كلما حَرّكت المؤشر أي الإبرة مقدار شعرة تنقل صوت إذاعة أخرى، كما أن قوله ﷺ أنه: **(ما دخل بيتاً إلاّ أفسده)** (أي خرب نفوس مستمعيه لما فيه من أغانٍ رخيصة جنسية لا أخلاقية)، **(وما دخل حانوتاً إلاّ خربه)** (أي خرَّب قلب صاحبه، الذي غدا يهوى اللهو والمجون، وتحقيق مآربه وأهوائه، بكسبه الزائد عن الحدّ الإنساني)، على كلٍّ، فهذه الأمور غدت أموراً تاريخية بحتة غير مهمة، إذ تلاها أرقى منها، كالتلفاز البصري و(الستالايت) والفيديو والكومبيوتر والإنترنت.

لا تقوم الساعة حتى: **(يُكلِّمَ الرَّجلُ عذَبَةُ سوطِهِ وشِراكَ نعلِهِ وتخبرُهُ فخذُهُ بما أحدثَ أهلهُ بعدهُ)** (٢). وعذبة السوط هو اللاسلكي كالذي يحمله رجال الأمن من شرطة المرور.

---

(١) _ أخرجه ابن أبي شيبة: أي صوت المذياع يصل ويغطي سبعين ألفاً من باب الكثرة وقدرته على إسماع الكثير من الناس.

(٢) _ سنن الترمذي ج٣ رقم/١٧.

الهاتف السلكي، تُمسك السماعة والسلك يبقى متدلياً. **(وشراك النعل):** أي أن الهاتف يشترك والنعل (الحذاء) بالصفة الظاهرية والشكل حتى واللون، وقد وصف ﷺ الهاتف بشراك النعل كناية عن الهاتف إذ أنه يشبه النعل تماماً أي: الحذاء المقلوب **(وتخبره فخذه بما أحدثَ أهله من بعده)** إشارة للموبايل وبيوتها الجلدية التي تعلق في أعلى الفخذ على الحزام أو في جيب البنطلون. كما أنها تشير إلى أجهزة التجسس التي قد يضعها البعض على بيته أو مكان عمله. والتي تُربط بشكل أو بآخر مع الهواتف اللاسلكية.

والحقيقة لما بدأت هذه الدابة في بداية القرن الماضي، كان الناس عن سماع الحق في صمم، ذلك بما أحدثته هذه الثورة الصناعية من الفتن، وجعلتهم يكفرون بآيات الله، ويؤمنون بآلهة العلم والتكنولوجيا، وولوا وجوههم شطر شمس الغرب، فهذا بحث تاريخي ليس إلاَّ، وإن كان لا يزال مستمراً، فهو شاهد صدْق على أشراط الساعة التي يأتي بها سيدنا عيسى المسيح عليه السلام أثناء أو إثر الحرب العالمية المطهرة مباشرة: ﴿.. **وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ**...﴾: الآية هذه، وعد من الله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام، بأنه عندها يطهِّره من الكفار المصرّين على الكفر، ورافع شأنه على العالمين، وشأن أتباعه إثر ظهوره، وإلى يوم القيامة: ﴿.. **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**..﴾(١): أي إثر ظهوره المرتقب الآن، وقد تمَّت أشراط ظهوره عليه السلام.

* * *

(١) _ سورة آل عمران الآية (٥٥)

زخرفة الأرض

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(١).

إن الأرض أخذت زخرفها، فقد ازيَّنت القرى والمدن بالأضواء الكهربائية الملونة. وتزينت الأرض في البناء الشامخ المزخرف، والمفروشات الوثيرة، وأقيمت الشوارع وعلى حافتيها المتاجر والمعارض المزينة بالزخارف (الديكورات)، ثم خرجت النساء بأجمل زينة وأعظم فتنة، وطلَّقت الآداب الدينية والحياء والحشمة بالثلاث. وراحت تحاكي الرجال في اللباس، كما أخذت الرجال تحاكي النساء أيضاً، بتطويل الشعور وإرخاء السوالف، واللباس الملون. وقد بين الرسول الكريم ﷺ أن من علامات الساعة أن تخرج النساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، (وموضة قصّة الشعر هي ما يدعونه بالسّد العالي) فالعنوهن، لأنهن ملعونات، ومن علاماتها أيضاً أنه قال ﷺ:

(تتشبه النساء بالرجال والرجال بالنساء) (٢).

وقال أيضاً:**(أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)**(٣)

ولم يقتصر الزخرف على أماكن اللهو والبيع، بل إلى المعابد أيضاً، فجعلت عملياً كالمتاحف، يزورها المؤمن بالدين والكافر به (كمتحف أثري) بدل تخصيصها للعبادة، ولأمور صالح المسلمين. وتلك أيضاً من علامات الساعة.

---

(١) _ سورة يونس الآية (٢٤)

(٢) _ أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٣) _ أخرجه النسائي رقم/٤٩٨٨/.

لقد بلغت شمس الحضارة بدءاً من القرن الماضي وإلى الآن، كبد السماء المادي، وتقدم العلم لاسيما التكنيك منه، تقدماً هائلاً، فخرجت الدنيا في أجمل وأبهى حلة، فأنَّى لهم الإيمان وكيف؟ وهم الذين يحلمون بأن يسيطروا على الطبيعة، بعد أن ظنوا أنهم سيطروا على الأرض: ﴿.. **وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ**...﴾فإذا بلغت البشرية هذا الحد، فإن الله من بعد ذلك يقول: ﴿.. **أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا**...﴾: أي ينزل البلاء العمومي ليلاً على بلاد الشرق، ونهاراً على بلاد الغرب، في النصف الثاني من الكرة الأرضية.

هذا وقد فصل الله تعالى في سورة الزخرف، كيفية تسخير ما في الأرض لهم إذا أصبحت الناس أمة واحدة، قِبلتُهم الدنيا وزخرفها، وليس أمة واحدة قِبْلتُهم الآخرة ونعيمها، وبالتالي تتبعهم الدنيا صاغرة بإذنه تعالى، وكما ورد في الآيات التالية: ﴿**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ، وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1].

فقوله تعالى بالآية: ﴿.. **لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ**...﴾: مما نراه الآن من ديكورات السقوف الاصطناعية الرائعة، ذات الألوان الفضيّة الخلاَّبة: ﴿.. **وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ**﴾: "المعارج هي المصاعد بالأبنية، ويطلق عليها لفظ مصاعد أو معارج لغةً": ﴿.. **عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ**﴾: أي يصعدون: ﴿**وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا**..﴾: البيوت لغةً: الغرف. والمنازل: الدور، فالغرف بالبيوت العربية ذات باب واحد، أما في الأبنية، فللغرفة عدة أبواب مثلاً: باب للبلكون، وباب لغرفة الاستقبال، وباب للمطبخ، وما إلى ذلك: ﴿.. **وَسُرُرًا**...﴾: أي الأسِرَّة الفخمة الفاخرة، في الموبيليا العصرية الحديثة: ﴿..

(١) _ سورة الزخرف الآيات (٣٣-٣٥)

وَزُخْرُفًا...﴾: ديكورات وما أدراك بروعتها وتكاليفها لحياة فانية، أنست البشرية الحياة الراقية الأبدية في الجنات.

لقد أرسل الله إلى العالم عدداً من الإنذارات، وألواناً من العذاب، كالحروب وما إليها كما ألمحنا سابقاً، ولكنهم نسوا ذلك، وأقبلوا على الدنيا بكل ما لديهم من طاقات.

قال ﷺ: **(اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً، ولا يزدادون من الله إلا بعداً)** [1]. ولما نسوا ما ذكِّروا به، فتح الله عليهم كنوز الأرض، فلا بد بعد ذلك من أن يأخذهم بغتة، وهم مبلسون.

إذن: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ...**﴾: والآن هكذا حال الدنيا، وهذا مثال عن الساعة التي ستقع غداً: ﴿**.. مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا..**﴾: طيارات، سيارات، أبنية، قصور، هواتف... كل شيء على أتمه: الدنيا كاملة ﴿**... وَازَّيَّنَتْ..**﴾: بأنوار الكهرباء... ﴿**.. وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ...**﴾: ظنوا أنهم بعملهم سيطروا على الطبيعة فأشاحوا عن مالك الملك: ﴿**.. أَتَاهَا أَمْرُنَا..**﴾: بالهلاك: ﴿**.. لَيْلاً أَوْ نَهَارًا...**﴾: ليلاً على الشرق ونهاراً على الغرب. ﴿**... فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ...**﴾: كأنها ما كانت.

﴿**...كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾: ولا يفيد شيئاً من هذا من لا يفكر، إن لم يفكر فلا خير فيه: ﴿**وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ...**﴾: دار الأمان والراحة: ﴿**.. وَيَهْدِي مَن يَشَاء ..**﴾: كل من شاء الهداية إليه: ﴿**.. إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[2]: والدعوة عامة: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**﴾[3]: ماذا ترد عن نفسك؟ ما يأتيك من البلاء في ساعته؟ ماذا حضَّرت له؟ أترجو خيراً يومها؟ هل تؤمن كما آمن

(١) _ أخرجه الحاكم، عن ابن مسعود.

(٢) _ سورة يونس الآيات(٢٤-٢٥)

(٣) _ سورة يونس الآية (٥٠)

فرعون؟! ماذا تفيد الإنسان رجعته عند الهلاك؟! أرسلك لتعمل العمل الطيب وعند البلاء لا يبقى لك عمل. أعطاك الله أهلية عالية وضيّعت، فكِّر بهذا الكون وما فيه من آيات عظيمة، لم هذه الدقة وهذا الترتيب؟ وهذه التحذيرات والإنذارات كلها لأجلك لكي تفكر.

* * *

ظهور الدخان

قال تعالى: ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ، إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ**﴾[١].

تبين لنا هذه الآيات الكريمة، أن الدخان الذي يغشى الناس، فيه عذاب أليم، هو من غير شك دخان القنابل، ودخان الغازات السامة، ثم دخان حرائق الغابات الكبيرة، ودخان الحرائق التي تحدثها الانفجارات، على منطقة معينة محدودة، من كثرة الحروب، والغازات المتصاعدة من المعامل والسيارات، في كل أنحاء المعمورة، حتى أن قادة العالم الكبار اجتمعوا لأكثر من مرة لإيجاد حلول لهذه المشكلة الكبيرة، ووقَّعوا على اتفاقيات، ومنهم من لم يوقع، وكلما اجتمعوا على حل هذه المعضلة، يخرجون مختلفين، ومن آثارها السلبية على صحة الإنسان والحيوان والنبات أيضاً آثاراً سيئة على الجو وارتفاع الحرارة (كتلوُّث البيئة والاحتباس الحراري) حتى بدأت الثلوج في القطبين بالذوبان، وبهذه التغيرات المناخية المفاجئة، نتيجة هذا الدخان أصيب الناس بكثير من الأمراض الحساسة، وخاصة الأمراض الصدرية، والجهاز التنفسي والأمراض الجلدية. وظهور الدخان أيضاً في الأماكن الساخنة بالحروب والفتن من جراء القنابل والمتفجرات، يجعل الناس يستغيثون بربهم، ليكشف عنهم البلاء. إذ من بعد ظهور الدخان فإن العذاب سينكشف قليلاً، لأن هذه المنطقة التي غشاها الدخان قد تضرع سكانها إلى الله، وتعهدوا أن يؤمنوا به، بعد أن يكشف عنهم العذاب. ولكن ادعاءهم هذا لا يلبث طويلاً، وأنهم سوف يعودون إلى ما كانوا عليه. وعندئذ سوف يكون انتهاؤهم مع من ينتهون يوم يبطش بطشة الساعة، قال

---

(١) _ سورة الدخان الآيات (١٠-١٦)

تعالى: ﴿**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ**﴾[1]: وتلك الأشراط قد ظهرت جميعها.

وإلى جانب هذه الأشراط الكبرى، توجد أشراط ثانوية نذكر منها:

(لا تقوم الساعة حتى يُجعل كتابُ الله عاراً "إذا طبقه المؤمن فيعيرونه وخاصة الاختلاط على كافة الأوجه". **ويكون الإسلام غريباً، حتى تبدو الشحناء بين الناس، وحتى يُقبض العلم** " العلم: المقصود به هنا العلم بأسماء الله الحسنى" **ويؤتمن التهماء، ويتَّهم الأمناء، ويُصدَّق الكاذب، ويكذّب الصادق، وحتى تبنى الغرف فتتطاول، ويظهر البغي والحسد والشح، ويتبع الهوى، ويقضى بالظن، ويغيض العلم غيضاً، ويفيض الجهل فيضاً، ويكون الولد غيظاً، والشتاء قيظاً، ويقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقي لشرار أمتي، ويقل الصدق.)** [2].

(يأتي على الناس زمان لا يتبع فيه العالِم، ولا يستحيا فيه من الحليم، ولا يوقر فيه الكبير، ولا يرحم فيه الصغير، يقتل بعضهم بعضاً على الدنيا، قلوبهم قلوب الأعاجم، وألسنتهم ألسنة العرب، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، يمسي الصالح فيه مستخفياً [3] **أولئك شرار خلق الله، لا ينظر الله إليهم يوم القيامة)** [4].

من علامات اقتراب الساعة: **(أن يصلي خمسون نفساً، لا تقبل لأحد منهم صلاة[5])**[6].

---

(١) _ سورة الدخان الآية (١٦)

(٢) _ كنز العمال رقم / ٣٨٥٧٧/..

(٣) _ استخفاء المؤمن: ناتج عن تجنبه الاختلاط في مجتمع شبه عار لكيلا يؤذى من رائحة الفاحشة، فيتجنب مجتمعاً عار عن الفضائل والخير مصر على الرذيلة إصراراً.

(٤) _ كنز العمال رقم/٣١١٨٧/.

(٥) _ لأن الصلاة في حقيقتها صلة بين العبد وربه، ولكن صلة نفوس هؤلاء المصلين محصورة في الدنيا، يقفون بالصلاة ساهية قلوبهم لاهية أفكارهم متجهة إلى أهلهم وأعمالهم، محجوبة عن ربهم بأعمالهم السيئة.

(٦) _ الجامع الصغير رقم/٢٤٨١/.

فصلاتهم ظاهرية لا قلبية كأنه أمر تعبدي قسري فهم لا يشعرون بلذَّتها.

في آخر الزمان: **(ما يبقى من القرآن إلا رسمه ولا من الإسلام إلا اسمه)**[1]، **(تكون المشورة للإماء ويخطب على المنابر الصبيان وتكون المخاطبة للنساء، فعند ذلك تزخرف المساجد، كما تزخرف الكنائس والبيع، وتطول المنابر وتكثر الصفوف، مع قلوب متباغضة وألسن مختلفة وأهواء جمة، يكون المؤمن فيهم أذل من الأمة يذوب قلبه في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره، ويكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية البكر)** [2].

أما صدق رسول الله ﷺ في كل هذا، أما كان قوله هو الفصل وليس بالهزل!

(من اقتراب الساعة إذا رأيتم الناس أضاعوا الصلاة وأضاعوا الأمانة، واستحلوا الكبائر، وأكلوا الربا، وأكلوا الرّشا، وشيدوا البناء، وباعوا الدين بالدنيا، واتخذوا القرآن مزامير، وقلت العلماء، وكثر القراء، واتخذوا القيِّنات، واستحلت المعازيف، وشربت الخمور، وعطلت الحدود، وشاركت المرأة زوجها في التجارة، وتشبهت النساء بالرجال، والرجال بالنساء (أي: بكثير من الأعمال واللباس) **ويحلف بغير الله** (ويحلف الناس بعقائدهم المادية ومشتهياتهم)، **وكانت الزكاة مغرماً، والأمانة مغنماً، وأطاع الرجل امرأته، وعقَّ أمه، وقرّب صديقه، وأقصى أباه، وضيّعتم حق الله في أموالكم، وطُفِّفَ المكاييل، وسبَّ آخرُ هذه الأمة أولها)** [3]: وهذا ما نلحظه اليوم بشكل علني. ومن علاماتها كثرة الحروب الحاصلة في هذا الزمان والفتن، كثُر القتل وإراقة الدماء. وقد أشار الرسول ﷺ: **(والذي نفسي**

---

(١) _ كنز العمال ج١١ رقم/٣١١٣٥/.

(٢) _ أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) _ رواه الديلمي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه.

بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما قَتَلَ ولا المقتول فيما قُتل)[١] أي يُزجُّون في القتال زجّاً، أو إشارة للمرتزقة في الجيوش.

ومن أشراط الساعة أن:

(يظهر الفحش والتفحش وسوء الخلق وسوء الجوار) [٢]: واليوم الكل يشكون من الأخلاق السيئة ومن سوء الجوار.

وقال ﷺ: **(في آخر الزمان إذا لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله، فإذا كان كذلك حلت العُزبة، يكون في ذلك الزمان هلاك الرجل على يد أبويه، إذا كان له أبوان وإلا فعلى يد زوجته وولده، وإلا فعلى يدي الأقارب والجيران. يعيرونه بضيق المعيشة ويكلِّفونه ما لا يطيق، حتى يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها)** [٣].

(يكون في آخر الزمان عباد جهال وقرَّاء فسقة) [٤].

(لا تقوم الساعة حتى يقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقي لشرار أمتي فمن صدقهم بذلك ورضي به لم يرح رائحة الجنة) [٥].

وهذا ما يقوله بعض الخطباء للناس أن رسول الله ﷺ سيشفع للعصاة منهم يوم القيامة **(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)**. يمنونهم بهذه الأماني الكاذبة. وقال ﷺ:

(إن بين يدي الساعة فشُوَّ التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وفشُوَّ القلم، وظهور الشهادة بالزور، وكتمان شهادة الحق)[٦].

---

(١) _ صحيح مسلم رقم/٢٠١٠.

(٢) _ أخرجه ابن أبي شيبة.

(٣) _ كنز العمال/١١/١٥٤.

(٤) _ أبو نعيم/٢٢٢/١٤م.

(٥) _ أخرجه البخاري.

(٦) _ أخرجه البخاري ومسلم.

وكذلك قال ﷺ: **(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة** "الحرب العالمية الثالثة بين الشرق والغرب" **وحتى يقبض العلم** "العلم بلا إلّه إلا الله وبأسمائه تعالى الحسنى..

"**وتكثر الزلازل**" وها نحن اليوم نرى ونسمع عن هذه الزلازل في كل الدول، ما ظهر معشارها بالأجيال البشرية السابقة". **ويتقارب الزمان** " تقارب الزمان يتم بواسطة السيارة والطائرة" **وتظهر الفتن ويكثر الهرج** "القتل" **وحتى يكثر فيكم المال** "من ثروات باطنية كالبترول والمعادن الثمينة وغيرها"... **وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه** "لهول الأحداث والضيق العام بزلازل الساعة" **وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون** "بوجهتهم نحو شمس الحضارة الغربية" وذلك حين ﴿... **لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**...﴾[1]. "وذلك حين وقوع ساعة البلاء "**ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته** " الناقة الحلوب" **فلا يَطعمه)** [2]، وكلها تدل أن قيام الساعة بغتة وهم مبلسون.

قال ﷺ: **(ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير** "والمقصود بالحِرَ: الفَرْجْ، وهو دلالة على تفشي الزنا بدون حرج". **والخمر والمعازف)**[3]: استحلال الأغاني والمعازف.

قال ﷺ: (... **وأن تتخذ المساجد طرقاً، وأن يظهر موت الفجأة)** [4]، أي يمر الرجل في المسجد مروراً لا يصلي فيه.

---

(١) _ سورة الأنعام الآية (١٥٨)

(٢) _ أخرجه البخاري رقم/٥٢٦٨/.

(٣) _ رواه الطبراني.

(٤) _ الطبراني في الأوسط عن أنس.

(يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) [١].

أما وصية الرسول ﷺ لمن شاء أن ينجو في دينه فهي:

(كيف بك إذا بقيت بين حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا، كانوا هكذا؟ "وشبك بين أصابعه" قال: فبمَ تأمرني؟ قال: إلزم بيتك، وأمسك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة) [٢].

لقد جاء ذكر للساعة في الإنجيل أيضاً، وهذا أمر بديهي أن يذكر السيد المسيح أشراط الساعة، لأنه هو المعني بالأمر، وهو المأمور بإعلاء كلمة الله في الأرض لهذه الفترة، وإلى يوم القيامة، بإمداد من الله تعالى. وقد فهمت النصارى كما فهم المسلمون خطأً بأن الساعة التي يأتي بها هي ساعة يوم القيامة.

والسؤال هنا ما الفائدة من مجيء الرسول عند يوم القيامة؟! أما انتهت فترة الامتحان؟ أما ينتظر الناس ليؤتى كل إنسان كتابه. إما بيمينه وإما بشماله؟ وما فائدة النصح، وهل تنفع الموعظة عندئذ؟ أما كشف الغطاء وأصبح البصر يومئذ حديد؟!

لقد سئل السيد المسيح من قبل تلاميذه عندما كان جالساً على جبل الزيتون عن علامة مجيئه وانقضاء الدهر، جملة انقضاء الدهر لا تعني يوم القيامة[٣]، فأجابهم عن الأشراط التي تسبق الساعة، ثم وصف لهم الساعة وهولها فقال:

(فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس، ليفهم القارئ، حينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال، والذي على

---

(١) _ أخرجه البخاري.

(٢) _ رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) _ المقصود بانقضاء الدهر: الفترة بين زمنه ذاك وذهابه وأمه لربوة ذات قرار ومعين وعودته ثانية لمسح الشرور من على وجه البسيطة.

السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئاً، والذي في الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه، وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام...) [1].

أما قوله والذي على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئاً والذي... كناية عن المباغتة والذهول الذي يصيب الناس حين وقوعها. وهذا القول الذي ورد في الإنجيل يوافق معنى الآية: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

وأما قوله: **(وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام)**: وهذا أيضاً يوافق معنى الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[3].

وجاء في الإصحاح رقم/٢١/ قوله:

(لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم ولم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون).

والآية الكريمة التي تؤيد هذا القول: ﴿**بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**﴾[4].

إن القول الذي ذكرناه آنفاً على لسان السيد المسيح لا يعني به يوم القيامة، وإنما يشير إلى الساعة، والبلاء الذي تم التحدث عنه في كتابنا هذا عمَّا يسبق ظهوره عليه السلام من تطهير الأرض من الفساد والمفسدين.

---

(١) _ الإصحاح الرابع والعشرون انجيل متى.

()٢ _ سورة الأعراف الآية (١٨٧)

(٣) _ سورة الحج الآية (١٢)

(٤) _ سورة القمر الآية (٤٦)

ويبيّن ذلك قول السيد المسيح نفسه:

(لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع كذلك يكون مجيء ابن الإنسان "أي هو نفسه ابن سيدنا آدم عليهما السلام" **حينئذ يكون اثنان في الحقل يؤخذ الواحد ويترك الآخر، اثنتان تطحنان على الرحى تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى)**. فإذا كان الحديث عن يوم القيامة فإن الله يأخذ الجميع فلا يأخذ الواحد ويترك الآخر أو يأخذ الواحدة ويترك الأخرى. ومن قول السيد المسيح عليه السلام هذا نستنتج استنتاجين:

الاستنتاج الأول: لقد شبه السيد المسيح عليه السلام الساعة بالطوفان.

ففي الطوفان الذي عمّ قوم سيدنا نوح عليه السلام وكانوا هم كافة البشر على وجه البسيطة، لم ينج منه إلا أصحاب السفينة.

كذلك فإن هذا البلاء المنتظر لا ينجو منه إلا كل مؤمن، فلنكن منهم، بسلوك طريق الإيمان، تكتب لنا النجاة، إلى عصر السعادة والسلام، وطوبى لمولود هذا الزمان.

الاستنتاج الثاني: إن هذا الكلام ينفي القول القائل: **(الرحمة مخصصة والبلاء يعم)** وبمعنى آخر أن الله لا يأخذ الصالح بسيئات الطالح. وقد ذكر هذا الاستنتاج سابقاً، وذلك بسبب تفشي هذا القول وتقبله على كافة المستويات وحتى الدينية منها. فالقرآن الكريم يبين أن ما يصيب الإنسان هو جرَّاء ما قدَّمت يداه، وغير ذلك كلها ظنون سيئة بالله تعالى، نسفها القرآن الكريم نسفاً: ﴿.. **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[1].

* * *

(١) _ سورة فصلت الآية (٤٦)

الفصل الرابع

في هذا الفصل:

- **عودة السيد المسيح ﵇ ودلائل عودته من القرآن الكريم.**
- **ما هي النفس؟ وأين مركز وجودها؟ وما هي وظيفتها؟**
- **ما هي الروح؟**
- **نظام خروج الإنسان إلى هذا العالم.**
- **الدليل الأول على عودة السيد المسيح ﵇.**
- **معنى التوفي.**
- **ما هو السبب في توفي سيدنا عيسى ﵇ نوماً؟!**
- **الدليل الثاني على عودة السيد المسيح ﵇.**
- **وجاهة السيد المسيح ﵇.**
- **الدليل الثالث على عودة السيد المسيح ﵇.**
- **انتهاء جولات الباطل.**
- **طوبى لمولود هذا الزمان**

* * *

قبل قيام الساعة أو أي بلاء آخر، فإن الله يرسل إلى الناس إنذارات وتحذيرات، لعلَّهم يتنبهون من غفلتهم، ويصحون من سكرتهم، ثم يتداركون أمرهم من قبل أن يحل بساحتهم العذاب، وقبل أن يقولوا ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل.

ولا تقتصر تلك التحذيرات على لسان الرسل فحسب، بل التنظيم الكوني الصارم بدقته، الهادف في غايته، يحذرك أيضاً من أن هذه الحياة ما لها من قرار. فالمراحل التي يمر بها الإنسان أو الحيوان، من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف وشيبة، والنبات حينما يخرج غضاً، ثم يستغلظ ويستوي على سوقه، ثم يصبح هشيماً تذروه الرياح، إن هي إلا آيات محذرات مبينات للإنسان، بألا يطمئن ويركن إلى الحياة الدنيا، بل تطلب إليه بما تقدمه من المواعظ، أن يشمر عن ساعد الجد، ويسعى لما هو مخلوق له، لأن الأمر جد، وما هو بالهزل.

وما أشراط الساعة التي ذكرها الرسول الكريم ﷺ، وظهرت الآن، إلا آيات مبينات لأولي الألباب، الذين يبحثون عن لب الأمور، ويذرون القشور، بأن هذه الحضارة التي بنوها وارتضوا بها، سوف يأتي الله بنيانها من القواعد، فيخر عليهم السقف. ذلك بأن الله لا يأخذ القرى وأهلها غافلون، أما إذا أخذها وهي ظالمة بعد أن حذرها وذكّرها وأنذرها وبعث تعالى عليها من البلاء ألواناً، فإن أخذه أليم شديد.

هذا ويجب أن لا تخدعنا الأقوال بأن الدول التي تملك أسلحة الدمار لا يمكن أن تستعملها، لأن في استعمالها حتفها، وهل يسعى الإنسان إلى حفر قبره بيده مثلاً؟!

تلك أقوالهم، أما قول رب العالمين وقوانينه، فلا تقاس بتلك العواطف، ولا بتلك الأهواء، لأن لرب العالمين غاية سامية من وجودنا، أما إذا انحرفنا عن تلك

الغاية، التي هي الحياة الطيبة بأسمى معانيها، فإن الهلاك يصبح محققاً، وذلك لكيلا تزداد شرورنا، فيزداد ألمنا وحسرتنا يوم الدين.

فلو كانت الحياة طيبة في ظل هذه الحضارة، لما شاهدنا التبرم والضجر والألم والانتحار والحروب والبلاءات الكبرى والأمراض المرعبة، من هذا النهج الذي ارتضته البشرية لنفسها. إن الله أعلم بمن خلق، وأعلم بما يسعد أنفسهم، أوليس الذي أبدع السماوات والأرض، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، بقادر أن يضع سنناً تكفل لنا سعادة الدارين؟ بلى، وهو أهون عليه، لأنه هو أعلم بمن خلق، وأعلم بما يسعد أنفسهم ويشقيها، ولكن خروج الناس، عما أنزل من الشرائع الكفيلة بسعادتها ومنحها حياة طيبة، هو الذي سبب لهم النكبات، وسبب لهم الألم والشقاء، إذن فالذنب ليس ذنب الدين الإلّهي، ولكن الذنب ذنب الخارجين عن سننه المنزلة إلينا، من أجل ذلك، يبعث الله تعالى إليهم رسولاً من أنفسهم، يتلو عليهم آياته وشرائعه، ويأمرهم أن يطيعوا الله ورسوله بتطبيق تلك الشرائع، ويحذرهم ويعظهم من الهلاك، إذا انحرفوا عنها واستبدلوها بشرائع من وحي أهوائهم.

قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾[١].

والسيد المسيح[٢] عليه السلام هو رسول هذا العصر، وهو الذي أرجأه تعالى لهذه الساعة.

ولا بدَّ لنا قبل البدء بقصة سيدنا عيسى عليه السلام من أن نقدِّم الكلمة التالية فنقول: خلق الله الإنسان مركباً من عناصر ثلاثة: جسد ونفس وروح.

---

(١) _ سورة القصص الآية (٥٩)

(٢) _ لكل رسول من الرسل الكرام أكثر من اسم، وكل اسم من أسمائهم يشير إلى معنى، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مثلاً له أسماء عدة منها أحمد لأنه أحمد الخلق لله، وسيدنا نوح عليه السلام سمي بذلك لكثرة الحزن والنواح على قومه، وكذلك اسم المسيح إنما يعني بأنه سيمسح الكفر من على وجه البسيطة بإذن الله. ولا تبقى إلا فئة جد ضئيلة وهؤلاء لن تقوم لهم قائمة أو دولة إلى يوم الدين كما سنأتي على شرحه مفصلاً لاحقاً.

فالجسد: هو هذا الجسم المادي المؤلف من لحم وعظم وعروق وأعصاب ودم، والجسم تنتابه أعراض كثيرة، من قوة وضعف، وصحة ومرض، ونحول وسمن، وفتوة وهرم.

النفس: هي ذات الإنسان المعنوية الشاعرة، وهي نور إلّهي مركزها في الصدر وأشعتها سارية بواسطة الأعصاب في سائر أنحاء الجسم، وهذه النفس المسجونة في الجسم إنما تتعرّف بما يحيط بها من الأشياء بواسطة الحواس، فمن طريق العين تُبصر، وعن طريق الأذن تسمع وبالأنف تشمّ وبواسطة الجلد تحس وتلمس، وباللسان تذوق طعوم الأشياء، كما تعبّر به عمّا يجول فيها من الخواطر والأفكار، وبشيء من التفصيل نقول:

إذا وقف أحدنا مثلاً أمام شاطئ البحر فلا شك أن رؤيته للبحر تجعله يخشع أمام هذا المنظر ويستعظمه وهذا الخشوع والاستعظام إنما هو خشوع النفس واستعظامها.

وإذا وقع نظرنا على شخص عزيز على قلوبنا جُرحت يده جرحاً بليغاً، وجعل الدم يتقاطر منها، فلا بد أننا نحزن لهذا المشهد ونتألم على صاحبه، فهذا الحزن والألم الذي نجده إنما هو حزن النفس وألمها. وإذا كان أحد أقاربنا الذين نحبُّهم مسافراً سفراً بعيداً وسمعنا بعودته سالماً فهناك نسرُّ ونفرح، وما ذاك إلاّ فرح النفس وسرورها، وهكذا فالنفس هي العنصر الأساسي في الإنسان فهي التي تستعظم وتخشع وهي التي تحزن وتتكدّر، وتسرُّ وتفرح وترضى وتغضب وتتلذذ وتتألم وعليها المعوّل.

والنفس هي المخاطبة دوماً في القرآن، وهي المكلَّفة بالسير في طريق الحق، وهي التي تتألم عندما تُعالج وتُداوى، وهي التي تتنعّم في الجنان فلا تبغي عنها حولا. وسمِّيت بالنفس لقيمتها النفيسة.

أما بالنسبة للروح: فهي الإمداد بالنور الإلٓهي الساري في الدم ومركزها هذا القلب المادي، وهي القوة المحركة لكافة أجهزة وخلايا الجسم، وبواسطتها تتم تغذية وحركة وقيام وحياة هذا الجسم، وهي السلطة التنفيذية لأغراض ومتطلبات ولوازم ومشتهيات النفس، وهي تحت إمرة النفس السارية في الأعصاب الآمرة الناهية على كافة الأعضاء الإرادية واللاإرادية. **والروح** في الإنسان والحيوان وكافة المخلوقات الحيّة هي ذاتها، لكنها تكون في الأنبياء والرسل **روحاً مقدّسة** أي: منزَّهة عن الشوائب والأغراض الدنيئة لأن نفوسهم لم تتلوَّث بشوائب الدنيا وأدرانها الخبيثة فحُفظت الروح نقية طاهرة مقدَّسة، فهي لا تنطق إلا بالخير والحق والفضيلة والكمال، وحيثما حلّت حلّت الخيراتُ والأنس والنعيم والسعادة والغبطة الأبدية من الله بواسطتهم على كل من التفت إليهم. ولقد سألوا رسول الله ﷺ عن الروح، فشرح لهم ﷺ الروح وسريانها في الجسم بواسطة الدم.

وفي الحديث الشريف: **(إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد)**[١].

وذلك ما تُشير إليه الآية الكريمة: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...**﴾[٢].

يسألونك يا محمد عن الروح، فقد سألوه عن الروح تعجيزاً له فأجابهم تعالى:

﴿.. **قُلِ..**﴾: "يا محمد": ﴿.. **الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...**﴾: وكلمة﴿.. **رَبِّي..**﴾ تبيّن ذلك الإمداد الإلٓهي الساري في الوجود وبه قيامك أيها الإنسان ومعاشك وقيام جميع المخلوقات من إنسان وحيوان ونبات فلا تتحرك حركة إلا بإمداده وأمره تعالى.

ولو أنه تعالى يسحب إمداده، أي: الروح عن المخلوقات لما بقي لها حركة ولا حياة.

---

(١) _ متفق عليه مسند أحمد ج٣ ص١٥٦.

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٨٥)

ومثل الروح في المخلوقات كمثل التيار الكهربائي الذي يحرّك كل الآلات التي تعمل بواسطته فإذا ما انقطعت تلك الطاقة خمدت الآلات وسكنت حركتها وتوقَّف عملها، وهكذا تنصب الروح في الجسد على قلب الإنسان وتسري في الدم الذي يقوم بنقل الغذاء والأكسجين إلى كافة أنحاء الجسم والعودة بالفضلات والسموم ليتم طرحها خارج الجسم عن طريق التبوُّل والزفير.

﴿... **مِنْ أَمْرِ رَبِّي...**﴾: الواردة في الآية إنما تعني ذلك الإمداد على القلب والدم لتتم الحياة، وإذا ما انقطع ذلك الإمداد عن المخلوقات الحية بقيت جثةً هامدة لا حراك فيها، وما يؤكّد ما قلناه قوله تعالى: ﴿... **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** ...﴾[1].

وما هذه الروح إلا ذلك الإمداد الإلٓهي الذي أمدَّه الله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام بواسطة سيدنا جبريل وبعد أن بيّن لهم ما بيّن ردَّ عليهم:

﴿... **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[2]: وكلمة ﴿... **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ** ...﴾لا تعود على رسول الله ﷺ، بل على السائلين ولو كانت تعود على رسول الله ﷺ لجاءت بصيغة "**وما أوتيت**" بل جاءت وهو المتكلم قل لهم يا محمد وما أوتيتم أنتم أيها المعرضون من العلم إلاَّ قليلاً.

نظام خروج الإنسان إلى هذا العالم:

وقد كان خلق الأنفس قبل خلق الأجساد، في عالم الأزل، وقد أشرنا إلى هذا الأمر عند بحثنا (غاية الحق من إيجاد الخلق).

قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾[3].

---

(١) _ سورة النساء الآية (١٧١)

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٨٥)

(٣) _ سورة الأحزاب الآية (٧٢)

فلما أراد تعالى أن يظهر النوع الإنساني لهذا العالم، عالم الصور والأجساد، جعل لذلك قانوناً وسنة، فجعل لكل إنسان والدين: أب وأم، يحمل الأب في ظهره أنفس أبنائه وجميع نفوس ذريته، ثمَّ ينتقل الابن من الأب إلى رحم أمه، منطوية نفسه في ذلك الحوين الذي لا تدركه العين المجردة لدقته وصغر جرمه، وما يزال مستقراً في الرحم يتغذَّى وينمو ويتخلَّق يوماً بعد يوم، حتى يصبح إنساناً سوياً.

وهكذا فالناس كلهم كانوا في ظهر أبيهم آدم عليه السلام ومنه نسلوا، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾**(١).

وقد شذَّ عن ذلك النظام الذي بموجبه توالد البشر وجاؤوا إلى هذه الدنيا، سيدنا آدم عليه السلام، فقد خلق الله تعالى جسد سيدنا آدم من تراب، ثم أرسل نفس سيدنا آدم عليه السلام محمولة بواسطة الملك إلى جسدها، من غير أن يكون ذلك عن طريق أب. وكذلك كان خلق سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام، فقد أرسل الله نفس سيدنا عيسى إلى بطن أمه بواسطة الملك من غير أن يتوسط أب في نقل هذه النفس الكريمة إليها، قال تعالى: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**(٢).

وقد فصَّل لنا تعالى قصة حمل أم سيدنا عيسى عليهما السلام به، وبيَّن لنا في هذه القصة أنه لا بدَّ وأن يجزي الصادق بصدقه، رجلاً كان أو امرأة فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

---

(١) _ سورة المؤمنون الآية (١٢-١٤)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (٥٩)

(٣) _ سورة آل عمران الآية (٣٣-٣٤)

والمُراد بكلمة﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ**﴾أي: أنَّ البشر جميعاً متماثلون في الأصل فهم يتوالدون ويتناسلون بعضهم من بعض، لا ميزة لأحد على آخر في هذه الناحية. أمَّا كلمة﴿**وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾: فإنما تُبين سبب التمايز والاختلاف، فإذا كان البشر في الأصل متماثلين، لا فرق ولا ميزة لأحد على أحد، من جهة النسب والحسب، فهذا التمايز إنَّما يحصل بينهم بحسب الصدق والنية العالية، فالله تعالى سميع لما يتطلَّبه كلُّ إنسان، عليم بحاله وصدْق نفسه، وكل من صدق مع ربِّه في طلب الحق والكمال، فلا بدَّ أن يجزيه الله بصدقه.

ثمَّ ذكر لنا تعالى مثالاً على أهل الصدق فقال: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا...**﴾[١] أي: عزمت أن أجعل هذا الولد الذي أنا حاملة به محرراً أي: خالصاً للقيام بخدمتك، وذلك مما تعني به أن يكون ولدها، قائماً بفعل الإحسان والخير تجاه عباد الله، فلعل الله تعالى يقبل دعاءها ويجعل ولدها مرشداً، يدل الناس على الله، ويعرِّفهم به ثم تممت داعية بقولها: ﴿**فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾أي: سميع لقولي، عليم بحالي، وصدقي في مطلبي.

ثمَّ إنها لمَّا ولدت، وضعت السيدة مريم عليها السلام، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى**﴾ أي: أنها كانت تتطلب أن يكون مولودها ذكراً، ليستطيع أن يقوم بهذه المهمة العالية في الإرشاد والدلالة على الله، ثمَّ تابعت القول بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[٢].

وقد استجاب الله دعوة الأم الصادقة، فأنبت هذه البنت نباتاً حسناً قال تعالى: ﴿**فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا...**﴾ أي: جعله عليه السلام ولي تربيتها، فالله تعالى يولي الصادق على الصادق أو الصادقة معه تعالى،

---

(١) _ سورة آل عمران الآية (٣٥)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (٣٦)

ونشأت هذه البنت الصغيرة، وما أن بدأت تعي وتميّز، حتى أُفعِمَ قلبُها بمحبة الله والإقبال عليه، بسبب تفكيرها الدائب بنعم الله وآلاء صنعه الكونية، وفضله على الجميع بالطعام والشراب، شأنها في ذلك التفكير، شأن أبينا إبراهيم عليه السلام، حين فكّر بآيات الله الكونية، وتوصل إلى الله، وشأن سيدنا محمّد ﷺ بعد ذلك. وكان الله تعالى يفيض عليها بإقبالها عليه من العلم والمعرفة، ما يفيضه على قلوب عباده المؤمنين المقبلين، وكان سيدنا زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب، أي مكان خلوتها للعبادة في محاربتها للشيطان وجد عندها رزقاً، أي علماً ومعرفة وبياناً، عن كمال الله، فيعجب بذلك ويسألها يا مريم من أين جئت بهذا العلم، وهذه المعرفة العالية، فتقول هو من عند الله، قال تعالى مبيناً ذلك بقوله الكريم: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾(١).

وهي تريد بكلمة﴿**إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء**﴾أي: يرزق كل صادق، وإني صدقت مع ربِّي في طلب الحق، ففكرت بفضله وآمنت، فأكرمني بما أكرمني به.

والمراد بقولها: ﴿**بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾أي: إنَّ الأمر لا يحتاج إلاَّ إلى الصدق. فلما رأى سيدنا زكريا عليه السلام ذلك وسمع منها ما سمع، طلب من الله تعالى أن يرزقه ولداً صالحاً، يرثه من بعده، فيكون مرشداً وكان عليه السلام لا ولد له، فدعا ربه بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء**﴾(٢).

وهكذا فمسرى الآية يبين لنا أن الرزق الذي كان يجده سيدنا زكريا عليه السلام عند هذه البنت في المحراب، ليس هو الجوز والرمان، وليست الفاكهة، فمثل هذا ليس بمطلب الأنبياء، ولا يستدعي أن يتشوّق النبي للولد ويدعو الله، لأن هذا القول

---

(١) _ سورة آل عمران الآية (٣٧)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (٣٨)

الخبيث يشكك في عرضها وحاشاها. إنما الرزق هو ذلك العلم والمعرفة التي كان يجدها عندها ويسمعه منها، وذلك هو الذي قدَّره وعظَّمه منها، ولا يعرف الفضل إلاَّ ذووه.

وقد استمرت سيدتنا مريم عليها السلام، عاكفةً على الوجهة إلى ربِّها، لا تنقطع، فكان لها من هذه الصلة الدائمة بربِّها، أن طهرت نفسها طهارة أوصلتها إلى درجة تليق معها بأن يصطفيها ربها على نساء العالمين، وبذلك أصبحت أعلى النساء عند الله شأناً وأعظمهن منزلةً.

وقد زاد بها هذا الصفاء النفسي، إلى أن بلغت الدرجة التي يتغلَّب بها نور النفس اللطيف، على حجاب الجسم الكثيف، والتي يستطيع معها الإنسان أن يشهد الملائكة الكرام، فيُخاطبهم ويُخاطبونه، وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ما نوَّهنا عنه من تلك الطهارة النفسية والاصطفاء، كما أشارت إلى ذلك التسامي النفسي، الذي أهَّل هذه السيدة الكريمة إلى أن تتلقى خطاب الملائكة الكرام وتسمعه، فقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾(١).

وبما أن الركوع في حقيقته، هو ذلك الخضوع النفسي لله تعالى، ذلك الخضوع الذي يتمثَّل في نفس المؤمن الذي شاهد كمال ربه وحنانه، فقدَّره حقَّ قدره، من بعد أن عرف رحمته بخلقه وإحسانه، وعلى هذا، فالراكعون هم في الأصل الأنبياء والرسل الكرام. ولذلك أمر الله تعالى هذه الصدِّيقة بأن تَقْنت لربِّها، أي تديم وجهتها إليه تعالى وتسجد له وتركع مع الراكعين، المستعظمين مقام ربهم دوماً، وهم الأنبياء حصراً، لمقامها العالي الرفيع، كسيدنا زكريا وسيدنا عيسى عليهما السلام.

(١) _ سورة آل عمران الآية (٤٢-٤٣)

وقد أراد ربك أن يكرمها، كما أكرم أمّها بها من قبل، فجعلها تعالى أمّاً لرسول من رسله الكرام هو سيدنا عيسى عليه السلام، ذلك الرسول الذي كان مجيؤه إلى الدنيا، بآية من الله تعالى، وكانت له في طفولته آية، وكانت على يديه من بعد آيات بينات، أظهرها الله تعالى ليكون منها عبرة لمعتبر، فلعل هذه الآيات تلفت نظر الإنسان الجاحد، وتحرّك فكره الخامد، فيثوب إلى رشده، ويتعرّف بسببها إلى خالقه.

ونبدأ الآن بالآية التي كان بها مجيء هذا الرسول الكريم إلى الدنيا، وهي آية حمل أمه به، من دون أن يتوسَّط في ذلك أب فنقول:

قدَّمنا في مطلع حديثنا عن قصة هذا الرسول الكريم، أن الله تعالى جعل لهذا النوع الإنساني في المجيء لهذه الدنيا، نظاماً وسنة، أمَّا سيدنا عيسى عليه السلام فكان مجيؤه وولادته مخالفاً لهذا النظام والسنَّة، فما حَمَلَه عليه السلام أب إنما جاء المَلَكُ كما ذكرنا، حاملاً تلك النفس الكريمة، إلى السيدة مريم عليها السلام، وكانت إذ ذاك في مكان عبادتها، ملتجئة عن أهلها، منصرفة في الوجهة إلى ربِّها، مقبلة عليه بكلِّيتها، فإذا بها ترى جبريل عليه السلام أمامها، وقد أرسله الله تعالى لها فتمثَّل لها على هيئة بشر سوي، قال تعالى مُشيراً إلى قصة الحمل بقوله الكريم: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾.

وقد اضطربت سيدتنا مريم وهي في خلوتها من رؤية هذا الشخص أمامها، فقالت وقد حسبته رجلاً: ﴿**قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ...**﴾ أي: أعتز وألتجئ إليه وأحتمي به، ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿**...إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ...**﴾ أي: إنني التجأت واحتميت واعتززت بالرحمن منك فمن أنت؟

والذي نفهمه من مدلول الآية أنه عرَّفها بأنَّه ملك من ملائكة الله فأجابته: ﴿.. **إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ أي: ولو كنت ملَكاً ما حاجتك؟ فهل يحقُّ لك مخالفة أوامر الله تعالى، والدخول على من حرَّم الله عليك الخلوة بها... وإلاَّ فما مرادك؟

فأجابها بما وردِ في الآية الكريمة: ﴿.. **إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾(١) أي: إنني مُرسَل من الله تعالى، وأنا لا أشتهي، لكوني غير مكلَّف بحمل الأمانة، وإني مَلك ملَّكت نفسي لله من عالم الأزل، فلا أشتهي أبداً، إني ملَك مُرسل لأهب لكِ غلاماً طيباً طاهراً عالي الاسم والشأن، فعجبت أن يكون لها ولد، ولم تتزوج ولم يمسسها بشر، فأجابته: ﴿**قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا، قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا**﴾ أي: ألقى الملكُ نفس سيدنا عيسى عليه السلام بسيدتنا مريم عليها السلام عن طريق الفم فيما هي تخاطب الملك الذي كان يحمل نفس سيدنا عيسى عليه السلام، عندها سرت نفس سيدنا عيسى الطاهرة إليها سريان النور، أو كما تسري القوة اللاسلكية محملة على الأثير إلى الهاتف فإذا هو عليه السلام محمول في بطنها، قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿**فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا، فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾(٢) أي: ألجأها ألم الولادة إلى الاستناد والتمسك بجذع النخلة. هنالك قالت وقد اجتمع عليها ألم الولادة وألم نفسي آخر، هو أعظم من ذلك الألم الجسمي، ناشئ عن خوفها أن يتَّهمها الناس بالزنى، وتكثر الأقاويل، وهم لا يعلمون من أمر تلك المعجزة التي حملت بها شيئاً، وقد يُنْكِرُون عليها كل الإنكار وقد لا يُصدِّقونها إذا أرادت أن تعرِّفهم بحقيقة الأمر، وهكذا لاقت غمّاً وحُزناً شديداً، والشريف يَكْبُر عليه أن يتَّهمه النَّاس بتهمةٍ باطلة إفك،

---

(١) _ سورة مريم الآية (١٦-١٩)

(٢) _ سورة مريم الآية (٢٠-٢٣)

ويتمنَّى أن يموت ولا يتكلَّم عليه أحد بما يلوِّث سمعته وشرفه، ولذلك: ﴿.. **قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾.

وولدت سيدتنا مريم، سيدنا عيسى عليه السلام بلمح البصر، وأراد ربك أن يخفِّف عنها ما تجده من غمٍّ وحزن، فأنطق مولودها ساعة ولادته، بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**﴾. والمراد بكلمة﴿**سَرِيًّا**﴾ أي: ولداً وجيهاً يسري ذكره وشأنه العالي في الآفاق.

ثم تمَّم هذا المولود قوله: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾[1]. والمراد بكلمة ﴿**صَوْمًا**﴾ أي: انقطاعاً عن الكلام.

وجاءت سيدتنا مريم بمولودها، قال تعالى مُشيراً إلى ذلك: ﴿**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾ والمراد بكلمة ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾: في التقوى والصلاح، أي مماثلة له في الطهارة.

﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ [2].

وقد تكلَّم سيدنا عيسى عليه السلام في المهد، وأراد الله تعالى أن يجعل من كلامه آية، تبين براءة ذمة أمّه بما قد يتَّهمها به المتهمون من جهة، وتنضم إليها معجزة حمْلها به من دون أب من جهة ثانية، فيؤمنون من وراء ذلك بعظمة الله تعالى، كما يعظِّمون هذا المولود، ويؤمنون برسالته يوم يبعثه الله رسولاً، وقد أشارت الآيات الكريمة إلى كلام سيدنا عيسى عليه السلام في المهد بما ورد في قوله تعالى: ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا،**

---

(١) _ سورة مريم الآية (٢٤-٢٦)

(٢) _ سورة مريم الآيات (٢٧-٢٩)

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا، ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ، مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ، وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١].

وبعد أن ذكر لنا تعالى قصة حمل سيدتنا مريم بسيدنا عيسى ﷺ، وبعد أن بيَّن لنا تعالى معجزة كلامه ﷺ في المهد، تلك المعجزة التي تبيِّن براءة السيدة مريم من جهة، كما تبيِّن رسالة سيدنا عيسى ﷺ وكونه عبد الله ورسولاً من رسله الكرام، ختم لنا تعالى ذلك بقوله الكريم: ﴿**ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ، مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ وتفيد كلمة(**سُبْحَانَهُ**) الواردة في هذه الآية معنى أنه تعالى منزَّه عن أن يكون له ولد، لأن المولود من خصائصه أن يحمل صفة أبيه ويشابهه، فالله تعالى مُنَزَّه عن أن يشابهه أحد، في ذاته، أو في أي اسم من أسمائه.

وبشيءٍ من التفصيل نقول: إنَّ الله تعالى أول بلا بداية، لا أول لوجوده، فمهما قلت أول فهو أول وأول وليس له أول، أما سيدنا عيسى بن مريم فله أول، وأوله زمن ظهوره لعالم الوجود، وهو بهذا كغيره من المخلوقات، التي لها بداية ونهاية، والبداية والحدوث صفة تلازم المخلوقات، وتتنافى مع الألوهية.

والله تعالى صمد في ذاته، وفي كل اسم من أسمائه، والصمد هو الذي يُمِدُّ ولا يستمد، ولا يحتاج إلى غيره. فالله تعالى مثلاً صمدٌ في حياته، بمعنى أنه لا يستمد الحياة من غيره، ولا تتوقَّف حياته على أحد، أو على شيء من الأشياء، بل هو تعالى الحي، منبع الحياة ومصدر الحياة، ومنه تعالى وحده تُسْتَمَدُّ حياة كل مخلوق من المخلوقات.

---

(١) _ سورة مريم الآيات (٣٠-٣٦)

أمَّا سيدنا عيسى عليه السلام فهو كغيره من المخلوقات في هذه الناحية، فحياته عليه السلام مستمدة من الله تعالى، فإذا انقطع إمداد الله تعالى بالحياة عن سيدنا عيسى، مات في الحال.

ثم إنَّ الإلَه إنَّما يكون قائماً بذاته، بمعنى أنه لا يحتاج في بقاء وجوده إلى عامل من العوامل أو شيء من الأشياء.

أمَّا سيدنا عيسى عليه السلام فهو خاضع للقوانين الكونية التي أبدعها الله تعالى للأحياء، فهو محتاج إلى الطعام والشراب، والنور والهواء، وبقاء حياته متوقف على كثير من العوامل، شأنه في ذلك كشأن غيره من المخلوقات. ثمَّ إن الولد يتخذ ليكون عوناً لأبيه ومساعداً له، والله تعالى غني عن أن يساعده مخلوق من مخلوقاته، وإذا كان المخلوق إنَّما يستمد كل شيء من الله تعالى، فكيف يصح أن يستعين خالق قوي بمخلوق ضعيف، لا حول ولا قوة له.

والإلَه إلى جانب كل ما ذكرناه، إنَّما يكون مُحيطاً بسائر الموجودات، فهو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء. أمَّا سيدنا عيسى عليه السلام فإنما كان محمولاً على سطح الأرض، مُحاطاً بالهواء والفضاء والسموات، وذلك كلَّه ممَّا يتنافى مع صفات الألوهية، وقد أشارت الآيات الكريمة مبيِّنة فساد ادِّعاء من نسب الألوهية إلى هذا الرسول الكريم فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ، لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ**

انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ، قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وهكذا فتوقف الحياة على الطعام والشراب، ينافي الألوهية، ويثبت الاحتياج، فلو مكث رسول الله عيسى ﵇، عدة أيام بلا طعام لضَعفَ، ولانهارت قواه، وحاشا للإلّه أن يضعف، إذن لانهار الكون. والإلّه كما رأينا صمد، لا تتوقف حياته على شيء، ولا يحتاج لشيء من الأشياء، وهو غني عن كل شيء، مغنٍ لكل شيء.

وقد أرسل الله تعالى سيدنا عيسى ﵇ لبني إسرائيل، وكان الناس في عصره على جانب عظيم من المهارة والمعرفة بالطب، فأيَّده الله تعالى بآيات بينات تتناسب مع عصره، ويعجز النَّاس مهما برعوا في الطب والمداواة، أن يأتوا بمثلها، إظهاراً لرسالته، فلعل النَّاس يستعظمون رسولهم ويتبعونه، فترافق نفوسهم تلك النفس الزكية الطاهرة، وتعرج بمعيَّتها إلى خالقها، فتشهد الكمال الإلّهي، وتشهد بذلك النور الإلّهي الحقائق، فترى الخير من الشر، والحق من الباطل، وهنالك تعرض عن الدنيا وسفاسفها، وتُقبل على الله تعالى، فتعمل للآخرة وتسعى لها.

وممَّا أيَّد الله تعالى به هذا الرسول الكريم، أنه كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأنه كان يُحيي الموتى بإذن الله، وقد أشار تعالى إلى ما أظهره على يد هذا الرسول من المعجزات: **﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**[2].

---

(١) _ سورة المائدة الآيات (٧٢-٧٦)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (٤٩)

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(١). وهكذا فمهما تقدَّم الطب، فالأطباء جميعاً في كل زمان ومكان، عاجزون عن إحياء الميت وردِّ روحه إليه، وأيَّد الله تعالى رسوله بهذه المعجزة البيّنة، غير أنَّ الإنسان مهما رأى من آيات، ومهما ظهر له من معجزات، لا يغني ذلك عنه شيئاً، إن هو لم يفكر في آيات هذا الكون، ويتعرَّف منها إلى خالقه، وما دام هذا الإنسان كافراً، أي لا تقدير لديه ولا تعظيم لآيات الله، فلا يمكن أن يرجع عن ضلاله، ولا أن يُعظِّم ما يراه من المعجزات، التي يُظهرها الله على يد رسله.

فهذا السيد المسيح، سيدنا عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه، يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، وينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، ويُبرئ الأكمه والأبرص، ويُخرج الموتى بإذن الله، ومع ذلك كله تجد الذين كفروا، أي الذين لم يقدِّروا آيات الله ونِعم الله ولم يعبؤوا بها، يتَّهمونه بالسحر كما اتَّهموا غيره من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين. فيقولون إنْ هذا إلاَّ سحر مبين، وقد سمعوا كلام سيدنا عيسى عليه السلام في المهد، ثم قالوا إلى جانب ذلك على مريم بهتاناً عظيماً.

ثمَّ إنَّك إلى جانب هؤلاء الكافرين المعرضين، تجد آخرين ما آمنوا بالله حق الايمان، وما تعرَّفوا إلى خالقهم عن طريق النظر والاستدلال، بل قلَّدوا آباءهم

(١) _ سورة المائدة الآية (١١٠)

تقليداً أعمى، فهؤلاء لمَّا رأوا على يد سيدنا عيسى ﵇ ما رأوه من معجزات، غلوا في دينهم، وكفروا أيضاً بالله، فقال فريق منهم إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال فريق المسيح ابن الله، وقال آخرون إن الله ثالث ثلاثة، فزعموا أنَّ سيدنا عيسى وأمه إلّهين من دون الله، كما مرَّ بنا في آيات مضت، وقد ندَّد تعالى بكذبهم وكفرهم، فذكر لنا موقف سيدنا عيسى ﵇ يوم القيامة بين يديه، وأشار إلى كذب هؤلاء فيما قالوه عن لسان رسوله الكريم، فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَّهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[١].

وقد عارضت بنو إسرائيل سيدنا عيسى ﵇ معارضة شديدة، كما عارضوا من قبل من جاءهم من الرسل الكرام، لأنهم فتنوا بالدنيا وشهواتها، بسبب إعراضهم عن ربهم، فما كان يروق لهم أن يأتيهم رسول بما لا تهوى أنفسهم. قال تعالى مُشيراً إلى موقفهم هذا تجاه رسله: ﴿.. **أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**﴾[٢].

وكاد بنو إسرائيل لسيدنا عيسى كيداً شديداً قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[٣].

---

(١) _ سورة المائدة الآيات (١١٦-١١٧)

(٢) _ سورة البقرة الآية (٨٧)

(٣) _ سورة آل عمران الآية (٥٢)

وقد حمل الكفر أولئك المعارضين الذين كفروا بربِّهم، على تدبير المؤامرات لقتل رسوله عليه السلام كما هي عادتهم، قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿**وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[1]. وقد ضاق صدر سيدنا عيسى عليه السلام بهؤلاء الكفرة، وهكذا نفس المؤمن كالمرآة الصافية، تنعكس فيها أحوال المعرضين عن الله، فيضيق بهم صدراً، ويلقى من جرَّاء اجتماعه بهم غمّاً شديداً، ولذلك وعد الله رسوله عليه السلام بأن يُطهِّره من الذين كفروا، وبشَّره بذلك، فقال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[2].

---

(١) _ سورة آل عمران الآية (٥٤)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (٥٥)

الدليل الأول على عودة السيد المسيح عليه السلام:

وقد بدأت الآية الكريمة بكلمة ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**﴾، وليس المراد من التوفي الموت، لأن التوفي يقع في حال النوم أيضاً، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى...**﴾[١].

والتوفي لغةً: هو أَخْذك الشيء واستيفاؤك إيَّاه، بعد أن تكون قد منحت فيه حق التصرُّف لغيرك حيناً. تقول: توفيت دَيْني من فلان، أي: أخذته واستعدته منه، وتقول: توفَّى فلان حقَّه من غريمه. وبناءً على ما قدَّمناه، ولبيان المراد من توفي النفس نقول: إن الله تعالى منح النفس في هذه الحياة الدنيا الاختيار، وبناء على اختيارك ينفذ الله تعالى لك مرادك ومطلوبك، فمن الإنسان الاختيار والطلب، ومن الله تعالى الإمداد والحول والقوة والتسيير، وتوفي النفس إنما يكون بقبض الاختيار.

وكما يقع التوفِّي في حال الموت، يقع في حالة النوم.

ففي حال النوم، يكون توفي النفس بأن يقبض الله تعالى الاختيار من النفس مدة وجيزة، وهنالك يستسلم الإنسان لنومٍ لا يستيقظ منه، إلاَّ إذا أعاد الله تعالى للنفس اختيارها، وعاد عليها بسابق فضله.

أمَّا في حال الموت، فيكون توفي النفس، بأن يقبض الله تعالى من النفس اختيارها قبضاً نهائياً، قال تعالى مُشيراً إلى وفاة النفس في حال الموت، ووفاتها في حال النوم، ومبيّناً لنا الفرق بين الوفاتين بقوله تعالى:

﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى...**﴾[٢].

---

(١) _ سورة الأنعام الآية (٦٠)

(٢) _ سورة الزمر الآية (٤٢)

ويختلف توفي النفس في حال الموت، عن توفي النفس في حال النوم أيضاً، بأنَّ توفي النفس في حال الموت، يرافقه توفي الروح وقبضها من الجسم.

فالروح: وهي ذلك النور الإلّهي، والذي تكون به حياة الجسم، وانتظام سير أجهزته، إذا هي قُبضت من الجسم فعندئذٍ يتوقف عن الحركة، وتنقطع أجهزته عن القيام بوظائفها، وتنعدم منه الحياة، فتمتد إليه يد البلى والفناء. ثم إنَّ توفِّي الروح إنما يكون بواسطة الملك، فالمَلك الموكَّل بنفخ الروح في الإنسان عندما يكون جنيناً، عند خلق النطفة وانتقالها إلى رحم أمه، هو الموكَّل أيضاً بقبض الروح من الجسم حين الموت، قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**...﴾[1].

قال تعالى: ﴿.. **حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ**﴾[2].

وبناءً على ما قدَّمناه، إذا قرنت كلمة **(التوفي)** بكلمة **(المَلَكْ)** فهي إنما تعني توفِّي الروح، وأعني بذلك الموت وانقطاع الحياة.

والآن وبعد أن بيَّنا معنى التوفِّي، والفرق بين وفاة الموت ووفاة النوم نقول: بما أن كلمة ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**﴾ التي خاطب الله تعالى بها سيدنا عيسى عليه السلام لم تقترن بذكر الملك، فهي إذاً لا تعني قبض الروح المعبَّر عنه بالموت، وإنَّما تُشير إلى توفي النفس، وأعني به قبض الاختيار الذي يقع في حال النوم، وهكذا فقد توفّى الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام توفّياً أخفى به جسمه عن الأنظار، وجعله في حال النائم، ويشبه ذلك ما وقع لأصحاب الكهف، الذين توفَّاهم الله تعالى مئات السنين، دون أن يتطرق البلى إلى أجسامهم، ثم بعثهم ليكونوا عبرة للّذينَ كانوا في ذلك

(١) _ سورة السجدة الآية (١١)

(٢) _ سورة الأنعام الآية (٦١)

العصر الذي بعثهم الله فيه، قال تعالى: ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا**﴾[١].

وبما أن سيدنا عيسى عليه السلام يعلم أنه لا يُقَرِّب العبد من خالقه زلفى سوى عمله العالي، وليس يرفعه إلى ذلك الجناب الإلٓهي الكريم غير فعله المعروف، ودعوته الناس إلى طريق الحق والإيمان، وبما أنَّ سيدنا عيسى عليه السلام لقي من قومه ما لقي من الكفر والمعارضة، ولم يذعن لدلالته إلاَّ نفر قليل أو ضئيل من الناس، لذلك لمَّا أخبره الله تعالى بأنه متوفِّيه، حزن أسفاً على أنه لم تحقَّق له نيته العالية، ولم يتم له مطلبه في ذلك الجيل.

وقد أراد الله تعالى أن يُسلِّيه عن ذلك، ويُبشِّره بما سيجعله من الخير على يديه فقال تعالى: ﴿.. **وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**...﴾[٢]: أي لا تحزن فلا بد من أن أُعيدك للناس ثانية، وستدعوهم إلى الإيمان فيؤمنون، وإني رافعك إلِيّ بالأعمال الإنسانية، التي ستقدمها بصدقك ونيتك العالية، وبما ستقوم به حينئذٍ في المستقبل من دلالتك لخلقي عليّ، وجهادك في سبيل الأخذ بأيديهم إلى سبيل الإيمان.

وإذاً فليس المراد من كلمة﴿... **وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**...﴾ما يتبادر إلى الأذهان، أذهان بعض الناس من أنه رُفِعَ إلى السماء. فإن الآية جاءت صريحة بقوله تعالى: ﴿.. **وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**...﴾ ولم تقل ورافعك إلى السماء، والله تعالى هذا الخالق العظيم، الذي لا نهاية له، مُنزَّهٌ عن أن يُحيط به زمان ومكان، فهو خالق الزمان والمكان.

ثم إنَّ السماء والأرض عند الله تعالى سيَّان في المنزلة والشأن، وكلاهما مخلوق، وليس يرفع من شأن الإنسان رفعهُ إلى السماء، إنَّما الذي يرفع الإنسان إلى خالقه ويدنيه من جنابه الكريم، عمله العالي، وجهاده في سبيل الله، ودعوته الناس إلى طريق الحق، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم. وإذاً فالذي جاءت به

---

(١) _ سورة الكهف الآيات (١١-١٢)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (٥٥)

الآية الكريمة ليس رفعاً جسمياً، إنَّما هو رفع المنزلة والشأن نقول: رفع الأمير فلاناً إليه، أي أدناه منه منزلة ومكانة، لا جسمياً ومكاناً.

قال تعالى: ﴿.. **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**...﴾[1].

﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**﴾[2].

﴿... **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**...﴾[3].

أقول: والذي ينفي أيضاً رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾[4].

والربوة: هي المكان المرتفع من الأرض. **والقرار:** هو الجبل الراسخ المستقر. **والمعين:** الماء الجاري الذي لا ينقطع.

عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال في هذه الآية: ﴿.. **وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾. **(قال أتدرون أين هي؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة، في مدينة يقال لها دمشق هي خير مدن الشام)** [5]. وهذا ما رواه البيضاوي في تفسيره، والمؤرخ ابن جبير في كتابه "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" أنَّ هذا الإيواء إنَّما كان إلى ربوة دمشق، وجاء في بعض الآثار، أن ظهور سيدنا عيسى عليه السلام في آخر الزمان، سيكون في دمشق.

والآن وبعد أن بيَّنا ما تُشير إليه الآية الكريمة من التوفي والرفع نقول:

بعد أن بشَّر الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام، بالعودة والقيام بالدعوة إلى الحقِّ، أراد تعالى أن يطمئن قلب رسوله، بأن النَّاس في زمنه المُقبل سيهتدون به، وسينقلب العالم بأسره إلى عالم مؤمن بالله، وستُمحى دولة الكفر من الوجود وتحلُّ

---

(١) _ سورة فاطر الآية (١٠)

(٢) _ سورة مريم الآيات(٥٦-٥٧)

(٣) _ سورة المجادلة الآية (١١)

(٤) _ سورة المؤمنون الآية (٥٠)

(٥) _ أخرجه ابن عساكر.

محلها دولة التوحيد والإيمان، وهنالك ينطوي النَّاس تحت لواء الحق جميعاً، فلا يعود يضيق صدرك من أحد، ولا تعود تشعر بهذا الضيق الذي تلقاه اليوم، من اجتماعك بأهل الكفر والضلال، إنَّك ستجد صفاءً وسروراً، وستشعر بهذه الطهارة من هؤلاء الكفار طهارة دائمية، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿.. **وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ...**﴾ ثم بيَّن تعالى أنَّ هذه الدولة، دولة الإيمان، ستبقى إلى يوم القيامة، وسيبقى للمؤمنين الشأن والسيطرة، يهتدي العالم بهدْيهم قال تعالى: ﴿.. **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[١].

والآن وبعد أن بيَّنا المُراد من التوفِّي والرفع والتطهير، الواردة في الآية الكريمة السابقة، **لا بدَّ لنا من ذكر موجز القصة، التي كانت سبباً في توفي سيدنا عيسى** عليه السلام **نوماً**، وحجبه عن الأنظار، فنقول: لما تآمر اليهود على قتل سيدنا عيسى عليه السلام، شاركهم في ذلك رجل منافق منهم كان قد تظاهر بالإيمان، وأنه من أتباعه عليه السلام، ودلَّهم على المغارة التي كانت مركز قيادة حربية لسيدنا عيسى عليه السلام، وفي اليوم الذي أرادوا فيه تنفيذ المؤامرة، كان ذلك الرجل ملازماً المكان الذي كان فيه سابقاً سيدنا عيسى عليه السلام حيث حجب الله تعالى رسوله وأخفاه عن الأنظار، بأن أمره بالذهاب مع أمه إلى أن يصل إلى مغارة بيَّنها تعالى له، وهنالك ناما، فأبقاهما نائميْن كأصحاب الكهف، فكانت هذه الفترة الطويلة من النوم آية، كما أورد تعالى بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾[٢]: إلى حين ظهورهما في زمننا هذا. وألقى الشبه على ذلك الخائن، الذي كان يبالغ في العناية باللباس والمظهر الديني، وإطالة اللحية والعمامة، للتعمية على نفاقه، فظنه الزبانية الرومان هو الإمام، أي ظنوه من بين الحواريين أنه هو سيدنا عيسى

(١) _ سورة آل عمران الآية (٥٥)

(٢) _ سورة المؤمنون الآية (٥٠)

عليه السلام، ولمّا لم يكن سيدنا عيسى عليه السلام موجوداً بالمغارة، إذ سبق أمر الله بالمغادرة، ومعه أمه إلى مغارة أُخرى بربوة سيّرهما تعالى إليها، وكان الأمر الصادر بإلقاء القبض على سيدنا عيسى صارماً لزبانية الرومان، ذلك لأن اليهود أعلموا الحاكم الروماني إذ ذاك بشعبيّة سيدنا عيسى عليه السلام، وأنه غدا يهدد استقرار حكمه، لأن جماهير فلسطين تبعته، بسبب الخوارق والمعجزات السحرية بزعمهم. عندها خشي الحاكم الروماني من الخطر بنشوء ثورة أو قتال من قبل الجماهير المتأثرة والتابعة لهذا الشخص، الذي بلغت شهرته مبلغاً رهيباً، بسبب عجائبه وخوارقه، فأمر بأن يقتلوه فور القبض عليه، لأنهم إن لم يقتلوه، فستثور الجماهير والعوام بثورة ساحقة ماحقة. أما إن وضع الشعب أمام أمر واقع، وهو أنه قد قتل وقضي الأمر، فسيقضى على الفتنة في مهدها، ويجد الناس أنه مقتول فسيهمدون. كانت هذه وجهة نظر الحاكم الروماني، الذي أثاره علماء اليهود ضِد سيدنا عيسى، فأصدر أمر قتله وصلبه فور القبض عليه، دون إبقائه وسجنه، فتثور الناس بثورة قد تودي بالحاكم وجنده، لذا أمر الجنود الذين أرسلهم بقتله مباشرة، وهؤلاء الزبانية كانوا جنوداً منفذين، لا يعرفون شخص سيدنا عيسى عليه السلام، فلما ولجوا الكهف وشاهدوا الحواريين الأحد عشر، ومعهم هذا المنافق الخائن، بمظهره الديني الرائع، ولم يجدوا سواه، ظنوه سيدنا عيسى، والأمر بقتله كان مشدداً صارماً من الحاكم، لذا اعتقلوه، فقاوم فأذلوه، وبصقوا عليه وعذبوه. فأخذوه يريدون أن يقتلوه ويصلبوه، فتمنَّع تمنُّعاً شديداً، وبيَّن لهم أنه ليس بعيسى، ونفى ذلك نفياً قوياً، فما سمعوا له قولاً، بل قتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام، وهكذا فقد لقي ذلك الخائن مصرعه، ونال جزاءه قال تعالى: ﴿**وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[1].

(١) _ سورة آل عمران الآية (٥٤)

ثم إِن هؤلاء المتآمرين بعد أن فعلوا ما فعلوا خامرهم الشك فقالوا وهم يتساءلون فيما بينهم، إن كنَّا قد قتلنا عيسى فأين صاحبنا، وإن كنا قد قتلنا صاحبنا، فأين عيسى، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾(١).

* * *

(١) _ سورة النساء الآيات (١٥٧-١٥٨)

الدليل الثاني:

قال تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾.

فما هي البينة؟: لقد **بيَّن تعالى هذه البيّنة، أنَّها رسولٌ من الله فقال تعالى:** ﴿**رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً**﴾: والصحف المطهرة، ما أرسله الله تعالى من الأوامر الإلَهية، والتشريع الحكيم، الدال على طريق السعادة والخير، وهي بحسب الآية التالية الموضحة لها، إنما تعني سوَر القرآن الكريم، الذي حوى كافة الكتب السماوية الثلاثة السابقة والصحف الأربع المقدّسة.

قال تعالى: ﴿**فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**﴾[1]، أي أن هذه الصحف المطهرة، التي يتلوها رسول من الله، إنَّما تضمنت بين طياتها كُتباً ذات قيمة عالية. وما هذه الكتب القيّمة إلاَّ الكتب الإلَهية، التي أنزلها الله تعالى، على من سبق سيدنا محمداً ﷺ من المرسلين، وما هذه الصحف المطهرة، إلاَّ سوَر القرآن الكريم، الذي حوى الكتب الإلَهية السابقة. ولذلك فالقرآن الكريم، بحسب ما ورد في هذه الآيات، هو الكتاب الذي سيتلوه سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام يوم عودته، على الخلق كافة: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾[2]: أي أن الذين أوتوا الكتاب وهم بنو إسرائيل، لم يتفرقوا إلى يهود ونصارى، إلا من بعد ما جاءهم سيدنا عيسى عليه السلام.

إذن: هذه الآية دليل واضح، على أن البينة هو سيدنا عيسى عليه السلام، إذ في بعثة سيدنا محمد ﷺ كان اليهود منذ حوالي /٦٠٠سنة/ متفرقين إلى يهود ونصارى من قبل، ولم تكن بعثته الشريفة سبب شقاقهم واختلافهم، وعلى هذا أصبحت كلمة:

---

(١) _ سورة البينة الآيات (١-٣)

(٢) _ سورة البينة الآية (٤)

﴿**الْبَيِّنَةُ**﴾ تعني بلا شك، سيدنا عيسى عليه السلام، الذي بعهده وظهوره الأول، تفرَّق أهل الكتاب إلى نصارى أرادوا نصر سيدنا عيسى وقالوا: ﴿.. **نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[1]: أي حين طلب سيدنا عيسى قتال كفرة اليهود وطلب أنصاره، فكانوا فقط الحواريين، الذين فيما بعد تغلبوا على اليهود، وأصبحوا ظاهرين بالعالَم، إذ آمنت معهم دولة روما الكبرى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا...**﴾: وهم الحواريون، وتبعتهم الدولة الرومانية مع أممها الثماني عشرة أمة: ﴿**عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾[2]. إذن: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...**﴾: اليهود. إلى يهود ونصارى: ﴿.. **إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾[3]: أي الرسول الكريم عيسى عليه السلام البينة. وهو بينة بمعجزاته وكلماته بالإنجيل، وولادته دون أب، ونطقه وكلامه بالمهد، والذي بعودته في آخر الزمان، سينفك الفريقان اليهود والنصارى عن كفرهم، كما بينت الآية من السورة الكريمة: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾[4]: وإذا كان المقصود بكلمة البينة، هي سيدنا محمد ﷺ، والمشركين هم أهل مكة أو عبدة الأصنام، كما يدعي المفسرون، لحصل الانفكاك حينها لأهل الكتاب اليهود عن الكفر! وهذا ما لم يحصل، بل طردهم رسول الله ﷺ من المدينة المنورة بسبب بقائهم على كفرهم. إن السورة الكريمة تبين بما لا يدع مجالاً لتفسير أعوج لا ترابط فيه، أن البينة، هي سيدنا عيسى عليه السلام حتماً، وذلك لتفرق اليهود إلى فريقين بعد

---

(١) _ سورة آل عمران الآية (٥٢)

(٢) _ سورة الصف الآية (١٤)

(٣) _ سورة البينة الآية (٤)

(٤) _ سورة البينة الآية (١)

بعثته الأولى، فانقسموا إلى يهود ونصارى، وهذا ما أكدته الآية الثانية بكلمة: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**...﴾أي اليهود تفرقوا إلى فرقتين: ﴿.. **إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾. وهو سيدنا عيسى عليه السلام، إذن بداية الآية الذين أوتوا الكتاب هم اليهود، والمشركين هم النصارى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[1].إذاً، إن الذين كفروا من أهل الكتاب، أي من اليهود والمشركين من النصارى لن ينفكوا عما هم فيه من كفرهم وإشراكهم، (كما لن ينفكوا عن اختلافهم من تكذيب اليهود للمسيح عليه السلام، واختلاف النصارى في طبيعته) حتى تأتيهم هذه البينة، وهذه البينة وصفها تعالى، بأنها رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة.

إذ أن المسيح عليه السلام، هو الذي يفض الخلاف الذي نشأ بين اليهود والنصارى، عندما يأتي إليهم، لأن كل رسول مكلف بحل خلافات أمته، لذلك فإن سيدنا محمداً ﷺ لم يحاول أن يحل الخلاف بين اليهود والنصارى، إلا بالتي هي أحسن، فمثلاً حينما كان يحارب قوماً كافرين، كعبدة الأصنام بالجزيرة العربية، وعبدة النيران بعدها، كان يشرط عليهم شرطين: الإسلام أو الحرب حتى يسلموا. وبما أنه لم تُقبل جزية من عبدة الأصنام بالجزيرة، ولا من عبدة النيران، لذا لا نجد معابد للأصنام بالجزيرة العربية، ولا معابد للنيران بإيران، ولو قُبلت الجزية منهم لبقيت معابدهم، كما بقيت معابد النصارى واليهود وقبلت منهم الجزية حتى يظهر سيدنا عيسى عليه السلام، فيحل خلافهم ويسلموا، وهكذا بالنسبة لليهود والنصارى، فكانت لهم شروط ثلاثة هي: **الإسلام. الجزية. الحرب.** فإن أسلموا فتلك الغاية، وإن أبوا، فدفع الجزية، وإلا الحرب حتى يسلموا، أو يدفعوا الجزية، التي هي بحقيقتها رمز

(١) _ سورة البينة الآية (٥)

لعلهم يسلمون، فإذا أسلموا، ارتفعت عنهم وأعيد لهم عزهم، وأصبح لهم ما للمسلمين.

وهذا دليل واضح على أن الذي يحل الخلاف الناشب بين اليهود والنصارى هو رسولهم سيدنا عيسى عليه السلام.

إن تسمية المشركين لا تقتصر على كفار مكة، أو غيرهم من عبدة الأصنام، وإنما تشمل أيضاً الذين اعتقدوا بأن المسيح هو ابن الله أو ثالث ثلاثة، لأن معتقدات هؤلاء وهؤلاء متضاهئة[1].

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ، لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[2].

وقال جل جلاله: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[3]. ومن الناحية التاريخية نقول: لقد أنكر اليهود على السيد المسيح رسالته، وادعوا بأنه ليس هو المسيح المنتظر الذي سيكون ملكاً علينا وقالوا، وبذلك لعنهم الله، بأنه المسيح الكذاب، ثم شنوا عليه حرباً دعائية لا هوادة فيها، واتهموه بالتدجيل، ثم أساؤوا بالدسوس والإفك، والتقوُّل عن أمه، التي هي أطهر نساء العالمين، وتلك هي عادتهم، فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه.

---

(١) _ تقول ضاهاه شاكله وضهيئك شبيهك.

(٢) _ سورة المائدة الآية (٧٢-٧٣)

(٣) _ سورة التوبة الآية (٣٠)

ونتيجة لتلك المقاومة وذلك الدس، استطاعوا أن يصرفوا الناس عنه، وما انصرف عنه إلا القوم المجرمون. ولم تؤمن معه إلا فئة قليلة، استطاعت بإيمانها الرفيع أن تنشر الديانة النصرانية بين رعايا الإمبراطورية، لاسيما في روما نفسها، بالرغم من أنهم كانوا في ظل الاحتلال الروماني.

إلا أن تلك الديانة شوهت فيما بعد، وبمرور بضع مئات من السنين حصل ضعف بسبب عدم التفكير والإيمان، وذلك بما دخل عليها من المعتقدات الوثنية اليونانية بسبب عدم تفكيرهم، وسيرهم بالتقليد الأعمى.

أما نوع الخلاف الذي شب بينهم فهو ما جاء في الآية الكريمة: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...**﴾[1].

وهذا الاختلاف هو الذي بينه سبحانه في سورة المائدة: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...**﴾[2].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...**﴾.

﴿**... وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[3].

ولعلك تقول: لِمَ توفى الله سيدنا عيسى عليه السلام، ذلك التوفي الذي بيَّناه، ووعده بأن يعيده في آخر الزمان، وما وقع هذا لأحد من المرسلين؟

---

(١) _ سورة البينة الآية (٥)

(٢) _ سورة المائدة الآيات (١١٦-١١٧)

(٣) _ سورة المائدة الآية (١١٧)

فأقول: إذا آمن الإنسان بخالقه، حقَّ الإيمان، وأقبل على الله تعالى، حقَّ الإقبال، امتلأت نفسه بالكمال، وأصبحت تهوى فعل الخير والإحسان. وبما أنَّ الله تعالى لا يعطي امرءاً يوم القيامة منزلة من المنازل، إلاَّ بناءً على ما قدَّم من أعمال طيبة، وحيث أنَّ سيدنا عيسى عليه السلام لما جاء بالبينات عارضته بنو إسرائيل كما رأينا من قبل، تلك المعارضة الشديدة، وما استطاع أن يحقِّق رغائبه ونيَّته العالية، في تعريف الناس بخالقهم، ودلالتهم عليه تعالى، لإخراجهم من الظلمات إلى النور، فما اهتدى على يديه إلا القليل وهذه وظيفته، ولذلك وعده الله عزَّ وجل أن يُعيده في آخر الزمان، وأن يرفعه بعمله العالي، وأن يجعل المؤمنين الذين سيتَّبعونه، فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، تطييباً لنفسه، وإظهاراً لعمله، ولما خفي من عالي نيَّته، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة التي قدَّمناها من قبل في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١].

* * *

---

(١) _ سورة آل عمران الآية (٥٥)

الدليل الثالث:

وجاهة السيد المسيح عليه السلام

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

فالآية تبين أن السيد المسيح عليه السلام سيكون وجيهاً في الدنيا وفي الآخرة، فإذا كانت وجاهة الآخرة لا ريب فيها فوجاهة الدنيا لم تحصل له بعد، ففي فترة قدومه الأولى، لم يكن الذين معه يتجاوزون الأحد عشر، لذا فتلك الوجاهة هي التي ستكون له عند عودته ثانية، فيؤمن به كل من بقي حيّاً تقريباً، فيصبح الملك العالمي للناس قاطبة **(يأتي على سحابة من المجد)** ويغدو للعالمين إماماً إذ يؤمُّ إليه الرجال، وإلى أمه عليها السلام النساء جميعهن.

كلام الكهل ليس بمعجزة إلاَّ: والآية الثانية وبحديث القرآن عن معجزاته عليه السلام بقضية تكليمه بالمهد فكلامه يعتبر بحق معجزة، أما أن

يكلم الناس كهلاً فليس بمعجزة، إلاَّ إذا غاب حيناً من الدهر يتجاوز أضعافاً مضاعفة من عمر الإنسان الوسطي، وبما تجاوز ألفي سنة ثم يعود ليكلِّم الناس بنفس العمر كهلاً: مجيؤه بعد عشرين قرناً تقريباً معجزة عظمى، وهو بنفس السن الذي توفاه الله به.

أما وقد تكلمنا عن مجيئه، فعلينا حتى يكمل البحث، أن نشرح الغاية التي يأتي من أجلها. إن القرآن جاء بأعلى مستوى وأكمله من التشريع والتنظيم والبرهان، وفي الحدود التي ارتضاها رب العالمين للبشرية، وهذه الحدود تبقى في المجال الذي لا ينصرف به الإنسان كلياً إلى الدنيا، وتمتص كل طاقاته الفكرية والنفسية والجسمية.

---

(١) _ سورة آل عمران الآيات (٤٥-٤٦)

فأرضية المجتمع الديني، والمناخ الذي يجب أن يعيش فيه الإنسان ويتلاءم مع معتقداته، هو مجتمع لا يتجاوز مستواه الحضاري مستوى التعقيد وامتصاص طاقات الإنسان لدنياه فقط، لأن التجاوز عن هذا المستوى يولد الشقاء والألم والظلم والتفرقة، تماماً كما نلحظه في هذا العصر، وكل زيادة على هذا المستوى، يعتبر فساداً وإفساداً، واطمئناناً إلى الدنيا، وانصرافاً عن الغاية التي جاء من أجلها الإنسان.

لذلك فالسيد المسيح عليه السلام عند مجيئه، لن يحمل معه إنجيلاً يستوعب حضارة هذا القرن، ولن يصحِّح القرآن الكريم، لأنه كتاب لا يدخل عليه الباطل، بل يأتي ليمحو الصدأ الذي حجب الناس عن القرآن الكريم من تلك التفاسير الضحلة، ومن كثرة التفاسير المضللة، المنقولة عن دسوس إسرائيلية وغيرها والمخالفة للقرآن كلام الله، مخالفات صريحة، والتي فرقت الناس إلى أحزاب وشيع، كل حزب بما لديهم فرحون، هذه الدعوة نفسها عندما أراد عليه السلام من قبل أن يجلو الصدأ الذي تراكم على التوراة، نتيجة التفاسير الباطلة والتحريف المقصود من علماء بني إسرائيل، ولكن عند مجيئه الثاني مهما يلقَ هذا الرسول الكريم من التحدي، من قبل بعض مقلِّدة علماء الأديان الثلاثة وفرِّيسيهم، أو من الذين يتبعونهم بغير علم، فالله سينصره حتماً، هو والذين آمنوا معه، وسيجعل عداءهم له حسرةً في قلوبهم إلى يوم يلقونه، وعندئذ سيحكم تعالى بينهم، وهو خير الحاكمين.

انتهاء جولات الباطل

إن الدين بدأ غريباً، فقد بدأ رسولنا محمد ﷺ بدعوته لقومٍ قد مزقت الخلافات وحدتهم، وأبعدت القبلية تضامنهم، وكانوا عبارةً عن قبائل متفرقةٍ، ودويلاتٍ تستخدمها دول أجنبية كبرى، وبين أظهرهم أمة تعالت عليهم بما لهم " أبناؤها " من ماضٍ مجيد، ويستفتحون عليهم بما يعتقدون بأنَّ رسولاً اسمه أحمد " أي أحمد الخلقْ أسماهم وأعلاهم " قد قارب زمانه، وبمجيئه سينتصرون على العرب،

ويأخذون ديارهم وأملاكهم، ويصبحون أسيادهم. هذا الوضع قبل أربعة عشر قرناً، "يشبه ضمناً وضعنا الحالي". فالأمة العربية خاصة، والإسلامية عامة، قد مزّقتها الخلافات إلى شيعٍ ودويلات متناحرة، تسيِّر قسماً منها دول استعمارية كبرى، وبين أظْهُرِها أمةٌ يتعالون علينا الآن بحاضرهم، وهم الآن كما كانوا بالأمس، ينتظرون ظهور سيدنا محمد ﷺ فهم الآن ينتظرون قدوم السيد المسيح في أرض الميعاد، فلسطين التي تجمعوا الآن بها، كما تجمعوا بعهد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة وخيبر، ليكون الملك العالمي. فالدين أصبح غريباً إذ ما من أحدٍ تقريباً يأمل أن تقوم للدين بعد اليوم قائمة، لأن عصر الأديان باعتقادهم قد ولّى منذ زمن بعيد، وإلى غير رجعة.

ألا إن الزمان قد دار دورته، وعاد الوضع كما بدأ. في هذا الزمان الذي كفرت الناس فيه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، سيظهر الدين غريباً كما بدأ قبل أربعة عشر قرناً.﴿... **وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[1].

فطوبى للمؤمنين الغرباء بقدوم الرسول، السيد المسيح عليه السلام، فقد آن أوان ظهوره حقاً وصدقاً، وذلك معلوم وظاهر لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

عندها: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**...﴾[2]: وهذه الآية الكريمة، دليل واضح على عودته، وإيمان أهل الكتاب به قبل موته عليه السلام.

* * *

---

(١) _ سورة التوبة الآية (٣٢)

(٢) _ سورة النساء الآية (١٥٩)

طوبى لمولود هذا الزمان

إن السيد المسيح ﷺ، لا يكاد يذكر بالقرآن الكريم إلا ومع ذكره دليل على عودته ثانية، وإن كانت الأدلة التي سقناها سابقاً، كافية لكل ذي لب، إلاَّ أننا أحببنا أن نستكمل البحث، وذلك لأهميته الكبيرة التي أولاها له القرآن الكريم.

* إن اسمه (ﷺ) لهو من أكبر الأدلة على عودته، وذلك لأن لكل مسمى من اسمه نصيب، أما الأنبياء الكرام، فلهم النصيب الكامل من أسمائهم التي سماهم الله تعالى بها.

فمثلاً سمّى الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ بهذا الاسم الكريم بما حوى من الكمالات جميعها، وبما انطوت عليه هذه النفس الكريمة العالية من المحامد كلها، فكان اسمه (محمداً).

أما السيد المسيح ﷺ، فقد أطلق الله تعالى عليه اسمين كريمين (المسيح عيسى) وكلمة المسيح: من المسح، ومسحَ الشيء أي: أزاله، وبما أن وظيفة كل رسول هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وبالتالي إزالة ومسح حب الدنيا من قلوبهم، وربطها بالله تعالى بمعيته.

وبما أنه بمجيئه أول مرة، لم يمسح الكفر من الأرض، فإنه ببعثته الثانية حتماً سيمسح الكفر من الكون، وكلمة عيسى مشتقة من (عسى) وكلمة عسى تعني احتمال حصول الشيء أو عدم حصوله مثال: عسى أن يأتي زيد، فاحتمال أن يأتي، أو لا يأتي، أما كلمة (عيسى) فمعناها حتماً سيأتي، وليس هناك احتمال، إذ يكون معنى اسمه الشريف بالتمام (عيسى المسيح) أي حتماً سيأتي ويمسح الكفر من الكون، وتكون له الوجاهة في الدنيا، بإيمان أهل الأرض به وهؤلاء المؤمنين التابعين له، سيكونون فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، كما في الآية الكريمة:

﴿... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢].

نقول، المنارة علمٌ للبر، أي برؤية المنارة نعلم بوجود البر، إن كنا تائهين بالبحار، فالمسيح عليه السلام، علمٌ للساعة: أي ظهوره دليل على قيام الساعة، فبمجيئه سينبئنا بحدوث زلزلة عظيمة، تشمل الأرض كلها، حيث تكون الحرب قد وضعت أوزارها. فهذه الزلزلة التي سيُعلمنا بها السيد المسيح عليه السلام، ستبتلع ما بقي من آثار الحرب المدمرة، ومن الإشعاعات الذرية والنووية.

* جاء ذكر السيد المسيح عليه السلام بسورة مريم، على إثر ذكر سيدنا يحيى عليه السلام، وذلك الترتيب في مسرى الآيات الكريمة، له مدلولات ذات معنى. حيث ورد في كتب اليهود المحرفة:

(أن سيدنا يحيى عليه السلام قد قُتل، وقطع رأسه)، وذكر عن النصارى: **(أن سيدنا عيسى** عليه السلام، **قد قتل على الصليب)**، فجاءت الآيات القرآنية داحضة تلك الأقوال، وناسفة تلك المزاعم الباطلة: ففيما يخص سيدنا يحيى عليه السلام قال تعالى: **﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾**[٣].

وفي الحديث الشريف: **(السلام أمان الله في الأرض)** [٤]، فالسلام أي الأمان على سيدنا يحيى يوم يموت، فمعنى ذلك أنه لم يجرؤ أحد على التعرض له، وقد عاش بعد أبيه، سيدنا زكريا عليه السلام، وقام مقامه بالإرشاد والهداية. والله تعالى بيَّن لنا بالآية أعلاه بأنه مات موتاً عادياً ولم يقل بأنه قتل أو ذبح، وما عدا ذلك، فهو

---

(١) _ سورة آل عمران الآية (٥٥)

(٢) _ سورة الزخرف الآية (٦١)

(٣) _ سورة مريم الآية (١٥)

(٤) _ أخرجه الترمذي عن أبي بكر الصديق.

دس خبيث لا أصل له. ثم ذكر الله عز وجل السيد المسيح عليه السلام، ولكن بصيغة أخرى، فحين بيّن الله تعالى أن سيدنا يحيى عاش بسلام ومات بسلام، ويبعث بسلام، مدافعاً عنه وعن سيرته الشريفة. جعل تعالى صيغة الخطاب عند ذكر سيدنا عيسى عليه السلام تكون من فمه الشريف بآية: ﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾[(١)]. وما ذلك إلا لأنه سيعود ثانية، ويقولها بنفسه، فلا يستطيع الكافرون أن يلمسوه بلمسة أذى، فهو رسول الله عليه السلام، وأنه لم يمت بعد بل هو وأمه عليهما السلام بمغارة كأهل الكهف، أما سيدنا يحيى عليه السلام، فإنه مات ولن يعود، فلذلك دافع عنه تعالى بكلمة وسلام عليه. كما أن السورة تحمل مدلولات بذكر هذين الرسولين الكريمين، ومقارنة لطيفة بسيرتهما، فبسيرة سيدنا يحيى عليه السلام قال تعالى: ﴿**وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن...**﴾. في يوم من الأيام: ﴿**..جَبَّارًا...**﴾: على الخلق: ﴿**.. عَصِيًّا**﴾[(٢)]: عمله كله ضمن أمر الله تعالى. أما بذكر سيدنا عيسى فجاءت الآية: ﴿**وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا...**﴾[(٣)]. على الخلق: ﴿**.. شَقِيًّا**﴾: أي محروماً من الخيرات والأعمال، فسيدنا عيسى عليه السلام سيأتي، وسيكون على يديه خيرٌ كثير، وأعمال عظيمة.

* لقد جاء ذكر سيدنا المسيح وأمه الصديقة عليهما السلام بسورتي "المؤمنون والأنبياء"، وعلى أثر ذكرهما، ترد هاتين الآيتين الكريمتين: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ، يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾[(٤)].

---

(١) _ سورة مريم الآية (٣٣)

(٢) _ سورة مريم الآية (١٤)

(٣) _ سورة مريم الآية (٣٢)

(٤) _ سورة المؤمنون الآية (٥٠-٥٢)

والآية الثانية: ﴿**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ، إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[١].

أي أن البشرية كلها ستصبح أمة واحدة، حين ظهورهما عليهما السلام، وسيؤم لهما كافة المؤمنين، حيث يؤم الرجال جميعاً بالعالَم لإمامهم سيدنا عيسى عليه السلام، والنساء تؤم بسيدتنا مريم عليها السلام والكل بمعيته عليه السلام.

ومن الملاحظ في الآيتين الآنفتين الذكر أن سيدتنا مريم عليها السلام ذكرها تعالى كآية ومعجزة للعالمين: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً...**﴾. و ﴿... **وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[٢]. فمتى تكون سيدتنا مريم آية أي معجزة؟ وهي ولدت لأبوين وعاشت كما يعيش عموم الناس ولم تأت بمعجزات.

إذن: لا تكون المعجزة معجزة عليها السلام إلا حين قدومها الثاني مع ابنها العظيم عليه السلام.

* قال تعالى في سورة المائدة: ﴿**لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا...**﴾[٣]. وهذا دليل قاطع بأنه عليه السلام لم يمت هو وأمه، فلو كانا ميتين لكان الخطاب بغير هذه الصيغة، إذ أن كلمة يهلك جاءت بصيغة المضارع، فلو كان ميتاً، لجاءت بصيغة الماضي أي: أهلك. وهذا واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

* رسول الله سيد الكون سيدنا محمد العظيم ﷺ خاطبه تعالى بآية صريحة قائلاً جل وعلا:

---

(١) _ سورة الأنبياء الآيات (٩١-٩٢)

(٢) _ سورة الأنبياء الآية (٩١)

(٣) _ سورة المائدة الآية (١٧)

﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾[1]. أما سيدنا المسيح عليه السلام، فلا توجد آية في القرآن الكريم تقول أنه مات، فلو كان ميتاً عليه السلام، لذكر تعالى ذلك بوضوح، كما ذكر تعالى على سيدنا محمد ﷺ، بل لكرره في أكثر من موضع، بسبب أن هناك أقواماً يدعون أن السيد المسيح إلّه، ولكن الآيات جاءت مبينة أنه نائم وأنه موجود هو وأمه، وأنهما في ربوة ذات قرار ومعين، وآيات أخرى داحضة للمزاعم بأنه إلّه. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ...**﴾[2].

الذي يأكل الطعام فقير وضعيف فهذا يكون إلّهاً! هل يكون الإلّه فقيراً وضعيفاً، كيف يُطعم غيره؟!﴿... **انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ...**﴾: ألا تكفي هذه الحجة عليهم﴿... **ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[3]. كيف يتحولون، الذي لا يأكل ليوم واحد، تذهب قوته، فكيف يُعين الخلق؟!

هذا ولو كان السيد المسيح عليه السلام ميتاً، لأضافها تعالى إلى تلك الآية كردٍ على من يعبد السيد المسيح، لكنه تعالى لم يقل ذلك، بل بيَّن سبحانه (بشرية السيد المسيح وأمه عليهما السلام) من خلال افتقارهما للطعام والشراب، ولم يتعرض لذكر الموت هنا.

* * *

ولمّا كان هبوط سيدنا آدم عليه السلام من الجنة السامية إلى دار العمل والنَصَب محطَّ خلاف عند أهل الكتب السماوية، حيث أنهم خطّأوا آبينا آدم عليه السلام ورموه بالمعصية والجحود، كما عزا إخواننا النصارى مجيء سيدنا عيسى عليه السلام ليكفِّر عنهم سيئاتهم

(١) _ سورة الزمر الآية (٣٠)

(٢) _ سورة المائدة الآية (٧٥)

(٣) _ سورة المائدة الآية (٧٥)

ويفتدي بدمه الخطيئة الأولى لآدم عليه السلام (وحاشاه)، لذا كان لزاماً تبيان الحقيقة في قضية هبوط سيدنا آدم عليه السلام وأسبابها:

* * *

الفصل الخامس

في هذا الفصل:

- **المعلم الأول سيدنا آدم ﵇أبو البشرية ومعلمها.**
- **حقيقة الشفاعة.**
- **كيف نسي سيدنا آدم ﵇وصية الله تعالى واستطاع الشيطان أن يغرّه؟!**
- **غاية قصة سيدنا آدم ﵇.**
- **هل كان خروج سيدنا آدم ﵇إلى هذه الدنيا ومجيء بني الإنسان من بعده إليها أحسن، أم أن بقاءه في الجنَّة وخلق بني الإنسان في الجنَّة، رأساً دون خروجهم إلى الدنيا أحسن؟ وأي الحالين يعود على الإنسان بالسعادة والخير، أكثر من الآخر؟**

* * *

المعلِّم الأول

سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام أبو البشرية ومعلِّمها

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[1]

وقد ذكر لنا تعالى في القرآن طائفة من قصص الأنبياء تتجلى فيها طهارة تلك النفوس المؤمنة التي عصمت بإقبالها الدائم على ربها من كل معصية، أدركها من أدركها من أهل التقوى والإيمان، ورأوا ما تشير إليه تلك القصص الكريمة من سموّ هؤلاء الرجال، وما قاموا به من جليل الأعمال، وما امتازوا به من كريم الأخلاق وعالي الصفات. والحقيقة أنه لا يقدِّر أهل الإيمان إلاَّ أهل الإيمان، ولا يعرف الفضل إلاَّ ذووه، ولا يدرك عظمة ما في القرآن من عبر وأمثال، إلا كل قريب من الله متحلّ بحلية الكمال.

قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ...﴾**[2].

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[3].

وإليك الآن ما بيَّنه الله تعالى عن سيدنا آدم عليه السلام، في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[4].

والملائكة: جمع مَلَك، وهم نوع من المخلوقات، لمَّا عرض الله تعالى على الأنفس في عالم الأزل أن يمنحها حرية الاختيار أحجموا، كما أحجم غيرهم عن الدخول في ذلك الميدان الذي دخله الإنسان، ورضوا ألا يكون لهم إطلاق وحرية

---

(١) _ سورة البقرة الآية (٣٠)

(٢) _ سورة يوسف الآية (١١١)

(٣) _ سورة العنكبوت الآية (٤٣)

(٤) _ سورة البقرة الآية (٣٠)

في الاختيار. لقد ملَّك هؤلاء اختيارهم لله، ولذلك سُمُّوا ملائكة. وبما أنهم ليس لهم أجسام كما للإنسان، لذلك هم مجرَّدون عن هذه الشهوات المادية التي يميل الإنسان إليها، وليس لهم تلك الحاجات الجسمية، فلا يأكلون ولا يشربون، ولا يتزوجون ولا يتوالدون، ولا يميلون لشيء من هذه الأشياء.

ولمَّا قال ربُّك للملائكة:

﴿... **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**...﴾: طمعوا أن ينالوا ذلك المقام، لأن الخليفة معناه ذلك المخلوق العالي الذي يكون أهلاً للنيابة عن الله تعالى في تبليغ عباده أوامره، وتعريفهم به تعالى والدخول بهم عليه، فبما اكتسبه عليه السلام من خالقه من رأفة ورحمة، وعلم وحكمة، وعدل وحب للحق، وسموٍّ في الخُلُق، وغير ذلك من صفات الكمال، صار أهلاً لأن يقوم بذلك المقام، فيكون خليفة الله في أرضه، ويُقيم العدل ويحكم بين الناس بالحق، وينشر الخير والصلاح في الأرض.

وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك، في قوله تعالى مخاطباً سيدنا داوود عليه السلام:

﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**...﴾[1]

والخليفة كما يتولَّى منصب الحكم، يتولى منصب الدلالة والإرشاد، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**...﴾ [2]، إذ بما اكتسبه من دلالات ربه وأسمائه الحسنى، وبما انطبع في قلبه من حب لخالقه وشغف به، أضحى خليقاً بأن يكون وسيطاً بين الخلْق وبين الله، يبلِّغهم أوامره تعالى ويعرِّفهم بكمالاته وأسمائه الحسنى، ويرشدهم إلى طريق معرفته، فإذا ما ارتبطت نفوسهم به وأقبلت بمعيَّته، دخل بتلك الأنفس على الله تعالى، وكان لها سراجاً منيراً ترى به طرفاً من تلك الأسماء الإلّهية، وتشاهد الكمال الإلّهي، فتحبّه وتعشقه، وهنالك تقتبس به من الله نوراً، ترى به الخير خيراً والشر شرّاً.

(١) _ سورة ص. الآية (٢٦)

(٢) _ سورة الأنعام الآية (٨٩)

فالخليفة والحالة هذه هو من الخلْق، بمنزلة الأب العطوف على بنيه، أو الأخ الراشد من إخوته وذويه، أشفقهم وأعطفهم عليهم، وأرأفهم وأرحمهم بهم، وأنفعهم لهم، وهو بهذا أحب الخلْق إلى الله، وأحظاهم عنده، وأرفعهم شأناً إليه، وأقربهم زلفى لديه.

ذلك هو مقام الخلافة الذي أهَّل الله تعالى له الإنسان، وطمعت به الملائكة الكرام.

وكان خلْق الجن قد سبق خلْق الإنسان، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾[1]. وحيث أن إبليس وذريته أفسدوا في الأرض بإعراضهم عن الله، لذلك خاطب الملائكة ربَّهم بنفوسهم قائلين: ﴿.. **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**...﴾: أي أيصدر من هذا المخلوق ما صدر من الجن، ويفعل ما فعله إبليس وذريته من قبل؟﴿... **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**...﴾: أي نجعل نفوس عبادك تسبح في فضلك بما نلقيه فيها من التعريف بإحسانك، وما تُحمد عليه من عظيم عنايتك. فالمَلَك يُلقي الإلهام بنفسك: يا عبد الله ارجع إلى الله، فكِّر ابحث عن سعادتك، يا نفس اسمعي كلام الله، انظري في الكون استدلي على الله. ﴿.. **وَنُقَدِّسُ لَكَ**..﴾: أي: وبهذا نجعل نفوسهم طاهرة بإقبالها عليك، أي: نطهِّر نفوسهم لك، نسبِّحهم بما تُحمد عليه، ونطهِّر قلوبهم لتكون صالحة للإقبال عليك.

فإن جعلتنا خلفاء ظهر منا الخير لعبادك، وكنا وسطاء في إيصال نفوسهم إليك والدخول بها عليك. وهنالك خاطبهم ربُّهم بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿... **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[2].

---

(١) _ سورة الحجر الآيات (٢٦-٢٧)

(٢) _ سورة البقرة الآية (٣٠)

أي: إني أعلم من قابلية هذا الإنسان وأهليته ما لا تعلمون. آدم أعلى منكم، وأرقى منكم، وكذلك المؤمن الكامل، أرقى من الملائكة الكرام. فالإنسان لديه أهلية لأن يكون أعلى من كل شيء، لكن الكافر أحطُّ من كل شيء، هذا والحيوان جاء وأدَّى الوظيفة، فهو يُجازى في الدنيا على شذوذه عنها، وغداً لا نار له، جزاؤه هنا فقط، لكن الكافر غداً للنار: فالكلب خير من كثير من الخلْق ممَّن كفروا.

وخلق الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام وأخرجه إلى هذا الوجود، وقد عظَّم عليه السلام فضل خالقه عليه، وقدَّر إحسانه إليه، وبهذا التقدير والتعظيم اتَّجهت نفسه إلى الله تعالى مقبلة عليه.

وبما أن النفس البشرية مثلها كمثل المرآة الصافية، حيثما وجَّهتها انطبعت فيها آثار ما اتَّجهت إليه، لذلك انطبعت في نفس سيدنا آدم عليه السلام انطباعات من الأسماء الإلَهية، وبهذا صار له علم بها كلها، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا...**﴾[1]: **الرحيم، العليم، القدير، الحليم**.. أسماء الله الحسنى: تلك هي الأسماء التي علَّمها الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام إنما هي أسماء الحضرة الإلَهية التي تجعل ممَّن سيكون خليفة الله في الأرض، حقيقاً بذلك المقام جديراً بهذا المنصب، فإنَّ من صار له علم باسم الله تعالى الرحمن، بما انطبع في نفسه من الرحمة الإلَهية، يضحي جديراً بأن يكون خليفة الله في خلْقه، قال تعالى مشيراً إلى هذه الناحية مخاطباً رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[2]. ﴿**لَقَدْ**

(١) _ سورة البقرة الآية (٣١)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (١٥٩)

جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

فبما انطبع في نفس رسول الله ﷺ من الرحمة التي اكتسبها بإقباله على خالقه، صار ليّناً مع الخلْق، لطيفاً في معاملتهم، حريصاً على هدايتهم ودلالتهم، رؤوفاً رحيماً بهم، وذلك ما يتطلَّبه مقام الخلافة من صفات تحقَّقت في نفس سيدنا محمد ﷺ، وفي نفس سيدنا آدم عليه السلام من قبل، لا بل في نفس كل رسول ونبي ومرشد، كلٌّ على حسب إقباله على خالقه وقربه منه، ومن لم يحصل له الإقبال على الله، ولم تنطبع في نفسه تلك الأسماء الإلّهية، فلم يكتسب من خالقه الرحمة والرأفة، والعدل والحلم والحكمة، وغير ذلك من الصفات الكاملة، فليس أهلاً لأن يقوم في ذلك المقام. وقد أشار تعالى إلى تحقُّق هذه الصفة في نفوس أصحاب رسوله الكرام في قوله تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ...﴾[2].

ونعود إلى الكلام عن سيدنا آدم عليه السلام فنقول:

لقد صار لسيدنا آدم عليه السلام علم بأسماء الله تعالى **الرحمن والعادل والرؤوف والحليم والغفور**.. إلى غير ذلك من الأسماء الإلّهية، بما انطبع في نفسه الصافية منها، فكان رحيماً وكان عادلاً وكان حليماً وكان.. وبذلك استحق لأن يكون أهلاً لذلك المقام.

أما ما يذهب إليه أناس من أن الله تعالى علَّم سيدنا آدم عليه السلام القصعة والقصيعة، وأسماء الحيوانات والنباتات، وغير ذلك من الموجودات، فذلك بعيد كل البعد عن ذلك المعنى العالي الذي تشير إليه الآية الكريمة، كما أنَّ مسرى الآيات ينفي ذلك نفياً قطعياً، فإن المقام الذي يقوم فيه سيكون خليفة الله في أرضه وهادياً

---

(١) _ سورة التوبة. الآية (١٢٨)

(٢) _ سورة الفتح الآية (٢٩)

ومرشداً لعباده، لا يتطلَّب منه أن يعلِّمه الله اسم القصعة والقصيعة، إنما يتطلَّب منه أن يكون مصطبغاً قلبه بالرأفة والرحمة، وغير ذلك من الصفات الكاملة.

ثم إن الله تعالى أمر سيدنا آدم عليه السلام أن يعرض على الملائكة الأسماء الإلَهية التي اصطبغت نفسه بصبغتها، وانطبعت بانطباعات منها.

وعرض سيدنا آدم عليه السلام على الملائكة تلك الأسماء، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿.. **ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ**...﴾: فسألهم سيدنا آدم عليه السلام عن معاني أسماء الله الحسنى: **القدير، الحليم، العليم، الرحيم**..

وقد طلب تعالى من الملائكة أن ينبئوه بما تدلُّ عليه تلك الأسماء:

﴿... **فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1]: أي: أخبروني بمدلولات ومعاني الأسماء التي عرضها عليكم آدم، فما المعنى المنطوي مثلاً تحت اسم **المهيمن والجبَّار والقهَّار**.. إلى غير ذلك من الأسماء، اسماً بعد اسم: ﴿.. **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾: في أنكم أهل للخلافة. فما كان منهم إلاَّ أن: ﴿**قَالُواْ سُبْحَانَكَ**...﴾[2]: ما أعظم كمالك وما أعظمك!

﴿... **لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**...﴾: أي: لا علم لنا أكثر ممَّا علَّمتنا، فقد أجبنا بحسب ما علمناه بإقبالنا عليك، وبحسب صدقنا معك: ﴿.. **إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ**...﴾: بنا وبدرجة علمنا بأسمائك: ﴿.. **الْحَكِيمُ**﴾: عملك كله ضمن حكمة. فأنت الحكيم بفعلك واختيارك. فما قلنا ما قلناه اعتراضاً، إنما طمعاً في ذلك المقام، طمعاً بغية التقرُّب إليك، وأنت أدرى وأعلم بمن هو بهذا المقام أجدر وَأَلْيَق.

هنالك أمر الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام أن يُعرِّف الملائكة بتلك الأسماء الإلَهية التي عرضها عليهم: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ**...﴾: تكلَّمْ عن أسمائي الحسنى التي شرحوها وتكلَّموا عنها: أي: عرِّفهم بالأسماء التي عرضتها عليهم:

(١) _ سورة البقرة الآية (٣١)

(٢) _ سورة البقرة الآية (٣٢)

﴿.. **فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ...**﴾: فلمَّا عرَّفهم آدم عليه السلام بالأسماء الإلٓهية المعروضة عليهم مفصّلاً مبيّناً عِلْمَه بتلك الأسماء الإلٓهية، وتفوُّقه على الملائكة في ذلك العلم والبيان، فبيَّن ما ينطوي فيها من كمالات الله تعالى بحسب إقباله العظيم على ربِّه، كلاماً سبق به الملائكة أجمعين، فظهر تفوّقه عليهم، هنالك خاطبهم ربُّهم بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿.. **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...**﴾: آدم أعلى منكم: ﴿.. **وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ...**﴾: الآن من الإقرار بالحق لآدم: ﴿..**وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[1]: من طلبكم الخلافة لأنفسكم.

والغيب: كل ما غاب علمه عن المخلوق. فكل ما وقع وما سيقع، وكل ما أوجده الله تعالى وما سيوجده في السماوات والأرض، مما لا علم للمخلوق به ولا إطلاع له عليه، إنما هو غيب. والله تعالى يعلم غيب السماوات والأرض لأنه تعالى هو الخالق الموجد، وكل ما فيهما قائم به تعالى مستمد الحياة منه، متوقِّف بقاؤه ووجوده وحدوثه على دوام إمداد الله وتجلِّيه.

وهو تعالى عليم بكل نفس وبما انطوت عليه، فقد علم تعالى ما انطوت عليه نفوس الملائكة من العلم، والوظيفة التي تتناسب مع علمهم، كما علم تعالى أهلية هذا الإنسان العظيم عليه السلام وقابلياته.

أما المخلوق فلا علم له إلاَّ بما يُطلعه الله تعالى عليه، فقد يغيب عنه مثلاً ما في نفسه وقد تخفى عليه درجة علمه ومعرفته، كما وقع للملائكة لمَّا طلبوا الخلافة، إذ ظنُّوا أن لديهم الأهلية لذلك المقام، وغاب عنهم ما عليه سيدنا آدم عليه السلام من سبق وتفوُّق في ذلك المضمار، وهنالك أراهم الله تعالى الحقيقة، وبيَّن لهم درجة علمهم، وأوقفهم على جلية الأمر. ويتبيَّن لنا من كلمة ﴿...**وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾: الواردة في قوله تعالى: ﴿.. **وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[2]: أن قول الملائكة عندما قالوا:

---

(١) _ سورة البقرة الآية (٣٣)

(٢) _ سورة البقرة الآية (٣٣)

﴿.. **قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...**﴾[1]: إنما كان قولاً نفسياً. فقد قالوا ذلك في سرِّهم وكتموه في أنفسهم، فاطّلع الله تعالى عليه وخاطبهم به وأراهم من علم سيدنا آدم عليه السلام ما أراهم، حتى جعل نفوسهم تقرُّ بحكمته تعالى وتخضع لاختياره وعلمه، مستسلمة له مذعنة إليه.

وكما أن كلمة ﴿.. **وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ...**﴾: تبيّن لنا علمه تعالى بما أبداه الملائكة الآن من الإقرار بالحق لآدم عليه السلام، وأظهروه من التسليم لله والإقرار بحكمته في اختياره، فكذلك كلمة ﴿...**وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾: من طلبكم الخلافة لأنفسكم، وتبيِّن لنا علمه تعالى بما كتموه وأسرُّوه في أنفسهم.

وقد ذكر لنا تعالى هاتين الكلمتين ليبيِّن لنا، أن علمه بالسر الذي يخفيه المخلوق في نفسه لا يختلف عند الله تعالى عن الجهر الذي يبديه بلسانه، فالجهر والسر عند الله تعالى سيَّان. قال تعالى: ﴿**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾[2].

﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[3]. والآن وبعد أن بيَّنا المراد من كلمة ﴿.. **الأَسْمَاء...**﴾[4] الواردة في الآيات السابقة لابدَّ لنا من الإجابة على سؤال نستطيع أن نلخِّصه بما يلي: فإذا أوَّلنا قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ...**﴾[5]: أي: أنبئهم بأسمائي التي عرضتها عليهم، مع أن الكلمة قد وردت في الآية الكريمة: ﴿.. **بِأَسْمَآئِهِمْ..**﴾ ولم ترد بأسمائي فنقول: رأينا أن الهدف الذي ترمي إليه القصة، والغاية التي وردت من أجلها، إنما هي بيان سمو سيدنا آدم عليه السلام وتفوّقه على الملائكة الكرام في العلم بأسماء الله، ذلك التفوُّق الذي جعله خليقاً

---

(١) _ سورة البقرة الآية (٣٠)

(٢) _ سورة طه الآية (٧)

(٣) _ سورة الملك الآيات (١٣-١٤)

(٤) _ سورة البقرة الآية (٣١)

(٥) _ سورة البقرة الآية (٣٣)

بمقام الخلافة. وقد كنا بيَّنا أن ذلك الهدف يقتضي بأن يكون المراد من كلمة ﴿.. **الأَسْمَاء...**﴾: الواردة في هذه القصة إنما هو الأسماء الإلّهية، وإن مسرى القصة ينفي ما سوى ذلك من المعاني التي تتناولها كلمة: ﴿.. **الأَسْمَاء...**﴾: نفياً قطعياً، ولهذا فتكرار كلمة ﴿.. **الأَسْمَاء...**﴾: في هذه القصة إنما يعني الأسماء الإلّهية دون سواها، إذ هي موضوع الخطاب ومحور القصة.

وكلمة ﴿... **بِأَسْمَآئِهِمْ..**﴾: لا تعني والحالة هذه أسماء الملائكة، إنما تعني الأسماء الإلّهية المعروضة عليهم، لأن معرفة سيدنا آدم عليه السلام بأسماء الملائكة لا يزيده عند الله رفعة، ولا يجعله أسمى من الملائكة منزلة.

* * *

ولعلَّك تقول:

لماذا لا نؤوِّل كلمة ﴿... **فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ**...﴾[1]: أي: بما عرفوه هم من أسماء ربهم فنقول: لو أوَّلنا معنى الآية بهذا التأويل، لما كان لسيدنا آدم عليه السلام تلك المكانة التي سما بها متفوِّقاً على الملائكة جميعاً، لأنه إنما أنبأهم بشيء عرفوه من قبل وأدركوه، وبهذا لا يكون خليقاً بأن يستحق الخلافة ويكون أسمى منهم مقاماً، لأنه لم يزد على شرح الملائكة للأسماء المعروضة عليهم شيئاً، وما هو بذلك البيان إلاَّ كواحد منهم، ولكنه إنما أنبأهم بتلك الأسماء الإلَهية المعروضة عليهم، مبيِّناً فيها بياناً عالياً تفوَّق به عليهم جميعاً.

بقي علينا أن نبيِّن الفرق في المعنى بين كلمة ﴿...**بِأَسْمَآئِهِمْ**..﴾: حسبما وردت في الآيات الكريمة، وبين كلمة "**بأسمائي**" التي جعلناها موضوعاً لسؤالنا الذي نحن بصدده فنقول: لو أن الخطاب في الآية الكريمة قد جاء "**أنبئهم بأسمائي**" بدلاً من ﴿.. **أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ**...﴾: لاختلف المعنى اختلافاً كلِّياً، لأن كلمة "**أنبئهم بأسمائي**" معناها أنبئهم بكل اسم من أسمائي على وجه الإحاطة.

وبما أنه ليس باستطاعة مخلوق أن يحيط باسم الرحمن، فيعلم مبلغ رحمة الله تعالى فيُنبِّئ الخلْق بها، ولا يستطيع أن يحيط أحد باسم العليم، فيعلم علم الله تعالى وينبئ الخلْق به، وكذا سائر الأسماء الإلَهية، ولذلك لم ترد الآية "**أنبئهم بأسمائي**" إنما وردت ﴿.. **أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ**...﴾: أي: بأسمائهم التي عرضتها عليهم والتي شرحوها هم مبيِّناً مبلغ علمك منها، وما ينطوي فيها من الكمال بحسب إقبالك العظيم.

والحقيقة أنه لا يعلم أسماء الله إلاَّ الله تعالى، ولا يحيط أحد بها علماً، إذ لا حدَّ لها ولا انتهاء، وكل ما في الأمر أن الأسماء الإلَهية إنما يشاهد الإنسان منها بقدر

---

(١) _ سورة البقرة الآية (٣٣)

قربه من الله تعالى، ويتوسَّع في تعريف غيره برحمة الله ورأفته وعلمه وسائر أسمائه، وذلك إلى حدٍ ما، والله واسع عليم.

فكلَّما وصلت إلى درجة من العلم بأسماء الله، فهي أوسع وأوسع، وكلما بلغت مرتبة في ذلك المضمار، فربّك سبحانه أعلى وأرفع، وفوق كل ذي علمٍ عليم.

أما وقد ظهر للملائكة الكرام سبْق سيدنا آدم عليه السلام في العلم بأسماء الله سبْقاً فاقهم فيه جميعاً، هنالك أمرهم الله تعالى أن يُقبلوا عليه، بصحبة آدم عليه السلام، فيتَّخذوه سراجاً منيراً لنفوسهم، وإماماً لهم في إقبالهم عليه تعالى، لذلك أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام، قال تعالى﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ**...﴾[1]: اطلبوا منه "بواسطته" العلم والمعرفة، اربطوا نفوسكم معه لتدخلوا عليَّ، فتشاهدوا مشاهدات أعلى وأجلَّ من مشاهداتكم: ﴿.. **فَسَجَدُواْ**...﴾: كلهم: ﴿.. **إِلاَّ إِبْلِيسَ**...﴾: لجهله، إذ لم يكن يعرف شيئاً عن الله.

أبلس عليه الأمر فما عرف عن الله إلاَّ أنه خالق: ﴿.. **أَبَى**...﴾: عن السجود، قال أنا أكبر من آدم وأعظم منه: ﴿.. **وَاسْتَكْبَرَ**...﴾: عن آدم: ﴿.. **وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾: ما فكَّر بآيات الله، لو فكَّر وعظَّم، لخضع لآدم ونال من الكمالات والسعادة ما نال.

ولعلَّك تقول: ما هو هذا السجود الذي أمر الله تعالى به ملائكته؟ وهل يكون السجود لأحد غير الله تعالى فنقول:

السجود: هو الطلب المقرون بالخضوع النفسي والتقدير. فالسجود لله تعالى هو طلب المعونة منه والإمداد، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع عديدة من القرآن الكريم، كما بقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي**

---

(١) _ سورة البقرة الآية (٣٤)

الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ...﴾[١]

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[٢].

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[٣]: فما سجود الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، وما سجود من في السماوات ومن في الأرض لله إلا خضوعهم له تعالى مفتقرين إليه، طالبين منه دوام الإمداد بالحياة، إذ لو أن هذا الإمداد الإلٓهي انقطع عنهم طرفة عين لزالوا وانعدموا ولم يبقَ لهم وجود ولا أثر، فكل ما في الكون ساجد لله مستديم الاستمداد منه والإقبال بنفسه عليه.

وهنالك سجود آخر وهو السجود لمن تُعظِّم شأنهم وعلمهم لتستزيد منه، وبهذا التعظيم وطلب المزيد منه، ترتبط نفسك بنفسهم، فإن كانوا مؤمنين بالله، دخلت من بابهم عليه ﷺ وحصل لك الشهود لكمال الله وتلك هي الشفاعة:

حقيقة الشفاعة: إن النفس البشرية بفطرتها مجبولة على تقدير الكمال لكن هذا التقدير والتعظيم يتطلَّب من النفس عيناً تستطيع أن ترى بها وتشاهد، إذ بعين الرأس نرى الأشياء الظاهرة بواسطة الأنوار المادية كنور الشمس والقمر والكهرباء ووسائط الإنارة.

أما عين القلب، قلب النفس، فإنما ترى بنور الله ونور رسوله ﷺ، نور دائمي أبدي متعاظم، ما هذه الأنوار المادية تجاهه إلا أنواراً بسيطة ضئيلة تكاد تجاهه لا تكون شيئاً مذكوراً، وهي أثر بسيط من أنوار الخالق العظيم جلَّت عظمته وعَظُم سلطانه وباهر لألاء سناء نوره المدسَّم بالغبطة الإلٓهية والشفاء النفسي العذب

---

(١) _ سورة الحج الآية (١٨)

(٢) _ سورة الرعد الآية (١٥)

(٣) _ سورة الرحمن الآية (٦)

الطيِّب المذاق. فإذا أقبلت النفس على الله بالصلاة واصطبغت بالكمال وتحلَّت به، فقد أضحت لها هذه الإمكانية وتفتَّحت فيها تلك العين التي تُمكِّنها من رؤية الكمال ومشاهدته، وينظر هذا المؤمن فيمن حوله وتقع عينه على أهل الكمال ويرى ما هم فيه من مسايرة له في هذا الطريق السامي فيحبُّهم، وكلَّما رأى أحداً أكثر منه في الكمال سبْقاً كان أكثر له تقديراً وتعظيماً وأكثر له حبّاً وعشقاً، وحيث إن رسول الله ﷺ هو أسبق المؤمنين كافة في هذا المضمار، وحيث إنه ﷺ سيّد الكاملين قاطبةً وأعلاهم مقاماً وأقربهم إلى الله زلفى، لذا تجد هذا المؤمن بما اصطبغ به وبما اكتسبه من الكمال من ربِّه يحبُّ رسول الله ﷺ ويقدِّره ويعزِّره ويوقِّره، فليس من مخلوق لديه أرفع منزلة ولا أسمى مقاماً ولا أجلّ شأناً من رسول الله ﷺ، فإذا سمع بذكره هاجت كوامن المحبّة في قلبه وسَرَتْ كوميض البرق نفسه نحو رسول الله ﷺ، فإذا هي مصاحبة له ومرافقة لنفسه الشريفة، وأحوال المحبِّين أعظم من أن تُشبَّه بشيء أو تُمثَّل به.

وما يزال هذا المؤمن يتدرَّج في حبِّ رسول الله ﷺ، وما تزال صلته به ﷺ وصلاته عليه في ازدياد وارتقاء، وما يزال مُتقدِّماً في طريق التقدير والتعظيم والإجلال، حتى يصل لحال تشتبك به النفسان برابطة التقدير والمحبّة والإجلال لرسول الله ﷺ وتلك هي عين الشفاعة، ونفس رسول الله ﷺ هي دوماً مستغرقة في حضرة الله عندها يكون هذا المستشفع أهلاً لأن يدخل بمعية رسول الله ﷺ على الله، وهنالك وفي مثل هذه اللحظة يرى بنور رسول الله ﷺ، وإن شئت فقل بمن أرسله الله تعالى سراجاً منيراً ورحمةً للعالمين، نور الله الذي به يرى طرفاً من أسماء الله فيهيم بما رأى حبّاً ويخرّ في حضرة الله تعالى ساجداً ويفنى في رؤية الأسماء الإلّهية فناءً كلِّياً، إنه يرى اسم الرحمن وقد غمر برحمته التي لا نهاية لها الكائنات جميعها، ويرى اسم الرؤوف وقد أحاطت رأفته بالمخلوقات كلّها، ويرى من أسمائه تعالى

الحكيم والعليم والعلي الكبير، وغير ذلك من الأسماء ما تجعله يستغرق بها استغراقاً، ويستسلم لهذا الرب الرؤوف الرحيم استسلاماً كلّياً، وتكون صلته برسول الله ﷺ وصلاته عليه قد أوصلته إلى هذا الفضل الإلّهي العظيم والشهود العالي والغبطة الأبدية.

فلعمري تلك هي الشفاعة الحقّة، إنها شفاعة حب وصحبة نفسية لتلك النفس العالية الكريمة مأخوذة من **الشفع:** وهو أن يقارن شيء شيئاً ويزاوجه ملازماً إياه، وإلى هذه الصلة النفسية برسول الله ﷺ وإلى هذه الشفاعة الحقَّة وهذا الارتباط أشارت الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[(١)]. صلُّوا عليه أي: صِلوا أنفسكم بنفسه الشريفة ﷺ، ليعرج بكم للحضرة الإلّهية ذلك لأن الصلاة صلة بين العبد وربه ولا تتم إلاَّ بالوسيط ﷺ، والآية ﴿**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ...**﴾[(٢)]. الصلاة لا كما يصلِّي الناس صلاة حركات فقط، الصلاة الصحيحة التي يكون فيها رسول الله في نفسك، تدخل بمعيته على الله. هذه هي الصلاة بحقيقتها. ولم يقل تعالى: "إذا كنت معهم".. إذاً الصلاة الصحيحة تتم بالشفاعة برسول الله ﷺ فبمعيته تحصل الصلة بالله. الصلاة يجب أن يكون رسول الله ﷺ بنفسك، إذ يتم الدخول على الله بصحبته وشفاعته ﷺ الذي أرسله ليردّك إليه تعالى، يعلِّمك ﷺ الصلاة بهذه الشفاعة بينك وبينه فيقول لك بعد: (بسم الله الرحمن الرحيم): ﴿**الْحَمْدُ للهِ...**﴾: يا أخي: ﴿**..رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[(٣)]: هذه هي الصلاة عندما يُملي عليك أوامر الله فتركع طائعاً خاضعاً لله العظيم وتسجد طالباً المعونة من الله على طاعة الله. وأنه لولا تلك الصلة والصحبة

(١) _ سورة الأحزاب الآية (٥٦)

(٢) _ سورة النساء الآية (١٠٢)

(٣) _ سورة الفاتحة الآية (٢)

النفسية برسول الله ﷺ، ولولا الصلاة عليه لما كان لهذا المؤمن هذا السمو والعروج ولما حصلت له هذه الرؤية والشهود ولما سلَّم لله تسليماً.

ويرجع المؤمن من تلك الرحلة النفسية بالصلاة وقد أضاء في نفسه قبس من نور الله أوقده في قلبه حبّه لخالقه، بسبب ما رآه من كمال الله تعالى، وما شاهده من عطفه وحنانه ورأفته ورحمته بسائر عباده، والحق أن المحبة لا تكون إلا بعد الشهود والرؤية، ولكن أتدري ماذا يفيد المؤمن من هذا النور الإلٓهي الذي سطع في قلبه؟

إنه يرى بهذا النور الحقائق المستكنَّة من وراء الصور فإذا هو لا يغتر بمظاهر الأشياء ولا تخدعه صور الرجال، لقد تفتَّحت منه عين البصيرة وأضحى ينظر بنور الله، فإذا هو فاروق يفرّق بين الخير والشر، ويميّز الحق من الباطل، يرى الخير خيراً فيحبّه ويهواه ويميل إليه، والشر شرّاً فيعافه ويأنف منه ويزهد فيه، وتلك هي المنزلة السامية التي يجب أن يتبوَّأها كل إنسان وتلك هي التقوى بالشفاعة التي حث الله تعالى المؤمنين وحضَّهم عليها.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[(١)].

﴿**يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾[(٢)]. وهكذا فالتقوى إنما هي استنارة بنور الله وأثر من آثار استشفاعك برسول الله ودخولك بمعيته ﷺ في حضرة الله تعالى، لقد أضحت نفسك مستنيرة بنور الله وكان هذا النور الإلٓهي وقاية لك من السقوط في مهاوي الضلال والوقوع في المهالك والشرور، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

---

(١) _ سورة الحديد الآية (٢٨)

(٢) _ سورة الأنفال الآية (٢٩)

فالشفاعة: هي حال من الأحوال النفسية. فالرسول ﷺ الذي أقبل على ربِّه أعظم وأسمى إقبال، هذا الرسول الذي يتوارد عليه أعظم تجلٍ من الله، وأشد نور وإمداد، إذا توجَّه بنفسه لأصحابه الذين أقبلوا عليه وصدَّقوا برسالته وبما جاءهم به عن الله، فهنالك يسري ذلك النور الإلّهي، بواسطة الرسول ﷺ إلى أصحابه والمؤمنين به، ويكون الرسول العظيم بهذا الحال وسيطاً بين الله وخلقه، ووسيلة تخفِّف من شدة ذلك التجلي، فتتمكن الأنفس من تقبُّله وتحمُّله. وهذه هي (**حقيقة الشفاعة**).

قال تعالى﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ...**﴾[١].

وليست الشفاعة للعصاة ولا لأهل الكبائر. ولو أن الله تعالى تجلَّى مباشرة على قلوب الناس، ومن دون وساطة الرسول ﷺ، لتصدّعت نفوسهم، فلم تقوَ على تحمّل ذلك التجلي الإلّهي، ولصُعِقوا وانجذبت عقولهم من ذلك النور كما صُعِق صحب سيدنا موسى عليه السلام الذين لم يقدِّروه بالميقات. وربُّك حكيم، ولذلك انتخب الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين كانوا أشد الناس حبّاً له، وأكثرهم تحمُّلاً لنوره، وسطاء بينه وبين عباده. ومن رحمة الله وحنانه على خلقه أن أمر الرسول ﷺ بأن يتَّجه بنفسه الشريفة إلى الذين آمنوا فيكون سبباً في سريان ذلك النور الإلّهي إلى قلوبهم، ووسيطاً بينهم وبين ربّهم، وهنالك وبهذا النور تحصل لهم التزكية والمغفرة وينالون الشفاء النفسي، قال تعالى: ﴿.. **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٢]. فما سجود أخوة سيدنا يوسف عليه السلام وأمه وأبيه له، إلاَّ تعظيمهم علمه علمه وتقديره من بعد أن رأوا من سبقه إيَّاهم في العلم والإيمان، وبهذا التعظيم والتقدير

(١) _ سورة الإسراء الآية (٥٧)

(٢) _ سورة التوبة الآية (١٠٣)

ارتبطت أنفسهم به، مقبلة معه على الله، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا...**﴾(١).

ويؤيد هذا المعنى أيضاً ما ورد عن سجود السحرة لسيدنا موسى عليه السلام، بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ، فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ، وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**﴾(٢).

فهؤلاء السحرة لما رأوا من سيدنا موسى عليه السلام ما أبطل سحرهم، على الرغم من كثرة عددهم وقوّة كيدهم، عظَّموا علم سيدنا موسى عليه السلام وقدَّروه، وأقبلت نفوسهم عليه خاضعة لعلمه، وهنالك وبهذا الإقبال النفسي عليه، تبدَّت لهم من وراء تلك النفس الصافية الطاهرة الحقائق بادية ظاهرة، فما أن أُلقوا ساجدين حتى: ﴿**قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾(٣). ولما هدَّدهم فرعون بالتعذيب والتنكيل والتصليب، خاطبوه بما شهدت نفوسهم من الحق غير عابئين: ﴿**قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى**﴾(٤).

---

(١) _ سورة يوسف الآية (١٠٠)

(٢) _ سورة الأعراف الآيات (١١٧-١٢٠)

(٣) _ سورة الأعراف الآيات (١٢١-١٢٢)

(٤) _ سورة طه الآيات (٧٢-٧٦)

فيا ترى من أين جاء السحرة بهذا البيان الذي بيَّنوه، وقد جيء بهم من المدائن المختلفة محضَرين، وما سمعوا من سيدنا موسى عليه السلام بياناً ولا دلالة؟

إنه التعظيم والتقدير لعلمه عليه السلام جعل نفوسهم ترتبط بنفسه مقبلة على الله، وهناك شاهدوا ما شاهدوا من حقائق، فقالوا ما قالوا من كلمات اليقين والإيمان، شأنهم في ذلك شأن ملكة سبأ لما عظَّمت مُلْك سيدنا سليمان عليه السلام، إذ: ﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ...**﴾. وهنالك استصغرت ملكها، ووقفت موقف المقدِّر من ملك سيدنا سليمان عليه السلام وما هو عليه من شأن عظيم، وما أن نظرت فيه هذه النظرة، حتى دخلت نفسها على الله من باب تلك النفس الزكية الطاهرة فكان لسانها مترجماً عمَّا في نفسها، إذ:

﴿**... قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(١).

إن هذه النقطة الهامة التي نحن بصددها وأعني بها تقدير النفس وإعجابها بنفس متفوِّقة عليها في ناحية من النواحي، لها أثرها في سلوك الإنسان وعليها يتوقَّف سيره واتجاهه في هذه الحياة، لأن النفس المقدِّرة المعجبة إنما ترتبط دوماً برباط وثيق، وتصاحب صحبة معنوية تلك النفس التي قدَّرتها وأُعجبت بها، وذلك هو قانون من قوانين النفس وسنَّة من سننها التي رسمها لها خالقها وموجدها، ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً ولن تجد لسنَّة الله تحويلاً.

على أن هذا التقدير والإعجاب بالآخرين يختلف من شخص إلى شخص ومن نفس إلى نفس. فكل امرئ إنما يقدِّر غيره على حسب ما تميل إليه نفسه وما يهوى. فبعض الأنفس تقدِّر غيرها لعلمه ومعرفته، أو ملكه وسلطانه، أو كماله وخُلُقِهِ، أو أي شيء من الأشياء الأخرى. فلكل امرئ ميول ونواح يهتم بها دون

(١) _ سورة النمل الآية (٤٤)

غيرها، ولذلك تراه لا يقدِّر إلاَّ من سبقه في تلك الميول وتفوَّق عليه في تلك النواحي.

فهؤلاء إخوة سيدنا يوسف عليه السلام وكذلك أمه وأبوه إنما قدَّروا فيه عليه السلام كماله، لأن نفوسهم كانت تهوى الفضيلة والكمال أكثر من كل شيء في هذه الحياة.

وأما سحرة فرعون الذين كانوا علماء بالسحر، فقد قدَّروا علم سيدنا موسى عليه السلام لما رأوا منه ما أبطل سحرهم جميعاً، فما أن ألقى عصاه ولقفت ما يأفكون حتى أُلقوا ساجدين.

وما سجدت بلقيس ملكة سبأ مقدِّرة سيدنا سليمان عليه السلام إلاَّ لكونها ذات ملك عظيم، فما أن رأت ملكه وتفوُّقه عليها في هذه الناحية، حتى عظَّمته وقدَّرته وارتبطت نفسها به خاضعة لله تعالى.

أما آثار هذا التقدير والسجود النفسي، فهي كما رأينا انعكاس ما في هذه الأنفس السابقة، وانطباعه في الأنفس المقدِّرة. فلقد انعكس ما في نفس سيدنا يوسف عليه السلام من السبق في العلم بالله ومحبته، في نفوس أبيه وأمه وإخوته، فكان لهم إماماً في هذا المضمار.

وانعكس في نفوس السحرة ما في نفس سيدنا موسى عليه السلام من إيمان ومعرفة، فقالوا ما قالوا مما كنَّا أشرنا إليه وبيَّناه، وكذلك الأمر بالنسبة لملكة سبأ مع سيدنا سليمان عليه السلام.

وهكذا إذا أنت قدَّرت أي شخص من الأشخاص، فلا بد لك من أن تدخل مدخله وترد مورده، وتتعكس أحواله في نفسك. فإن كان من أهل الفسق والإلحاد تبدَّى ما فيه ظاهراً في نفسك بيِّناً، وإن كان من أهل الكمال والإيمان صرت تشعر بهذا الكمال ودخلت بمعيته في مداخل الإيمان، ولهذا كان ﷺ يقول داعياً:

(اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً فيحبه قلبي) [1].

---

(١) _ أخرجه ابن مردويه.

لقد كان ﷺ يدعو بهذا الدعاء لأنه عرف قوانين النفس وسننها، فكان يخشى من وصول هذا الخير إليه على يد بعيد عن الله، خوفاً من أن يميل قلبه إليه فتنعكس أحواله في نفسه. فانظر إلى رسول الله ﷺ وهو سيد الخلْق، يخشى هذه الخشية، ويدعو بهذا الدعاء. لقد كان ﷺ إنما يخشى ذلك حرصاً على صفاء نفسه، أما نحن فما حالنا إذا ملنا بنفوسنا مستعظمين أهل الكفر والفسق والإلحاد؟ وماذا يكون عليه حالنا إذا ملنا بقلوبنا إلى رسول الله ﷺ فقدَّرناه وعظمناه؟

وممَّا يؤيد لنا هذا المعنى أيضاً ما ورد عنه ﷺ حيث يقول:

(الرجلُ على دينِ خليله، فلْينظر أحدكم مَنْ يخالل) [١].

على أن تقدير رسول الله ﷺ وتقدير المرشدين من أهل الكمال، لا يمكن ولا يكون لك إلاَّ إذا كنت من أهل الكمال، إذ أنه لا يعرف الفضل إلا ذووه، فإذا أردت أن تحصل لك صحبة رسول الله ﷺ النفسية، وأن تكون برفقته المعنوية، فعليك أن تفكِّر في هذا الكون، حتى تصل إلى الإيمان بلا إلّه إلا الله حق الإيمان. فإذا أنت آمنت بها حجزتك عن معاصي الله واستقمت على أمر الله، وهناك تتولَّد الثقة بنفسك من رضاء الله عنك، فتُقبل بنفسك عليه تعالى، وبهذا الإقبال تشتق نفسك الكمال من الله بالصلاة، فتقدِّر وتعظِّم من فاقك في الكمال وتدخل بمعيته على سيد الكاملين ﷺ، وبتقديرك لرسول الله وارتباطك به ﷺ تدخل نفسك بمعيته على الله، وترتقي في منازل محبة الله. ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[٢]

وهكذا فما سجد الملائكة الكرام لمَّا أمرهم الله تعالى بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام إلاَّ لما فيهم من كمال. فلما رأوا من علمه وكماله ما سبقهم به متفوِّقاً، سجدوا له جميعاً.

---

(١) _ أخرجه أبو داود والترمذي.

(٢) _ سورة الفجر الآيات (٢٧-٣٠)

أما إبليس فما عرف شيئاً من الكمال الإلّهي، ولم يحصل على شيء من العلم بأسماء الله تعالى. إبليس الذي لم يُقبل على الله في يوم من الأيام، ولم تصطبغ نفسه بشيء من صبغة الكمال، هذا الجاهل الأحمق الذي ما قدَّر خالقه لمَّا أمره الله تعالى بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام: ﴿.. أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وقد أشار القرآن الكريم في مواضع أخرى، إلى إباء إبليس واستكباره كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[2].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ...﴾[3].

وأنت ترى من خلال هذه الآيات الكريمة أن إباء إبليس واستكباره عن السجود، إنما هو شيء ناشئ من كفره بخالقه، ولذلك عمي عن الحق وأبلس عليه الأمر، وخفي عنه ما عليه سيدنا آدم عليه السلام من الكمال.

كما ترى أن إبليس لم يكن رئيس الملائكة، كما يزعم فريق من الناس، بل كان من الجن، ولم يكن له عرف بعظمة خالقه، ولذلك فسق عن أمر ربه.

ثم إن الكفر وخلوّ النفس من الكمال، يجعل نظر النفس بمعزل عن رؤية الحقائق، قاصراً على رؤية الصور متعلِّقاً بالأوهام، فقد احتج إبليس بأن النار خير من الطين، ولم يدرِ أن العلم بالله هو الذي يرفع شأن صاحبه، ويجعله يسمو على المخلوقات.

---

(١) _ سورة البقرة الآية (٣٤)

(٢) _ سورة الإسراء الآية (٦١)

(٣) _ سورة الكهف الآية (٥٠)

وقد أشار تعالى إلى احتجاب الكافرين عن رؤية الحقائق ومعرفة رسل الله، بما بيَّنته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿.. **وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾[1].

ومن ذلك أيضاً ما خاطبت به أهل مدين رسولها سيدنا شعيباً ﷺ: ﴿**قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾[2].

وكذلك قوم عاد وثمود، وذلك هو أيضاً قول كل كافر لا يؤمن بالله، وحال كل بعيد عن الله. ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ معرفة رسل الله عليهم الصلاة والسلام وتقديرهم، وكذلك الصادقين من أهل الإرشاد، لا تكون إلاَّ بعد الوصول إلى الإيمان بالله، ذلك الإيمان المقرون بالعقل. فإذا عظَّم الإنسان الله تعالى، ورأى منه الفضل والإحسان، فهنالك يقبل عليه ويشتق منه الكمال، وعندئذ يعظِّم أهل الكمال، فهو سبحانه وتعالى الأول والآخر، ومن يؤمن بالله يهد قلبه، ومن يؤمن بالله فقد رشد وهدي إلى صراط مستقيم.

ثم إن الله تعالى أمر سيدنا آدم ﷺ أن يسكن وزوجه الجنَّة، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾[3]: كانت نفس سيدنا آدم وزوجه عليهما السلام لابسةً جسديهما الشريفين، فكان نعيمهما من الدنيا ذوقيّاً، وما كان الثمر ليدخل جوفيهما، الدخول للجوف يحتاج لهضم وعمل.

وليس المراد من الجنَّة ما يتبادر لبعض الأذهان من أنَّ سيدنا آدم ﷺ كان في بادئ الأمر في مكان مرتفع في السموات، ثم أهبطه الله تعالى إلى الأرض التي نحن عليها.

---

(١) _ سورة الأعراف الآية (١٩٨)

((٢_ سورة الشعراء الآية (١٨٥-١٨٦)

(٣) _ سورة البقرة الآية (٣٥)

فإن مسرى الآيات ينفي ذلك، وليس هذا الظن بمطابق للحقيقة في شيء، فالله تعالى ذكر لنا في أول هذه القصة أنه أخبر الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، وقال تعالى:

﴿... **إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ**﴾[1] والطين في الأرض لا في السماوات. كما أن الآيات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم مبيّناً فيها أصل الإنسان وبدء خلقه تنفي ذلك أيضاً، وتبيّن أن الإنسان أول ما وُجِدَ على الأرض التي نحن عليها الآن، قال تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[2].

﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾[3].

﴿... **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**...﴾[4].

﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾[5].

فالله تعالى خلق سيدنا آدم وزوجه من الأرض وأسكنهما فيها وكان لهما في الأرض جنَّة. والجنَّة هي ذلك النعيم النفسي المستور الذي يجده الإنسان في قرارة نفسه، ولا يطَّلع عليه أحد من الناس.

فكان لسيدنا آدم عليه السلام وزوجه إقبال على الله ووجهة إليه، وشهود لذلك الكمال الإلٓهي الذي لا يعادله نعيم ولا سرور، وذلك ما نستطيع أن نفهمه من كلمة "**جنَّة**"، لأن النفس البشرية المؤمنة لا تجد لها سروراً ولا نعيماً ولا تطمئن بشيء كسرورها ونعيمها واطمئنانها بالنظر إلى جمال خالقها، وشهود كماله الأسنى "الأعلى".

---

(١) _ سورة ص الآية (٧١)

(٢) _ سورة آل عمران الآية (٥٩)

(٣) _ سورة نوح الآيات (١٧-١٨)

(٤) _ سورة هود الآيات (٦١)

(٥) _ سورة طٰه الآية (٥٥)

وقد استغرق سيدنا آدم ﷺ وزوجه في ذلك النعيم النفسي وسكن فيه، وهو يومئذ في حال مخالف للحال المادي الذي نحن الآن نعيش فيه.

وإذا كان للإنسان نفس وروح وجسد، وكانت نفس الإنسان الآن في عالم الدنيا محاطة بجسمها محبوسة فيه، فهي تُبصر عن طريق العينين، وتسمع عن طريق الأذنين، وتذوق بواسطة اللسان. وإذا كان حالنا الجسمي الآن غالب على الحال النفسي فلا يعيش هذا الإنسان ما لم ينل الجسم حظه، من مطعم ومشرب وملبس، إذ لا بد من أن يبذل الجسم مجهوداً للحصول على ما يحتاجه، ثم هو إلى جانب ذلك بحاجة إلى الراحة والنوم.

فقد كان سيدنا آدم ﷺ وكذلك زوجه لما خلقه الله تعالى وأوجده، في حال مخالف لما نحن عليه الآن، لأن نفسه كانت محيطة بجسدها، كما يحيط لهب الشمعة بالفتيل من كل جانب، ولا حاجة له والحالة هذه لأذن تسمع أو عين تُبصر أو لسان يذوق به، بل كانت نفسه كلها لساناً وسمعاً وبصراً، وما كان جسده يومئذ بحاجة إلى شيء من الأشياء، فلا جوع ولا ظمأ، ولا حر ولا برد، ولا تعب ولا نصب. فالنفس لابسة جسدها محيطة به وحالها غالب عليه.. إقبال دائم على الله مستمر لا ينقطع، ولعمري ذلك حال أهل الجنة في الجنَّة غداً، قال تعالى مشيراً إلى ذلك الحال الذي كان عليه سيدنا آدم ﷺ في بدء الحياة:

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾(١).

أما ذلك الأكل الذي يأكله وهو في هذا الحال النفسي وإن شئت فقل وهو في الجنَّة، فقد كان أكلاً ذوقيّاً، وهو أيضاً أكل الإنسان في الدار الآخرة في الجنَّة. فالنفس المحيطة بالجسد تمتد أشعتها يومئذ إلى الفواكه والأثمار فتتذوَّقها ذوقاً

---

(١) _ سورة طه الآيات (١١٧-١١٩)

مستمراً متواصلاً، كما تمتد أشعة الشمس إلى أعماق المياه فتخالطها وتسري بها، دون أن يدنو جرم الشمس منها.

وهذا الذوق المتواصل وهذا الأكل قد يدوم أشهراً وحيناً طويلاً ولا يشعر معه الإنسان بثقل أو شبع، وكلما زادت النفس من خالقها قرباً، زادت ذوقاً بما تأكله من أشياء وتضاعفت لذتها، إذ على حسب صحة النفس وسرورها، يكون ذوقها وتمتعها.

ذلك هو حال أهل الجنَّة وهو حال سيدنا آدم عليه السلام وزوجه لمَّا أسكنهما الله تعالى الأرض. لقد كانا في جنَّة النعيم بشهود الجمال الإلٓهي العظيم، وإلى جانب ذلك كانت نفساهما تأكل من الأرض رغداً، أي تتذوَّق تذوُّقاً مستمراً شاملاً، فلا تجد ثقلاً ولا ضيقاً. ولقد نهى الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام وزوجه عن أن يقربا الشجرة، أي: أن لا يضعا مادة الثمر في فيهما، لأن دخول المادة إلى الفم ومن بعد ذلك إلى الجوف، يحتاج إلى مضغ وهضم، ومن ثم يتحوَّل الإنسان من حال إلى حال، فيصبح الحكم للجسم، وتنقلب النفس إلى الداخل، فتصبح محاطة بعد أن كانت محيطة، ويتطلَّب ذلك من الإنسان جهداً وعملاً وسعياً وراء تأمين حاجات الجسم، وضروراته المادية، وذلك ما عنته الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿... **وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾[1]: لنفسكما فتتعبان بالعمل. أي: لا تدنيا ثمرها من فيكما وجسديكما، بل تذوَّقا وكُلا منها أكلاً ذوقيّاً. أما إذا وضعتما الثمر في فيكما فتكونا من الظالمين لنفسيكما، إذ عرَّضتماهما للتعب والنصب، والسعي وراء تأمين حاجات الجسم. نعم، كانت نفسا سيدنا آدم وزوجه عليهما السلام، لابسةً جسديهما الشريفين، فكان نعيمهما من الدنيا ذوقيّاً، وما كان الثمر ليدخل جوفيهما، إذ الدخول للجوف يتطلَّب الهضم والتعب.

---

(١) _ سورة البقرة الآية (٣٥)

وقد حذَّرهما الله تعالى من الشيطان وعداوته، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة التي أوردناها آنفاً وهي قوله تعالى:

﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾[1].

وسكن سيدنا آدم عليه السلام كما بيَّنا من قبل، وسكنت زوجه ذلك النعيم، نعيم الإقبال على الله، والتمتُّع بشهود ذلك الجمال الإلٰهي العظيم، لا يبغيان عنه حولاً. وهل يعدل النظر إلى وجه الله نعيم؟ أم هل يرضى عنه المؤمن ببديل؟ وهنا ومن هذه النقطة أراد الشيطان أن يتَّخذ لنفسه مدخلاً يدخل منه، ليحوِّل ذلك النبي الكريم عن خالقه، ويزلّه عن ذلك الحال الذي هو فيه: ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى**﴾[2].

أي: هل أدلُّك على الشجرة التي إن أكلت منها، كانت سبباً في خلودك في هذا النعيم وملكت هذا الحال؟ فلم تتقطع نفسك عن ذلك الإقبال على الله والوجهة الدائمة إليه.

فأقسم الشيطان بالله العظيم لسيدنا آدم وزوجه، أنه لهما لمن الناصحين، ولا يقدِّر العظيم إلا العظيم، لذا غلب على سيدنا آدم عليه السلام حبّه لله، فأنساه ذلك الحب وصية الله، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[3]. أي نسي وصيتنا نسياناً، ولم نجد له عزماً وتصميماً على مخالفتنا، أي على المعصية.

وكذلك الحال بالنسبة لزوجه، فأكلا من الشجرة، أي: طعما ثمرها ووضعاه في فيهما حبّاً بالله، وبذلك انقلبت نفساهما من حال إلى حال.

لقد لحقت النفس المادة الداخلة، وأصبحت محاطة بالجسم، بعد أن كانت محيطة به، فإذا هما في هذا الحال الذي نحن فيه الآن، يؤلمهما الجوع ويشتد عليهما الظمأ. ﴿... **فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ**

---

(١) _ سورة طٰه الآية (١١٧)

(٢) _ سورة طٰه الآية (١٢٠)

(٣) _ سورة طٰه الآية (١١٥)

أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ، قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

وقد أشارت الآية الكريمة التابعة للآيات التي نحن بصددها في سورة البقرة إلى هذا الحال الجسمي، الذي أصبح فيه سيدنا آدم وزوجه، ذلك لأن الشيطان ببعده عن الله، صار حسوداً منحطاً، دفعه الحسد فحوَّلهما: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ...**﴾.

قال يا آدم: ربّك ما نهاك عن الشجرة، فإن أكلت خلدت في النعيم، وحيث أنه لم يكن لسيدنا آدم عليه السلام فكر، نسي أمر الله وأكل، فدخلت نفسه للداخل، وانسدَّ عليه الإقبال على الله.

والمراد بكلمة ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا...**﴾: أي جعلهما ينزلان وينتقلان من تلك الحالة النفسية الذوقية، إلى الحالة الجسمية، وبذلك أخرجهما مما كانا فيه من أكل ذوقي ونعيم معنوي، فأصبحت لهما حاجات جسمية، ومطالب مادية ما كانا يهتمان بها من قبل.

﴿**... وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[٢]. وأما كلمة ﴿**... وَقُلْنَا اهْبِطُواْ...**﴾: من الحال النفسي، أي: انزلوا إلى هذه الحياة الدنيا حياة السعي وراء الرزق، والعمل لتأمين ما تقتضيه هذه الحياة من حاجات ومطالب، ذلك هو الحال الجديد الذي صار إليه سيدنا آدم عليه السلام وزوجه، وصار إليه بنوه من بعده، وهو كما نعلم مختلف كل الاختلاف عن الحال الأول الذي كانا فيه.

أما كلمة ﴿**... بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...**﴾: الكافر يُعادي المؤمن، فتفيد أن الحكمة من هذه القصة كلها إنما هي إظهار عداوة إبليس وذريته المعرضين عن الله لهذا النوع البشري. فالذين يتبعون كلام الله من بني الإنسان سيرون من بعد ما

---

(١)_ سورة الأعراف الآية (٢٢-٢٣)

(٢) _ سورة البقرة الآية (٣٦)

فعله إبليس وما قام به من تغرير سيدنا آدم ﷺ وحلف له كذباً بالله لِيحوّلِه عن الله، فلا يغترُّون به ولا يستطيع أن يفتنهم. والكافرون من أولاد إبليس، وهم بعض الجن سيكونون معه ضداً وأعداء لبني آدم، ليردُّوهم عن الحق، وليلبسوا عليهم دينهم.

وهكذا فكلمة﴿... **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**...﴾: بعضكم تعني الشيطان عدواً للإنسان، وتريد أن تعرِّفنا أن الله تعالى إنما جعل خروج النوع البشري لهذه الحياة الدنيا بهذا القالب وهذه الصورة، ليضع بين يدي هذا الإنسان المهيَّأ للكمال مثلاً وعملاً عداوة الشيطان وكيده فيكون هذا الإنسان على علم به، حَذِراً من إغرائه، وذلك كله مما يبيِّن لنا رحمة الله تعالى ورأفته، والله رؤوف رحيم.

وتفيد كلمة ﴿.. **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾: مدة حياتك، إنَّ لهذا الإنسان على وجه الأرض عمراً محدوداً وأجلاً معيَّناً، فإذا انقضى العمر ووافاه الأجل، فلا بد له من فراق هذه الحياة الدنيا، بخلاف حال الإنسان في الآخرة فلا حد له ولا انقضاء لحياته، والسبب في ذلك أن الإنسان في الدنيا تتوقَّف حياته على سلامة الجسم وبقائه قادراً على العمل، فإذا تعطَّلت أجهزته الرئيسية وتوقف عن العمل، خرجت النفس لاحقة بالروح، وفارقت معها هذا الجسد، وإن ظلَّ لها ارتباط به وإشراف عليه.

أما في الدار الآخرة، فالحكم للنفس، فهي المحيطة بالجسد، وليس له يومئذ فعَّالية ولا عمل، وليس يصيبه هرم ولا ضعف ولا وهن، وإن هو إلا مُرْتكَز ترتكز عليه النفس، وهي يومئذ صاحبة الحياة. وبما أنها جوهر نوراني، لا يطرأ عليها ما يطرأ على المادة المتركِّب منها الجسد، من ضعف وانحلال، لذلك فالحياة في الدار الآخرة حياة أبدية، ليس لها حد ولا انتهاء.

وتفيد أيضاً كلمة ﴿.. **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾: أن وجود النوع البشري على وجه الأرض له أجل محدود، فإذا ما انتهى هذا الأجل، انتهت معه هذه الحياة، ثم يقْدُم الناس إلى الآخرة، فيرى كل امرئ نتائج أعماله وسعيه.

ولعلَّك تقول: كيف نسي سيدنا آدم ﷺ وصية الله تعالى واستطاع الشيطان أن يغرّه؟

وهل يستطيع الشيطان أن يدخل على الأنبياء؟ وهل يعصون الله تعالى؟ وكيف نستطيع أن نوفِّق بين ما وقع من سيدنا آدم عليه السلام مع ما قرره القرآن الكريم من عصمة الأنبياء، وعدم إمكان وقوعهم في مخالفة من المخالفات؟

أقول: هذه نقاط هامة هي مزلَّة قدمٍ بالنسبة للكثير من الناس، فإذا لم يفهمها الإنسان حق الفهم، ولم يرَ كمال رسل الله وسموَّهم النفسي وعصمتهم من الوقوع في المخالفات، فلا بد أن تزلّ به القدم، فيهوي في جحيم البعد عن الله، وليس يخلصه من هذا البعد أحد، ما دامت نفسه محجوبة عن رؤية ذلك الكمال الذي اصطبغت به أنفس رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين.

فالنفس البشرية كما نعلم، مفطورة على حب الكمال، وهي لا تستطيع أن تقدِّر أحداً وبالتالي لا يمكن لها أن ترتبط برباط المحبة بأحد، ما دامت ترى فيه نقصاً وانحرافاً أو ميلاً عن الحق.

ذلك هو قانون من قوانين النفس التي لا تتبدل. وإذا كان الدخول في مداخل التقوى والإيمان النفسي يتوقَّف على محبّة رسل الله صلوات الله عليهم وصحبتهم المعنوية، والدخول بهذه الصحبة والمعيَّة على الله، فكيف يمكن للنفس التي ترى في رسل الله نقيصة من النقائص، أن تحبّهم وترافقهم؟ أم كيف تستطيع أن تدخل بمعيتهم على الله؟ لا شك أنها تظل بعيدة عن الله محجوبة عنه، محرومة من ذلك كل الحرمان.

لذلك وتبياناً لهذه النقاط الهامة التي أوردناها نقول:

لا بد لنا حتى نفهم النقطة الأولى وهي نسيان سيدنا آدم ﷺ وصية الله، من أن نرجع إلى ذلك الحال الأول الذي كان عليه سيدنا آدم في جنَّة الإقبال على الله، قبل انتقاله إلى هذه الحياة الدنيا أي: قبل هبوطه من الحال النفسي إلى الحال الجسمي الذي نحن عليه فنقول: للإنسان في هذه الحياة الدنيا فكر وعقل، وليس في الجنة إلاَّ عقل فقط، وهو مجرَّد عن الفكر.

فالفكر وهو تلك الجوهرة التي زيَّن الله تعالى بها الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وجعلها في الدماغ، هو الآن بالنسبة للإنسان جهاز المعرفة، والوصول إلى الحقائق.

فالعين تُبصر، والأذن تسمع، واللسان يذوق، ثم تنتقل هذه المشاعر إلى النفس، فإذا كانت النفس صادقة في طلب الحقيقة، وأرسلت بإشعاعات هذه المشاعر للدماغ، هنالك يقوم الفكر بعمليات المقارنة والمقايسة والتحليل والتركيب، ثم تصل النفس إلى مطلوبها.

فمن النظام، يهتدي إلى الحكم بوجود المنظِّم، ومن الأثر، يحكم بوجود المؤثِّر، ومن التربية، يصل إلى معرفة المربِّي، وهنالك تعقل النفس هذه الحقائق التي حكم بها الفكر، فتشاهدها بذاتها، وتوقن بها، وتنتقش فيها لا تبرحها، فتعقلها، تعقل حقيقة الوجود الإلّهي، ومنها لشهود أسماء الله تعالى الحسنى، وتلك غاية أقصى المنى لوجود الإنسان.

وهكذا، فالتفكير هو ما يقوم به الدماغ من عمليات المقايسة والمقارنة والتحليل والتركيب، توصُّلاً إلى إدراك الحقائق، والحكم بوجودها.

أما العقل: فهو شهود النفس هذه الحقائق ومعاينتها إياها. وكل تفكير صادق لا بد أن يصل بصاحبه إلى العقل.

وتظل هذه الحقائق محفوظة في النفس مخزونة فيها، فإذا ما احتاج الإنسان إلى أمر من الأمور السابقة، يعكس الفكر أشعته على ما عقلته النفس، فتضيء له تلك الحقائق المخزونة في النفس، فيعرفها الإنسان ويذكرها.

وعلى ذكر الفكر والعقل، لا بد لنا من أن نذكر كلمة وجيزة نبيِّن فيها مدى فعَّالية هذا الفكر وقدرته على إدراك الحقائق فنقول:

لا بد من اهتمام النفس بالأمر حتى تصل إلى عقله. فالأمور التي لا تهتم بها النفس اهتماماً كلِّياً، ولا تطلب معرفتها بصدق وإلحاح، لا يكون عمل الفكر فيها إلاَّ سطحياً، ولذلك لا يستطيع أن يصل فيها إلى إدراك حقيقة، ولا أن يصدر حكماً، وبذلك تبقى النفس بعيدة عن عقلها أو شهودها.

ولذلك وتوصيلاً للنفس إلى العقل في معرفة الخالق والمربِّي، ثم الوصول إلى الإيمان بلا إلّه إلا الله، ومعرفة أنَّ السير كله بيد الله، لا بد من تعريف النفس بأن هذه الحياة الدنيا التي اطمأنت إليها وفرحت بها، إنما هي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء، وأنه مهما جمع الإنسان منها، ومهما عاش فيها، فلا بد له من الموت ولا بد من الفراق، وهذه حقيقة واقعية لا بدّ من وقوعها حتماً.

فإذا ما ضرب المرء لنفسه أمثلة لمن عاش قبله من آبائه وأجداده وذويه، وعرَّفها بمن سكن في مساكنهم ومن سبقوه، ثم بصَّرها بالموت ورهبته، والقبر ووحشته، وكرَّر لها هذا الدرس وأعاده عليها، فهنالك تخاف وترهب، وتقلع عن الاسترسال في محبَّة الدنيا والانصراف إليها، وتطلب وتجدُّ في معرفة المربِّي الذي يُعنى بها، وتتَّحد جهود النفس مع الفكر، فيعمل منطلقاً جادّاً في البحث، وما يزال يُقارن ويُقايس ويحلِّل ويركِّب ويسأل ذاته بذاته ويُجيب، حتى ينتهي به الإقرار والحكم، بوجود الخالق العظيم، الذي خلق كل شيء، ويستمر به البحث، فيتوصَّل

إلى الإيمان بأنه تعالى هو المربِّي الممد، يربِّي المخلوقات ويمدُّها بما يلزمها، لا يغفل عنها طرفة عين، يعقل هذا بنفسه عقلاً شهوديّاً لا ريب فيه.

وأخيراً يصل هذا الفكر الصادق منتقلاً من معرفة المربِّي إلى معرفة الإلّه المسيِّر، الذي يؤول إليه أمر الكون كله، فيحكم بأن سير الكون كله بيد الله، وأن لا إلّه إلا الله. ثم تعقل النفس هذه الحقائق، فتغدو مؤمنة حقّاً، والإيمان إنما هو ثمرة من ثمرات العقل، ونتيجة من نتائجه، ولا إيمان لمن لا عقل له، ولا دين لمن لا عقل له.

وهكذا فللعقل مكانه الأول في الوصول إلى الإيمان، والعقل متوقِّف حصوله على التفكير، والتفكير لا يتم ولا تدور دواليبه، إلاَّ بالصدق في طلب المعرفة، والصدق متوقِّف حصوله على الخوف من الموت ونتائجه.

ولذلك كان ﷺ كما مرَّ بنا من قبل، يتَّكئ في المسجد بين سنَّة الصبح والفرض مضطجعاً على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة، مقلِّداً حال الإنسان في القبر، مفكِّراً ومعلِّماً هذا الإنسان طريق الصدق، والوصول إلى الإيمان. وكان ﷺ يقول: **(أكثروا ذكر هاذم اللذات)** [1].

ويذكِّر الإنسان بقوله الشريف: **(عِشْ ما شئتَ فإنكَ ميت، وأَحْبِب من شئتَ فإنكَ مُفَارِقهُ، واعْمل ما شئتَ فإنكَ مجزيٌّ به)** [2].

فلعلَّ هذا الإنسان يهتدي ويسلك طريق الإيمان، وكفى بالموت واعظاً ومذكِّراً.

هذه كلمة ذكرناها ومن الضروري الإلحاح عليها، لمن أراد أن يذَّكَّر وأراد أن يصل إلى الإيمان، وبالتالي إلى فهم القرآن خطاب ربِّه العظيم.

ونعود إلى أصل البحث الذي كنَّا بدأنا به في كلامنا عن سيدنا آدم عليه السلام وأكله من الشجرة ونسيانه وصية الله تعالى فنقول:

---

(١) _ أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في ذكر الموت رقم /٢٣٠٧/.

(٢) _ رواه الطبراني.

لقد وضَّحنا في بحثنا السابق، أن للإنسان في هذه الحياة الدنيا فكراً وعقلاً، وأنه في الجنة ليس للإنسان إلاَّ عقل فقط، وهو مجرَّد عن التفكير.

والسبب في ذلك أن الفكر إنما يتوقف عمله على وجود الدماغ وجريان الدم فيه، وإن شئت فقل: أن الفكر يُعين النفس ويساعدها على الوصول إلى الحقائق وعقل هذه الحقائق، ما دامت في هذه الدنيا محبوسة في الجسم، وما دام الجسم صاحب السيطرة والحكم.

أما إذا خرجت النفس من الجسد ولبسته وأصبحت محيطة به وأضحت صاحبة الحكم، فهنالك تتوقف جميع الأجهزة الجسدية عن العمل، وبالتالي يتوقف الفكر، لأن هذه الأجهزة وهذا الفكر، أضحت لا عمل لها، وتعقل النفس والحالة هذه الحقائق بذاتها، دون حاجة إلى حاسة أو فكر.

وإذا كان الإنسان يتذكَّر في هذه الدنيا ما وقع له من الحوادث، وما قام به من الأعمال بواسطة الفكر، الذي يُرسل بأشعته إلى النفس، فتضيء له هذه الحقائق ويذكرها، ففي الدار الآخرة حين يتوقف الفكر عن العمل، لا يعود هذا الإنسان يتذكَّر تذكُّراً فكرياً، بل يعقل عقلاً. فإذا عُرضت على الإنسان أعماله التي قام بها في الدنيا، عقلتها النفس عقلاً، أي: أنها تعقل ما هو مطبوع فيها.

ذلك هو حال الإنسان في الجنَّة، وحال سيدنا آدم عليه السلام من قبل. فقد كانت نفسه محيطة بجسده، تعقل ما تراه عقلاً، فلما جاء الشيطان وقال:

﴿... **يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى**﴾[1]. أي: هل أدلُّك على الشجرة التي إن أكلت منها خلدت نفسك في ذلك الحال العالي من الإقبال على الله، وملكت ذلك الحال الجميل الجليل، مُلْكاً أبدياً لا يبلى. ولمَّا أقسم له بالله أنه

(١) _ سورة طه الآية (١٢٠)

لمن الناصحين، غاب عنه ﷺ أن الله نهاه عن الأكل من الشجرة، وغاب عنه أنه تعالى حذَّره من الشيطان.

لقد نسي سيدنا آدم ﷺ ذلك كله، وهذا أمر طبيعي، لأنه لم يكن له يومئذ فكر يتذكَّر به، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[1]: أي لم يجد له عزماً على المعصية.

وهكذا فالنسيان الذي وقع لسيدنا آدم ﷺ وزوجه، أمر يقتضيه الوضع النفسي الذي كانا فيه، وهو ليس والحالة هذه بمعصية، وكل امرئ إذا هو لبس ذلك الحال النفسي الذي كان عليه سيدنا آدم ﷺ قبل انتقاله للحال الجسمي الذي نحن فيه، لفعل ما فعله سيدنا آدم ﷺ، فهو حال يقتضيه الوضع، ولا يمكن أن يعد مخالفة لأمر الله، ولا خرقاً لوصيته. وما أجرى الله تعالى ذلك على سيدنا آدم، وما جعل الله سيدنا آدم وزوجه محورين لهذه القصة، إلاَّ ليتعرَّف أولادهما من بعدهما إذا هم أصبحوا في الحال الجسمي، بعداوة الشيطان ومكائده، وليعطيهم درساً عملياً ويضع بين أيديهم مثالاً واقعياً في هذا الموضوع، فيحذِّر الأبناء من الشيطان وعداوته. وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الناحية في قوله تعالى:

﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ...**﴾[2]

ولعلَّك تقول: إذا كان الأمر كما بيَّناه، فما تأويل الآية الكريمة الواردة في وصف هذه الواقعة في قوله تعالى: ﴿.. **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾[3].

فنقول: بعد أن عرضنا ما عرضناه من أن الحال النفسي الذي كان عليه سيدنا آدم ﷺ من قبل في خصائصه التي لا تنطبق على الحال الجسمي الذي نحن عليه الآن، وإن النسيان من لوازم ذلك الحال النفسي، لعدم وجود الفكر. لذلك لا

---

(١) _ سورة طه الآية (١١٥)

(٢) _ سورة الأعراف الآية (٢٧)

(٣) _ سورة طه الآية (١٢١)

يمكن بوجه من الوجوه أن يُعتبر أكل سيدنا آدم عليه السلام من الشجرة معصية بالمفهوم الذي نفهمه نحن الآن في حالنا الدنيوي، والذي يتبادر لأذهان الذين لم يعرفوا قدر رسول الله ﷺ. ولا بد لنا لفهم هذه الآية، من أن نتفهَّم ما قبلها وما بعدها من الآيات الكريمة الواردة في مسرى هذه القصة وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى، فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**﴾[١].

فهذه الآيات الكريمة تُبيّن لنا أن سيدنا آدم عليه السلام إنما نسي وصية الله تعالى، ولم يكن له عزم على المخالفة، وإنه عليه السلام إنما أكل من الشجرة طَمَعَ الخُلُود في الجنَّة، وهي كما ذكرنا من قبل، جنَّة الإقبال على الله والتنعُّم بشهود جماله، وأما الدافع الذي دفعه إلى الأكل من الشجرة فهو حبّه لله، وطمعه البقاء في نعيم الإقبال على الله.

أما كلمة ﴿... **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾ فيتبدَّى معناها ظاهراً جلياً إذا نحن قرناها إلى كلمة: ﴿**فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ...**﴾[٢]. فما أن أكل سيدنا آدم عليه السلام وزوجه من الشجرة حتى ظهر لهما حالهما الجسمي، وهنالك وبظهور هذا الحال الجسمي، تذكَّر سيدنا آدم عليه السلام وصية الله، وكان هذا التذكُّر بسبب أن هذا الحال الجسمي، يلازمه وجود الفكر الذي

(١) _ سورة طه الآية (١١٥-١٢٢)

(٢) _ سورة طه الآية (١٢١)

يحصل به التذكُّر. وقد عرف ﷵ أن هذا الحال الذي صار إليه، إنما هو بسبب مخالفته الوصية، ونسيانه الأمر.

* * *

غاية قصة سيدنا آدم عليه السلام

*** تعليم محبة الله.**

*** وعدم الاستماع إلى الشيطان.**

كلمة ﴿**...وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ...**﴾[1]. تقول:

وأدرك سيدنا آدم عليه السلام من نفسه إثر ظهور ذلك الحال الجسمي له، أنه نسي وفعل خلاف ما أوصاه الله تعالى به. وهكذا، فكلمة ﴿**.. وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ...**﴾: ليست من الله تعالى إثباتاً لعصيان آدم عليه السلام، وتقريراً للمعصية، إنما هي حكاية حال سيدنا آدم وبيان مشاعره وإحساساته النفسية بالمخالفة، التي أوقعه فيها نسيان الأمر الإلٓهي.

أما كلمة ﴿**... فَغَوَى**﴾: فمأخوذة من: الغيّ، وهو الانقلاب والتحوُّل من حالٍ عال فيه السعادة والخير، إلى حال أدنى، فيه المتاعب والشقاء.

قال تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾[2]: أي سيلقون بتضييعهم الصلاة واتِّباع الشهوات، انحطاطاً من تلك المكانة التي كانت لآبائهم من قبل، وسيجدون متاعب وشقاوة.

وكان ﷺ كثيراً ما يستهل خطبه بقوله الكريم: **(من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى حتى يفيء إلى أمر الله)** [3].

وبناءً على هذا نقول: لمَّا رأى سيدنا آدم عليه السلام ذلك الحال الجسمي الذي صار إليه، وتذكَّر أنه خالف وصية ربّه، خجلت نفسه من هذه المخالفة، وبهذا الخجل الذي سيطر على نفسه احتجبت نفسه عن ذلك الحال من الإقبال على الله.

---

(١) _ سورة طٰه الآية (١٢١)

(٢) _ سورة مريم الآية (٥٩)

(٣) _ عن ابن عباس.

ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1] أي: ورأى آدم عليه السلام من نفسه أنه خالف وصية ربِّه، وبذلك احتجبت نفسه عن الإقبال على الله خجلاً، وتحوَّل عن ذلك الحال العالي الذي كان فيه. وهنالك وفي هذه اللحظة، ناداه ربُّه مبيّناً له أن هذا الأكل الذي أكله من هذه الشجرة، إنما صدر منه بناءً على نيَّة عالية، نيّة الخلود في الإقبال ودوام البقاء مع الله. وهذه النيّة العالية، وهذا المقصد السامي، لا يُعدُّ معصية، ولا يُوجب استحياء وخجلاً، لا سيما إذا اقترن مع ذلك الحال الأول النفسي الذي من لوازمه النسيان. وأراد تعالى بذلك التعريف الذي عرَّف به سيدنا آدم عليه السلام أن يُرجعه إليه، ويرفع عنه ذلك الخجل الذي استولى عليه، وذلك ما نفهمه من كلمة ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ...﴾[2] أي: جعله يرجع إليه وجمع قلبه عليه تعالى.

وذلك أيضاً ما عبَّرت عنه الآية الكريمة الواردة في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ...﴾[3]: أي: كلمات مبيّنات له سموَّ نيّته، وعلو مقصده وغايته، محواً للخجل من نفسه، وبذلك عرف أن الله تعالى لم يؤاخذه على نسيانه، ولم يعامله بظاهر عمله، بل نظر إلى حقيقته ونيّته، وإنما الأعمال بالنيَّات. نعم لقد تذلَّل سيدنا آدم عليه السلام، فألقى الله تعالى في نفسه، أن يا آدم نيَّتك عالية وشريفة، فنحن لا نؤاخذك أبداً على ما وقع. كذلك كل من يقع عن غير قصد، له سهولة رجعة، أما المتعمِّد والمصر، فلا رجعة له. وهنالك أدرك أنه ما عصى ربَّه، وما عزم على مخالفته، وأن الله عليم ينظر إلى النيات، وبهذا رجعت الطمأنينة والثقة إلى نفسه من أن الله تعالى راضٍ عنه، فعاد إلى الإقبال على الله والوجهة إليه، فتاب عليه ربّه، أي: فكشف له ذلك الحجاب، وردَّه إلى ذلك الحال

---

(١) _ سورة طه الآية (١٢١)

(٢) _ سورة طه الآية (١٢٢)

(٣) _ سورة البقرة الآية (٣٧)

الأول، من رؤية الجمال والكمال الإلّهي، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿..**فَتَابَ عَلَيْهِ**...﴾: تلك هي عناية الله تعالى تحوط سيدنا آدم ﷺ وترعاه، تبدَّت لك ظاهرة في هذه القصة، وتلك هي معاملته تعالى مع سائر عباده، يُعاملهم بما يُعاملهم به ليردَّ نفوسهم الشاردة إليه، ليتمتعوا بما أعدَّه لهم من نعيم مقيم، وذلك ما نفهمه من كلمة: ﴿.. **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾: أي: يعامل هذا وهذا ليرجعوا.

فانظر إلى حنان الله تعالى ورحمته، وانظر إلى عظيم فضله على عباده، لقد قرَّر على سيدنا آدم ﷺ قبل أن يُخرجه إلى هذه الدنيا، وقبل أن يُخرج ذرِّيته من صلبه، إذ كان بحال نفسي، فجعل خروجه من ذلك الحال النفسي، إلى هذا الحال الجسمي، بأسلوب أظهر به شرف هذا الرسول، وعظيم حبّه لخالقه، وضرب تعالى بقصة هذا الإنسان الأول، عِبراً وأمثالاً باقية لبنيه، فأقامه في مقام المعلِّم الأول لأولاده، وأجرى ما أجراه له، ليعلِّم الناس قوانين النفس التي ينبني عليها الإقبال على الله، وليشهدوا الطريق الذي تعود منها النفس إلى حصيرة القدس، فإذا ما خجلت نفوسهم وتراجعت متأخِّرة، أمكنها الرجوع والعودة، إذا هي فعلت ما يجدِّد لها الثقة ويمحو منها الخجل، كما أراد تعالى أن يعرِّفنا كما كنا قد ذكرنا من قبل بعداوة الشيطان، فنحذر من مكره وكيده. أفبعد هذا كله، يستطيع أن يتعرَّض متعرِّض، فيُنقص من مكانة هذا الرسول الكريم، أو ينسب لله ما ينسب، من قسوة على الإنسان؟ إنه تعالى يحاول ردَّ عباده إلى الحق: ﴿..**وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾[١].

هذا بعض ما فهمناه من هذه القصة، وكم حوت هي وأمثالها من عِبر وأمثال. ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾[٢].

---

(١) _ سورة الرعد الآية (١٣)

(٢) _ سورة العنكبوت الآية (٤٣)

أما وقد أجبنا على الأسئلة التي أوردناها من قبل، مبينين مفصِّلين أن سيدنا آدم عليه السلام ما عصى ربَّه، وأن حاله النفسي الأول من لوازمه النسيان، وهذا ما يدلُّنا على أنَّ ما أقدم عليه سيدنا آدم عليه السلام وزوجه إنما كان بنيَّة عالية لأن الشيطان أقسم لهما بأن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين إن هما أكلا من هذه الشجرة، وبما أن هذا النبي ﷺ لا يعرف الكذب فصدَّق قول الشيطان، ونسي وصية الله له: ﴿.. **رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...**﴾[1].

قال ﷺ: **(رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)** [2].

﴿**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[3]: هذه الأُسَر اصطفاهم تعالى على العالمين ليُرشدوا الخلْق إلى الله. كيف هذا الاصطفاء! بيَّن تعالى في سورة آل عمران: ﴿..**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ...**﴾: كلهم في الأصل واحد: كلهم أولاد آدم، لكن ﴿... **وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[4]: ما اصطفاهم جزافاً، بل إنه **سميع:** لقولهم، **عليم:** بحالهم ونيَّتهم. كلامهم عال وحالهم عالٍ لذلك اصطفاهم: "إن كان كلامك عالياً ونيَّتك عالية أعطاك". فكل من تكلَّم بحق الأنبياء معناه أنه ينفي كلمة﴿... **وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾: فكأن الله تعالى لا علم له بآدم ﷺ حتى اصطفاه، وهذا غير صحيح.

الله تعالى اصطفاهم لعلوِ نفوسهم وكمالهم، المرشد يجب أن يكون كاملاً. فمن يتكلَّم بحق الأنبياء معناه أنه لا إيمان عنده، ولو حصل عنده إيمان بأن الله سميع عليم لما تكلَّم سوءاً بحق رسل الله، لأن الله سميع بكل مخلوق عليم بحاله: اصطفاهم لطهارتهم وعلوِ نيَّتهم.

---

(١) _ سورة البقرة الآيات (٢٨٦)

(٢) _ الجامع الصغير: /٤٤٨٦/ (طب). عن ثوبان.

(٣) _ سورة آل عمران الآية (٣٣)

(٤) _ سورة آل عمران الآية (٣٤)

هذا وإن عدنا إلى حديث رسول الله ﷺ بهذا الخصوص وهو الذي لا ينطق عن الهوى لسمعنا قوله السامي، إذ يقول: **(أنا سيِّدُ وَلَدِ آدم يوم القيامة، ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلاَّ تحت لوائي، وأنا أوَّلُ شافع، ولا فخر)**.

ولفهمنا بأن آدم ﷺ هو الثاني في الترتيب من حيث العلوّ والسمو والمكانة العليَّة فوق جميع الأنبياء والمرسلين ودون سيد الخلْق سيدنا محمد ﷺ، والنبيون بالمنزلة دونه فهو كمن دونه من السادة الأنبياء البررة معصوم عن الخطأ في الصغائر والكبائر وعن المخالفة والعصيان لقوله تعالى عن النبيين جمعاً: ﴿.. **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[1].

وهو الرسول النبي الأول بالخلق وقد خاطبه تعالى بقوله الكريم عن الملائكة: ﴿.. **أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ**...﴾[2]، فهو نبي وهو رسول الله إلى الجن المكلَّفين وإلى الملائكة الكرام أجمعين، والإنس بدءاً من ذرِّيته الكريمة. وأن الغرض من هذه القصة إن هو إلاَّ تحذير الإنسان من مكر الشيطان، وما ذلك من الله تعالى إلا محض الرأفة والرحمة والحنان.

بقي علينا أن نتفهَّم نقطتين وردتا من معرض تلك الأسئلة السابقة، فإن نحن فهمناهما حق الفهم فقد تبدَّدت من أذهاننا جميع المشكلات التي ضلَّ عن فهمها كثير من الناس.

أما النقطة الأولى فهي:

ما معنى الآية الكريمة التي وردت في هذه القصة وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿**بِغُرُورٍ**...﴾[3] ؟ وهل استطاع الشيطان أن يغر سيدنا آدم عليه السلام وزوجه؟

---

(١) _ سورة الأنبياء الآية (٢٦-٢٧)

(٢) _ سورة البقرة الآية (٣٣)

(٣) _ سورة الأعراف الآية (٢٢)

أم إن للآية معنىً دقيقاً يتناسب مع مقام هذا الرسول الكريم وما هو عليه من كمال؟

وجواباً على هذا السؤال نقول: إن كلمة ﴿**فَدَلاَّهُمَا**﴾ مأخوذة من دلَّى. تقول: دلَّى فلان الغصن، أي: أدناه منه. وهكذا فالشيطان لما حلف لسيدنا آدم عليه السلام بأن أكْلَه من الشجرة يجعله دائم البقاء مع الله، ومالكاً ذلك الحال، جعله يدنو من الشجرة ويأكل وزوجه منها. أما كلمة ﴿**بِغُرُورٍ**﴾ فليس ينصرف معناها إلى سيدنا آدم عليه السلام إنما ينصرف للشيطان ذاته.

فالغرور إنما كان يُخالط نفس الشيطان، ولم يخالط نفس سيدنا آدم عليه السلام. وبشيء من التفصيل نقول:

الغرور: هو حال نفسي يسيطر على نفس الإنسان، فيجعله يتوهَّم وجود شيء، وهو بالحقيقة غير موجود. فقد يغتر الإنسان ليلاً بضوء القمر، فيتوهم إذا استيقظ ورآه بازغاً أن الصبح قريب، والحقيقة أنه ما يزال في أواسط الليل. وقد يغتر الإنسان بنفسه، فيتوهم أنه قوي وأنه عالم، والحقيقة أنه لا علم للإنسان، إلاَّ بما يعلِّمه الله تعالى إيَّاه، ولا قوة إلا بالله.

وهكذا، فالشيطان إنما كان مغروراً بنفسه، فكان يحسب أنه بهذا القسم الذي أقسمه بالله مُدَّعياً فيه أن الأكل من الشجرة، يُديم لسيدنا آدم عليه السلام البقاء مع الله، يستطيع أن يوقع سيدنا آدم عليه السلام في مخالفة ربّه، فيرميه بالخجل ويبعده عن الله، ولكن الأمور جاءت على عكس ما أراد وتوهَّم. فقد كانت نيَّة سيدنا آدم عليه السلام العالية أساساً متيناً ارتكز عليه في العودة والرجوع إلى الله، وخرج إبليس من هذه المحاولة مذموماً مدحوراً.

وبهذا يتبيَّن لنا أن الشيطان ما استطاع أن يغرَّ سيدنا آدم عليه السلام ويبعده عن الله، وأن معنى كلمة ﴿**بِغُرُورٍ**﴾ إنما تصف حال الشيطان من حيث أنه توهَّم شيئاً، فجاءت الأمور بخلاف ما توهَّم، وباء بالفشل والخذلان.

* * *

أما النقطة الثانية: كيف استطاع الشيطان أن يتوصَّل إلى إلقاء وساوسه إلى سيدنا آدم، وسيدنا آدم عليه السلام مقبل على الله لا ينقطع عنه؟ وهل يمكن أن تعتبر هذه الواقعة دليلاً على إمكان دخول الشيطان على الأنبياء؟

وجواباً على هذا السؤال، وإيضاحاً لهذه النقطة نقول:

تبدو لنا هذه المشكلة جلية واضحة، إذا نحن رجعنا إلى حال الإنسان الأول لما كانت نفسه محيطة بجسده، ثم قارنَّا ذلك الحال الأول النفسي، بهذا الحال الجسمي الذي نحن عليه الآن.

فسيدنا آدم عليه السلام لمَّا كان في جنَّة الإقبال على الله، وكانت نفسه لابسة جسده ومحيطة به، ما كان بين نفسه ونفس الشيطان من حجاب يحجبها عنه، بل كانت تبدو ظاهرة مكشوفة. وبما أن سيدنا آدم عليه السلام مُقبل على الله دائم النظر إليه، لذلك ما استطاع الشيطان أن يفعل أكثر من أن يُلقي إليه بوساوسه إلقاء، ويحدِّثه بما حدَّثه به عن بعد، ودون أن يدنو منه. فقد أكون الآن سائراً في طريق وأسمع عن بعد كلمة يهمس بها إنسان، أو يقصدني بها ويريد أن يجعلها في أذني، ويرغب أن تقع في نفسي، ولا يعتبر ذلك دخولاً منه عليَّ، ولا يعدُّ حديثه وهمسه تسلُّطاً من نفسه على نفسي، إنما هو مجرَّد قول صدرت موجاته من نفس، فأصابت هذه الموجات صفحة النفس الثانية، وبين النفس الأولى والثانية مسافة ظاهرة.

وهكذا فقد تُرسل الآن المحطات الإذاعية مثلاً "اللاسلكية" بموجاتها من منطقة في أقصى الشرق، فتعكس هذه الموجات الأجهزة الأخرى اللاقطة التي تقع في المغرب الأقصى، وبين المحطتين بعد المشرقين.

إن هذا المثال يوضِّح لنا هذه النقطة التي نحن بصددها وضوحاً تاماً، ويبيِّن لنا أن الشيطان ما دنا من سيدنا آدم عليه السلام، ولا دخل عليه، وهو لا يستطيع أن يدنو منه، لأنه عليه السلام دائم الوجهة إلى الله، بل كل ما في الأمر أنه وسوس إليه وسوسة عن بعد. وقد وردت الآية صريحة بهذا المعنى، إذ قالت: ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ...**﴾[1].

ولم تقل وسوس في صدره أو في نفسه، كما في قوله تعالى:

﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾[2]. أي المنقطعين عن الله تعالى.

ومن الواضح أن حرف "**إلى**" يدلُّ على الانفصال، وأن حرف "**في**" يدل على الظرفية والاشتمال. وهكذا، فلا تُعدُّ هذه الوسوسة الملقاة عن بعد، دخولاً من الشيطان على سيدنا آدم عليه السلام أو دنواً منه، ولا يمكن أن تُعتبر هذه القصة، دليلاً على إمكان دخول الشيطان على الأنبياء. بقي علينا أن نبيِّن عدم إمكان دنو الشيطان من الأنبياء في هذا الحال الجسمي، مثلهم كمثل سائر البشر، من حيث كون أجسامهم محيطة بأنفسهم، وكون الحكم للجسم، فهم يولدون كما يولد سائر البشر، ويطرأ على أجسامهم في الحياة الدنيا ما يطرأ على أجسام غيرهم، من صحة ومرض، وشباب وشيخوخة، وضعف وهرم وموت.

أما أنفسهم صلوات الله عليهم، فهي دائمة الإقبال على الله، فبما عَرَفَتْ من رأفة الله ورحمته بخلْقه، وبما شهدته من كماله تعالى، وجماله اللامتناهي، أضحت عاكفة في ذلك الجناب العالي، وهي والحالة هذه، مغمورة بذلك التجلِّي الإلَهي، مشمولة بذلك النور لا ينقطع عنها طرفة عين.

---

(١) _ سورة طَه الآية (١٢٠)

(٢) _ سورة الناس الآية (٥)

وبما أن النفس في هذا الحال الجسمي محاطة بالجسم، ولا يمكن أن تصلها وساوس الشيطان من بعيد، بل لا بد له من النفوذ إليها عن طريق الجسم واختراق الصدر، وحيث أن أجسام الأنبياء مغمورة دوماً بذلك النور الإلّهي المتوارد على نفوسهم، بصدقهم القوي جداً مع الله، وحبِّهم العظيم له تعالى، لذلك لا يستطيع الشيطان أن يدنو منهم، وأن يخترق ذلك النور الإلّهي، وهم صلوات الله عليهم بهذا التجلِّي، في حصن حصين من الشيطان وحرز منيع.

وهكذا نخلص من حديثنا هذا وقد بيَّنا أن الشيطان لا سبيل له ولا مدخل على الأنبياء قطْعاً، كما أنه لا سبيل له على كل مؤمن، ما دامت نفسه مقبلة على الله متجهة إليه، أو مرتبطة بأنبيائه الكرام البررة. وقد أرشد تعالى الإنسان بصورة عامة إلى هذه الوسيلة التي يتخلَّص بها من الشيطان فقال تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[١].

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[٢]

* * *

والآن، وبعد أن أجبنا على أسئلة دقيقة كنّا أوردناها، لا بد لنا من معالجة نقطة جديدة تتلخص بهذا السؤال التالي:

هل كان خروج سيدنا آدم ﷺ إلى هذه الدنيا ومجيء بني الإنسان من بعده إليها أحسن، أم أن بقاءه في الجنَّة وخلق بني الإنسان في الجنَّة، رأساً دون خروجهم إلى الدنيا أحسن؟ وأي الحالين يعود على الإنسان بالسعادة والخير، أكثر من الآخر؟

وجواباً على هذا السؤال نقول:

---

(١) _ سورة الأعراف الآية (٢٠١)

(٢) _ سورة النحل الآية (٩٩-١٠٠)

تتوضَّح لنا هذه النقطة إذا نحن رجعنا إلى الحديث عن الجنَّة وحقيقتها، وأن منازل الناس في الجنَّة إنما تكون على حسب أعمالهم. وزيادة في التفصيل نضرب المثال الآتي فنقول:

هبْ أن رجلاً سافر في قطار، وكانت الطريق التي تطل عليها نافذة القطار من أجمل ما خلق الله تعالى في مناظرها ومشاهدها وعجائبها وغرائبها.. حدائق وأشجار، وأنهار وبحار، ومناظر فتَّانة، ومدن جميلة مختلفة لم يرَ الراؤون نظيرها، ولم يخطر لهم مثالها على بال. فما دام هذا القطار مستمراً في سيره لا يتوقف عن المسير، تجد هذا الإنسان الراكب مشرئباً بعنقه إلى تلك المشاهد، لا يبغي عنها حولاً لتجدُّدها وتباينها، وتراه لا ينقطع عن النظر، مخافة أن يفوته شيء منها. أما إذا وقف هذا القطار، وطال به الوقوف، تجد هذا الراكب ينصرف عن النافذة متحولاً، ولو كان المشهد الذي وقف أمامه من أجمل المناظر وأمتعها. والسبب في ذلك هو أنّ النفس بحسب ما فطرها الله تعالى عليها وما جعله فيها من الوسعة اللامتناهية، تضيق إذا هي حُبست عند حال واحدة. وحب الاستطلاع على كل جديد، من الأمور التي فُطِرَ عليها الإنسان، فإن توقَّف على حال واحد، تسرَّب الملل إليه، وأصبح الجميل الذي لا يتبدَّل، مُملاًّ بل ممقوتاً، حتى والمطرب اللذيذ بتكراره دون جديد، يغدو مرفوضاً ومدعاة للملل.

هذا وبناء على ما قدَّمناه نقول:

بما أنّ ارتقاء الإنسان وتنقُّله في جنَّة الإقبال على الله، يتوقف على حسب ما كنّا بيَّناه من قبل، على ما يقدِّمه الإنسان في هذه الحياة الدنيا من صالح الأعمال، ولذلك، فلو أن الإنسان خُلِقَ في الجنَّة رأساً، ولم يخرج إلى هذه الدنيا، لما كان له عمل يتقرَّب به إلى خالقه زلفى، ولما أمكن الارتقاء من حال إلى حال

أعلى، ومن جنَّةٍ إلى جنَّة أوسع وأرقى، بل لظلَّ في الجنَّة ملازماً لمنزلة واحدة لا يتعداها.

وهكذا، فالله تعالى إنما خلق النفس البشرية، وأعطاها أعظم وأغنى عطاء، فقد جعل فيها من القابلية للتدرُّج في مشاهدة الكمال الإلّهي، والتوسُّع في هذه المشاهدة ما لا يقف بها عند حد أو انتهاء، وذلك في قوله ﷺ في حديث قدسي: **(ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن)**.

وأخرجها تعالى إلى هذه الدنيا، وفتح لها مجال العمل، لتكون أهلاً لذلك الشهود اللامتناهي وذلك الارتقاء، وجعل الشهوة دافعة للعمل، مانحةً إيَّاه قيمته، إذ لو لم تكن للإنسان شهوة إلى المال مثلاً، لما كان للصدقة عنده وزن ولا قيمة، وكذلك غضُّ النظر عن النساء اللواتي لا يحل النظر إليهن، وبذلك كله أهَّل الله تعالى هذا الإنسان لأعظم ما يمكن أن يناله مخلوق من الفضل الإلّهي، والنعيم المقيم.

أفليس إخراج الإنسان والحالة هذه إلى الحياة الدنيا فضلاً من الله ونعمة، خير من إبقائه في الجنَّة؟ أي: من جنَّةٍ واحدة عالية قطوفها دانية، إلى جنَّاتٍ عُلا بمسرَّات عالية متزايدة متسامية، تنكبُّ عليها النفس لتنوُّعها وتفاضلها سموّاً وعلوّاً، تروق للرائي المتذوِّق، وتملؤه حبّاً بالإلّه الرحيم العظيم الذي دوماً يُغدق عليه سعادة أسمى من السعادة التي قبلها، فلا ملل ولا كلل، بل سرور مغمور بحبور، مع زيادة في العلو والقرب من الرحيم المنَّان، أي: من جنَّة إلى جنان، وهذا المؤمن متّكئاً في معارجه، على أعمال ممزوجة بالنوايا الإنسانية! قال تعالى مشيراً إلى أن إخراج الإنسان إلى هذه الدنيا، خير من ذلك الحال الذي كان فيه سيدنا آدم عليه السلام سابقاً، بما بيَّنته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا**

عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1]

ولباس التقوى الذي ازدان به آدم عليه السلام، خيرٌ من الحال الأول الذي كان فيه. كذا إخراج الطفل من بيته السعيد إلى المدرسة، وما فيها من قيود وتشديدات، خير له من البقاء في بيته، بيت الانطلاق والحرّية، لأن رقيَّه يتم من تدريسه، فالدنيا مدرسة ويليها الرقي في الدنيا والآخرة، وما لم يخرج للمدرسة، يبقى مقعداً عن السمو لا رقيَّ له، كذا كان سيدنا آدم عليه السلام في جنَّة واحدة، لكنه بعد الحياة الدنيا، غدا في جنَّات متعالية متنوِّعة متسامية، نحو الأفضل والأكمل، بديمومة مرغوبة محبوبة أي: بدل الجنَّة جنَّات.

---

(١) _ سورة الأعراف الآية (٢٦)

الفصل السادس

في هذا الفصل:

- **طريق الإيمان.**
- **مقتطفات من علوم العلاَّمة الإنساني محمّد أمين شيخو قدَّس الله سره.**

* * *

طريق الإيمان

إن هذا الكون بما فيه من شمس وقمر وكواكب وأجرام، بما فيه من أمطار وثلوج وسحب ورياح، بما فيه من أرض وسماء وحيوان ونبات، حتى الكرة الأرضية في جريانها ودورانها، والفصول الأربعة في تبدُّلها وتعاقبها، والليل والنهار في اختلافهما وتلاحقهما، وإن شئت فقل:

هذا العالم الخضم الزاخر بالمخلوقات وبجميع ما فيه من كائنات، حتى جسمك وما تألَّف منه من أجهزة وأعضاء، وما يجري فيه من مبادلات وتحليل وتركيب وقيام غدده بما يتطلَّبه من إفرازات، وتهيئة ما يلزمه من مواد مختلفات، ذلك كله ممَّا تعلمه وما لا تعلمه إنما يجري ضمن قانون ثابت ووفق نظام.

وإذا كان الخالق العظيم قد جعل لهذا الكون بجميع ما فيه من مخلوقات قانوناً ونظاماً يسير عليه ولا يتعدَّاه، وإذا كان الخالق العظيم قد سخَّر هذا الكون وذلَّلَهُ لهذا الإنسان، فهل يُتصوَّر ويُعقل أن لا يكون لهذا الإنسان وهو أكرم المخلوقات وأفضلها قانون ونظام؟ هل نظَّم الخالق العظيم الكون كله وترك الإنسان يسير في هذه الحياة على غير هدى ونظام؟ هل نظَّم الخالق العظيم الكون كلَّه وأهمل هذا الإنسان، وتركه يتخبَّط في الظلمات فلا يعرف خيره من شره ولا يدري كيف يسير في مجاهل هذه الحياة؟ الفكر المستقيم والمنطق الصحيح والوعي السليم، كل هذا يحكم مقرّاً بوجود هذا النظام المرسوم لهذا الإنسان، فأين يا تُرى ذلك القانون والنظام؟

تعالَ معي ننظر فيما جاء به الرسل الكرام عامَّة عن الله، تعال نستمع إلى أوَّل كلمة أوحى بها الله تعالى إلى الرسول ﷺ ليُبلِّغها للناس إذ قال تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ**

﴿الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

تعال لِنُدقِّق في هذه الكلمة التي بلَّغها الرسول محمد ﷺ للعرب كافَّة ولجميع العالمين، تعال ننظر في تلك الدلالة التي دلَّ الرسول عليها أصحابه الكرام، تعال ننظر إلى ما كان يتلوه عليهم في مكة وفي الأيام الأولى من بعثته ﷺ من قرآن مُنزَّل من عند الله، تعال ننظر نظرات الظامئ إلى الحقيقة لا المتمسِّك بما وجد عليه آباءه الأولين دون وعي أو تفكير، تعال نخرج من هذه الجهالات التي ركَّبتها فئات من ذوي الأهواء والضلالات، تعال نرجع إلى الحق والحق أحق أن يُتَّبع، ولنقتد بالرسل الكرام ولنتبع النهج القويم الذي ساروا عليه كافَّة تجد النظام المنشود والقانون المرسوم في القرآن، والذي طبَّقه رسول الله ﷺ بذاته ودعا إلى تطبيقه صحابته الكرام، فكان لهم ما كان من شأن حتى ملأ ذكرهم الخافقين، وفازوا بما فازوا به من السعادة والخيرات.

أقول: ذلك القانون والنظام هو أن تتعرَّف إلى أصلك وتنظر في بدايتك أيها الإنسان، فمن عرف نفسه عرف ربَّه، ومن عرف ربه هداه طريق السعادة وحفظه من الشقاوة والضلال، ومن يهدِ الله فهو المهتدي، ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه. فكِّر أيُّها الإنسان في أصلك، وتفكيرك في أصلك وبدايتك أوَّل مواد هذا القانون والنظام الذي شرَّعه لكَ الله، فكِّر وكيف لا تُفكِّر وقد تفضَّل عليك ربُّك بتلك الجوهرة الثمينة التي تساعدك على التفكير وتصل بك إلى معرفة خالقك ومربيِّك، فكِّر وكيف لا تُفكِّر وقد جعل لك في هذا الكون من الآيات العظيمة والنظام البديع مراتع واسعة ومجالات كبرى يرتع ويجول فيها التفكير، فكِّر وكيف لا تُفكِّر والكون أمامك كتاب مفتوح تستطيع أن تقرأ فيه ولو لم يعلِّمك مُعلِّم، ولو لم يتولَّ أمرك أحد، فالله تعالى لك إن صدقت خير مُعلِّم ودليل، فكِّر في أصلك

---

(١) _ سورة العلق الآية (١٥)

يوم كنت نطفة في ظهر أبيك، فكِّر في هذه النطفة كيف تكوَّنت وممَّ تركَّبت، فكِّر في هذه النطفة أين وضعت واستقرت؟

فكِّر في نفسك وقد أصبحت في ظلمات الرحم وفي ذلك المستودع الأمين، فكِّر في تلك الأطوار التي مررت بها فمن نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة ومن مضغة إلى عظام، عظام مركَّبات بنظام واتساق، رُكِّبت عليها العضلات وخُلِقَ منها تجويف الدماغ وللعين والأذن والفم منه مكان، وللقلب والرئتين قفصهما وللأحشاء منها حوامل ومراكز للعروق والأوتار.

فكِّر ولا أريد أن أُفصِّل لك في هذا كل التفصيل، بل أدع لك المجال لتُشاهد وترى كيف أنَّ النطفة الأمشاج تحوَّلت إلى إنسان سوي ومخلوق كريم، فكِّر وقدِّر عظمة تلك اليد التي أوجدتك وصوَّرتك وسوَّت لك هذه الأعضاء وجعلت الدماغ والقلب والأجهزة الرئيسية، وما تتألف منه من أَعْظُمٍ وأجزاء في مكان أمين وحرزٍ حريز، فكر في تلك اليد التي كانت تسوق لك الغذاء وأنت في طريقك إلى الدنيا وحيداً فريداً لا حول لك ولا قوة، وما تملك لنفسك رزقاً وما يملك لك أحد رزقاً، لكن تلك اليد التي سهرت على خلْقك هي التي كانت ترزقك، فتسوق لك الغذاء وتمدَّ كل عضو من أعضائك بما يلزمه من مواد.

فكِّر في تلك اليد التي استطاعت خلال بضعة أشهر نقلك من نطفة إلى إنسان، فما تأخَّر خلقها وما هي بمسبوقة عن إنجاز الخلق وتركيب الإنسان في مدَّته المعيَّنة، فما أن أزف موعد الولادة والخروج إلى الدنيا حتى قَلَبَتْكَ وأنت في بطن أمك رأساً على عقب، فجعلت رأسك إلى أسفل وأرجلك إلى أعلى ويسَّرت لك السبيل إلى الولادة، قال تعالى: ﴿**قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ**﴾[١].

---

(١) _ سورة عبس الآية (١٧-٢٢)

فكِّر وقد نزلت إلى هذا العالم الجديد في أرض جديدة، فأحاطك بعطف أُمك ولطفها وبثَّ في قلبها محبَّتك وأودعه حنانها وهيأ لك طعامك في ثدييها فإذا هو سائغ شرابه، لذيذ طعمه، مغذٍّ حاوٍ كلَّ ما يحتاجه جسمك من مواد وجميع ما يتطلَّبه. فكِّر في تلك الوجبات من الغذاء التي كانت تُهيّئها لك تلك اليد الرحيمة بك، فتزيد لك في معاييرها الغذائية لحظة بعد لحظة ووجبة بعد وجبة زيادةً متناسبة مع نُموّك وتقدُّمك في السن، حتى إذا ما احتاج جسمك مزيداً من التغذية وأصبحت معدتك قادرة على هضم الأطعمة، أنبت لك الأسنان اللبنية سنّاً بعد سن حسبما يقتضيه النماء وتتطلبه الحاجة.

ولسنِّ سبعٍ خلت من سني الحياة، ومن أجل جسم سيُهيَّأ لأن يضطلع بأمور هامة وأعمال عظيمة وفكْر يدبِّر أموراً جليلة بدَّل لك تلك الأسنان اللبنية بأسنان دائمة تستطيع أن تهيئ لهذا الجسم ما يتطلَّبه من غذاء، فكِّر في تلك اليد التي تُربِّيك الآن فترسل بأشعة الشمس الحارة على البحار تُبخِّر مياهها، وتمرُّ الرياح فتسوق السحب وتُثيرها من مكامنها ثم حييت الأرض من بعد موتها وارتوت من بعد عطشها كشفت الغيوم وأعادت إلى السماء صفاءها وللشمس إشراقها فإذا الزرع في نماء وإذا الأرض تجود بالخيرات، قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ، لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ، أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ، لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ**﴾[1].

فكِّر في الأغذية وأنواعها، والأزهار وأشكالها وروائحها، والفواكه وألوانها وطعومها، فكِّر في الفصول الأربعة وتقلُّبها، فكِّر في النوم وقد جعله الله تعالى لك سباتاً وفي النهار معاشاً، فكِّر في الهواء يقدِّم لك ما في التنفس والاستنشاق وما

---

(١) _ سورة الواقعة الآيات (٦٣-٧٠)

يساعد على الاحتراق، فكِّر في الشمس وهي تمدُّك بالحرارة والضياء، فكِّر في البحار، في الأنهار، في السهول والجبال، في الحيوان والنبات، في الملابس والثياب في الصوف والقطن والكتَّان، فكِّر في هذه اليد التي تؤمِّن لك جميع ما تحتاج، وتسهر على تربيتك فإذا هي تغدق عليك من خيراتها وتغمرك بفضلها وتواصل عليك إمدادها في كل لحظة وآن دون أدنى انقطاع.

فكِّر على هذا النمط وبهذه التربية فبمثل هذا التفكير بدأ سيدنا إبراهيم أولى خطواته سائراً في طريق الإيمان، وبمثل هذا التفكير بدأ سائر الرسل الكرام من لدن سيدنا آدم عليه السلام حتى سيدنا محمد ﷺ، فكِّر فإن أنت فكَّرت اهتديت وعرفت أنَّ لك مربِّياً عظيماً ساهراً عليك لا يغفل عنك طرفة عين، أمدَّك جنيناً ثم مولوداً وطفلاً صغيراً، ثم رجلاً وإنساناً كاملاً ما يزال إمداده عليك دائماً، وخيره إليك جارياً متواصلاً، حتى إذا ما استقرَّ في نفسك وعقلته فتحققت فيه، فهنالك سينفتح أمامك أفق جديد ونمط آخر من التفكير.

سترى أن جسمك سوف لا يبقى قوياً جلِداً وأنك سوف لا تعيش في الحياة مخلداً، فهذا قريبك قد ودَّع الحياة ومات، وهذا جارك قد فارق زوجه وبنيه وقضى نحبه، ولم يتمتَّع بالحياة الدنيا سوى أعوام معدودات، وذاك صديقك لم يفرح بمتجره ولا ببيته الذي شاده وبناه، بل قطع هاذم[١] اللذات كل أمل له في الحياة ووافاه الأجل ولم يُنظره لحظات. وذا مات مريضاً وذا عليلاً وهذا فجأة دون أدنى استعداد، وتنظر إلى هذا وذاك، حتى أنك لتمر بذهنك على الملوك والأمراء والقوَّاد العظماء والأغنياء والفقراء، حتى الرسل الكرام فما تجد الموت أبقى أحداً، وهنالك تعلم أنَّ الموت مصيرك المحتوم رغم كل المحاولات، كما هو مصير من كان قبلك فلا نجاة منه ولا خلاص، وهنا تنقطع آمالك من هذه الحياة الدنيا، وتعلم أنها

(١) _ هاذم: بالذال، بمعنى قاطعها، لأنه إذا جاء لا يبقي من لذائذ الدنيا شيئاً.

دار الرحلة والفناء.

ويبعث التفكير في الموت الخشية في نفسك والرهبة ويولِّد الصدق في معرفة المربي، وتهبُّ تبحث صادقاً عنه وتتساءل من هو هذا المربي الذي خلقني من نطفة، ولم أكن من قبل شيئاً مذكوراً، ثم جعلني طفلاً فرجلاً كبيراً؟ وتنظر في الكون من جديد نظرة أخرى أوسع من سابقتها، فتجد أن هذا المربي هو المسيِّر الذي يسيِّر الشمس والقمر، ويدير الكون كله بما فيه من أجل تربيتك وتأمين ما يلزمك، فلا يد لأحد معه ولا تصرُّف لغيره، وهو الله وحده لا إلّه إلا هو. وهنا تنتقل من الإيمان بالمربي إلى خطوة جديدة أخرى، وهي الإيمان بأن هذا المربي هو الإلّه المسيِّر، فترى الأجرام السماوية جارية في مسابحها وأفلاكها، وتشهد الشمس تُرسل بأشعتها وحرارتها، والغيوم وقد هبَّت ثائرة من مكامنها، والرياح وهي تجري عاصفة في اتجاهاتها، والبحار الزاخرة متدافعة مياهها متلاطمة بأمواجها، والأنهار منطلقة من منابعها سائرة إلى مصبَّاتها منحدرة شلالاتها، حتى الكرة الأرضية السابحة في فضائها الجارية في فلكها الدائرة حول نفسها بما فيها من المخلوقات التي على ظهرها، ترى ذلك كله سائراً بأمره تعالى وقدرته.

وتتعمَّق في النظر وتزداد تعمُّقاً فترى أنه لا يخطو مخلوق خطوة ولا يرفع يداً ولا يتحرك حركة، إلا من بعد إذنه تعالى وإرادته، وتنتقل في التفكير مرتقياً متسامياً حتى تصل إلى درجة تشهد معها، أن الكون كله وحدة متّصلة الأجزاء مترابطة الذرَّات يعمل كله في اتساق وانسجام، وتلك الإرادة الإلّهية هي المشرفة والقائمة عليه، وذلك المربي هو الإلّه المسيِّر لهذا الكون كله، فلا مسيّر غيره ولا إلّه سواه.

إنَّك تعلم أن ربك هو الله وهنالك تشهد أن لا إلّه إلا الله، بلسانك من بعد أن شهدتها نفسك في الكون كله، ومن بعد مشاهدتها في صميمك، تقولها بلسانك وقد عقلتها عقلاً لا عن سماع وتقليد، وتؤمن بها كما آمن السلف الصالح والصحابة

الكرام، لا إيماناً كإيمان العجائز مبنياً على خُرافات وأوهام، وإذا أنت والحالة هذه قد آمنت بتلك الكلمة صدقاً، وقلت لا إلّه إلا الله حقاً وذلك بعض ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ...**﴾(١).

وقوله ﷺ: **(من قال لا إله إلاَّ الله مخلصاً دخل الجنة، قيل: وما إخلاصها؟ قال: أن تَحْجُزَهُ عن محارِمِ الله)** (٢).

وكيف لا تحجزه عن محارم الله وقد أضحى في حال يرى الله تعالى معه مشاهداً رقيباً كيفما سار وأنَّى اتَّجه؟

والآن وبعد أن بلَّغتك هذه المرحلة، مرحلة الإيمان بلا إلّه إلا الله من بعد أن وصلت بك بمرحلة الإيمان بالمربي، سأسرع في المسير وقد أضحيت ممَّن يستطيع السير معي بسرعة دون إبطاء، أريد أن أُبيِّن لك آثار الإيمان بكلمة **(لا إله إلا الله)**، وأن أنقلك إلى محبة رسول الله ﷺ فأقول: إذا أنت وصلت إلى الإيمان بلا إلّه إلا الله، وأصبحت ممن يرى أن سير الكون كله بيد الله، وانغمرت نفسك بهذه المشاهدة فصرت ترى أنه لا رياح تهبُّ، ولا غيوم تتلبَّد وتتجمَّع، ولا أمطار تهطل، ولا برق يلمع ويومض ولا رعد يدوي، ولا بحر يموج بعضه في بعض فيعلو ويهبط، ولا نهر يتدافع ماؤه في تدفُّق متواصل، ولا بركان يثور في غضب، ولا سيل يجري في عنفوان وشدة، ولا زلزال يهزُّ الأرض هزّاً فيلقي الذُّعر في قلوب غافلة لاهية، ولا أرض تدور في سبيل توليد ليل ونهار وفصول أربعة، ولا نجوم تجري لامعة في أفلاك مُنظَّمة، وإن شئت فقل:

إذا أنت أصبحت ممَّن يُشاهد أن الكون بجميع ما فيه من مخلوقات، وحدة تُصرِّفه يد عزيز حكيم وإرادة عليم خبير، حتى أن يدك لا تتحرك بحركة وعينك لا

(١) _ سورة محمد الآية (١٩)

(٢) _ رواه الطبراني في الأوسط الكبير.

تطرف بنظرة، وأذنك لا تستمع إلى صوت أو جلبة، وقلبك لا يخفق نابضاً بين انقباض وانبساط، وأن معدتك لا تفرز عصاراتها على ما فيها من أطعمة، وكبدك لا يقوم بتخزين مواد وإفراز مواد وفق معايير منظَّمة، ورئتك لا تتَّسع وتنقبض في شهيق وزفير، ودمك لا يجري في شرايين وأوردة، والكريات الحمر لا تنقل ما تنقل في غدوٍ ورواح، والكريات البيض لا تقف مع الجراثيم في صراع وعراك، والجراثيم لا تُهاجم الجسم في عنفوان وشدّة، أقول:

إذا أنت وصلت إلى هذا عن طريق العقل والمشاهدة النفسية، لا عن طريق السماع من ذوي الاختصاص والنَّقل عن المجلَّدات والكتب، وصرت ترى أن الأمر كله بيد الله، وأن الناس جميعهم خاصَّتهم وعامَّتهم، قريبهم وبعيدهم، قويّهم وضعيفهم، لا بل الخلائق كلَّها لا يستطيع أحد منها أن يجلب لك خيراً أو يدفع عنك شراً أو يمدَّ لك يده بسوء أو أذى، أو يغيِّر من شأنك تغييراً، إلا من بعد إذن الله: تدخل في حصن الاستقامة ولا تستطيع أن تخرج عن حدود الله، وبما أن النفس لا تستطيع أن تظل هادئة بلا عمل، وبما أنها هجرت المنكر وهاجرت إلى الله لذلك تراها تنطلق جاهدة في فعل المعروف والإحسان، وتشتغل في مساعدة كل ذي حاجة تقرُّباً بفعلها إلى الله.

هنا وفي هذه المرحلة مرحلة الاستقامة على أمر الله، والتقرُّب بفعل المعروف زلفى إلى الله، تتولَّد في النفس الثقة بإحسانها والثقة برضاء الله عنها، وهنالك وبمثل هذه الثقة تقبل النفس على خالقها وتستقيم إليه وجهتها وتنعقد صلتها وتصلح صلاتها، فترى أنها في حال القرب لا البعد، والوداد والصفاء لا البعد والجفاء، والحياة الطيبة والروح والريحان، وعندئذٍ وبهذه الصلة والوجهة وبتلك الصلوات الطيبات تحصل النفس على ثمرتين ما كانت لتجنيهما لولا صلتها بخالقها، وما كانت لتظفر بهما لولا إقبالها على الله.

أما الثمرة الأولى: فهي أنها بوجهتها إلى خالقها تتساقط منها الذنوب، وأعني بالذنوب ما عَلِقَ بالنفس من شهوات دنيئة وما تمكَّن فيها من أدران. فبهذه الصلة بالله، تنحتُّ هذه الشهوات الدنيئة مُتساقطة، وتنغسل النفس من أدرانها، فتخرج من صلاتها وقد اكتسبت طهارة ونقاوة، وخلصت من شهواتٍ كانت تُنغِّصها وأدران كانت تُلوّثها، فلا بخل ولا جبن ولا حرص على الدنيا ولا شح، ولا فظاظة ولا غلاظة، ولا قساوة قلب ولا حب إيذاء، ولا ذل ولا خنوع، ولا ميل إلى بغي ولا عدوان، ولا مطمع بما في الدنيا من جاه وسلطان، حتى ولا أي صفة رديئة تُنقص من قيمة الإنسان وتُحط من شأنه بين الناس وعند الله.

ذلك كله تمحوه الصلة بالله والإقبال عليه تعالى، وفي حديث شريف ورد عنه ﷺ مبيّناً فيه أثر الصلاة في نفس الإنسان إذ يقول ﷺ:

(أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلَّ يوم خمس مرات ما تقولون؟ ذلك يبقي من درنه شيئاً؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا) (١).

تلك هي أولى ثمرات الإقبال على الله تعالى ونتائج الصلاة الصحيحة.

أما الثمرة الثانية: فإليكها وكم أنت مُغتبط إن نلتها، إنك وفي حالة صلة نفسك بخالقك لتشعر بالحياة تسري في أعماقها كما يشعر المرء بدفء الشمس المنعش في أيام البرد الشديد القارس، وتشعر بالحياة تسري في نفسك كما يشعر المرء بنسيم الهواء الرطب العليل إذا جلس تحت شجرة يتفيَّأ ظلالها في أيام الصيف الشديدة القيظ، وتشعر بالحياة تسري في نفسك كما يشعر الظامئ الهيمان بجرعة الماء البارد يسري ريُّها في عروقه فيطفئ ظمأه ويُنعش جسمه وروحه، وتشعر وتشعر وليس من شعور لدى المؤمن بأجمل من ذلك الشعور الذي يجده في

(١) _ أخرجه البخاري ومسلم.

ساعات إقباله على خالقه ومربِّيه، وفيما أنت منغمس بهذا الحال من الشعور السامي الرفيع، تنطبع على صفحات نفسك معانٍ عالية من الكمال وتلك هي الثمرة الثانية التي تجنيها النفس من تلك الصلاة الصحيحة وذلك الإقبال على الله. ومن آثار هذا الكمال الذي اصطبغت به النفس في ساعات الإقبال على الله، ومن مظاهره في نفس هذا المؤمن السائر في ذلك المضمار: الرحمة والحنان، والكرم والجود والسَّخاء والمروءة ومَدُّ يَدِ المعونة للمحتاج، وصِدْقُ الحديث والصراحة في الأقوال، واللطف والرقة ودماثة الأخلاق والحلم والأناة والحياء، والشجاعة والوقوف في وجه الباطل وقفة الأبطال، والعدل والإنصاف وعزّة النفس والإباء، وهكذا عدِّدْ ما شئت من صفات الكمال ومظاهره تجد النفس قد نالت في حال إقبالها على الله تعالى شطراً منه واصطبغت به، قال تعالى:

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾(١).

والآن وقد بلغت النفس هذه المرحلة وأضحت في تلك المنزلة، وأصبحت ذات كمال وخُلقٍ عالٍ، تجدها تُحب كل ذي كمال وخُلق عالٍ، إنها تحب كل ذي كمال بسبب ما فيها من كمال، إذ لا يُقدِّر الفضل إلا أهل الفضل ولا يعرف الكمال إلا أهل الكمال، فإذا رأت أهل الكرم والجود قدَّرت سبقهم إياها في الكرم والجود، وإن شاهدت أهل الرحمة والحنان قدَّرت تفوُّقهم عليها في الرحمة والحنان، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الصفات والأخلاق، فهي تُقدِّر كل متفوِّق عليها وسبقه إياها، فإن وجدت مؤمناً كاملاً أحبَّتْه، وإن اجتمعت بمرشد صادق عشقته وصاحبته، وبما أن رسول الله ﷺ هو سيِّد أهل الكمال، وأسبق العالمين قاطبةً في هذا المضمار، وحيث إنه ﷺ بقربه العالي من خالقه اكتسب من تلك الحضرة الإلَهية أوفر حظ من الكمال، حتى إنه لم يدانه في ذلك المقام ملك ولا إنسان، لذلك تجد هذا

---

(١) _ سورة البقرة الآية (١٣٨)

المؤمن يُقدِّر رسول الله ﷺ تقديراً عظيماً يملأ قلبه وجوارحه، فلا يرى مخلوقاً أعظم في نظره ولا يجد إنساناً أسمى مكانة من رسول الله ﷺ، فإذا ما سمع بذكره حنَّ إليه قلبه، وإذا ما ذكر اسمه وذُكرت شمائله وأعماله سَرَتْ إليه نفسه قاطعة شاسع المسافات متخطِّية وبأقل من لمح البصر القرون والأجيال، فإذا هي في صحبة مع تلك النفس العالية، وإذا هي متمسكة بتلك العروة الوثقى استمساكاً لا انقطاع له ولا انفصام.

هنا وبهذا السريان النفسي وبذلك الارتباط المعنوي والصحبة لتلك النفس، وأعني بها نفس رسول الله ﷺ الزكية الطاهرة، تعرج نفسك إن كنت ممَّن وصل إلى هذا المقام بلطف ومن دون شعور مصاحبةً نفس رسول الله ﷺ المقبلة دوماً على الله، فإذا النفسان معاً في حضرة الله، وهنا يُضيء لك ما سمَّاه الله تعالى بالسراج المنير وهو نور رسول الله ﷺ عن طرف من كمالات الله تعالى فتُشاهد ما تُشاهد ما أنت أهل لمُشاهدته من رحمة إلَهية وحنان وعطف ولطف ورأفة وإحسان وعدل وقدرة وعلم وحكمة، وواسع فضل وتربية وإمداد برزق لكل ذي روح وحياة، وتسيير شامل إلى غير ذلك من الأسماء الإلَهية التي ما رأى طرفاً منها راءٍ إلا وهام بها عشقاً وشُغف بها حُبّاً.

وهنا وبمثل هذا العشق لذلك الكمال الإلَهي والحب المنبعث عن رؤية تلك الأسماء الحسنى تحصل النفس على صلة عالية بخالقها، صلة ولَّدها الحب المنبعث عن رؤية الأسماء الإلَهية والكمال، وهنالك وبهذه الصلة تكتسب النفس نوراً من الله تعالى ترى به الخير خيراً فتحبّه وتميل إليه، والشر شراً فتأنف منه وتزهد فيه، ولعمري تلك هي التقوى التي حثَّ الله تعالى عليها وندب إليها عباده المؤمنين إذ قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

﴿يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٤].

نعم تلك هي التقوى على حقيقتها، إنها اتّقاء الشرور بنور الله تعالى، إنها اتّقاء المهالك ورؤية ما في الدنيا من مفاسد بذلك النور الإلّهي، الذي ما كنت تستطيع أن تصل إليه لولا ارتباط نفسك بنفس رسول الله ﷺ.

وهكذا فالإيمان برسول الله نتيجة من نتائج الإيمان بالله، وحب رسول الله ﷺ مقترن دوماً بالإيمان الصحيح مترافق مع الصلة الحقيقية بالله، وفي الحديث الشريف الذي ورد عنه ﷺ إذ يقول: **(ألاَ لاَ إيمان لمن لا محبة له، ألاَ لا إيمان لمن لا محبة له، ألاَ لاَ إيمان لمن لا محبة له).**

فَإنَّ فَضلَ رسُولِ اللهِ ليس لَهُ ... حَدٌّ فيُعرِب عَنْهُ نَاطقٌ بِفَمِ

* * *

(١) _ سورة التوبة الآية (١١٩)

(٢) _ سورة الحديد الآية (٢٨)

(٣) _ سورة الأنفال الآية (٢٩)

(٤) _ سورة الأحزاب الآيات (٧٠-٧١)

مقتطفات من علوم العلاَّمة الإنساني محمَّد أمين شيخو قدَّس الله سره

هكذا هو دأْب هذا العلاَّمة الإنساني الجليل قدَّس الله سره في كل ما أتحفنا به من علوم غزيرة، تدير العقول، وتحني الجباه، إجلالاً واستعظاماً لمعاني القرآن الكريم، فقد ملأت علومه القرآنية أطباق السماوات بما أفاض الله تعالى عليه، فهو الذي برَّأ الأنبياء الكرام في كتابه **(عصمة الأنبياء)** من كل ما يتنافى مع عصمتهم وكمالهم وطهارة نفوسهم، وشرح أعمالهم العالية التي استحقوا بها رسالة ربهم، فأصبحوا هادين مهديين، وردَّ كل قول أو رواية تتنافى مع عصمة سيدنا محمد ﷺ بكتابين أفردهما عن الحبيب المصطفى **(حقيقة سيدنا محمّد ﷺ تظهر في القرن العشرين)** وكتاب **(زيارة الرسول ﷺ وأثر محبته في رقي النفس المؤمنة)**.

* لقد بيّن الحكمة من آيات القرآن الكريم، ومن كل أمر أمرنا به جلَّ وعلا، فشرح أحرف أوائل السور التي عجز عن إدراكها كافة علماء المسلمين، وبيانه المعجز لفاتحة أم الكتاب، وسرّ قراءتها في الصلاة التي وقف أمامها كافة العلماء والأولياء حيارى. وذلك في كتاب **(أسرار السبع المثاني)** وكتاب **(تأويل الأمين للقرآن العظيم)**.

* كما أنه استنبط أوقات الصلوات الخمس من القرآن الكريم، وبيّن الحكمة منها وسرّ التوجه إلى الكعبة، كما استنبط نسبة الزكاة (٢,٥%) من الآيات القرآنية، وشرح معنى التقوى وكيفية الحصول عليها برمضان، وشرح معاني ليلة القدر، وبيّن سبب نزول القرآن في تلك الليلة المباركة، وبيَّن أسرار مناسك الحج والحكمة من كل عمل يقوم به الحاج، ودلَّ على طريق الإيمان الحقيقي، وأن الإيمان بالله هو شهود، وليس قول أو اعتراف فقط، مبيّناً معنى كلمة (أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) وكل ذلك في كتابه: **(المدارس العليا للتقوى، درر الأحكام في شرح أركان الإسلام)**.

* وقد بيّن معضلة القضاء والقدر التي حيَّرت أفهام العلماء وفلاسفة اليونان والرومان والجبرية والمعتزلة، وعلماء وفلاسفة الإسلام واليهود والمسيحيين. وفهمه العالي لقوله تعالى﴿... **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء**...﴾[1] ﴿... **يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء**...﴾[2]. وأن المشيئة للعبد السالك بصدق والطالب للهداية وتجنب سبل الغواية، ابتغاء وجه الحقيقة والحق والدين، وبيَّن حرية الاختيار لكل امرئٍ في هذه الدنيا.

* فصّل معنى الأيام الستة المذكورة بالقرآن الكريم﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**...﴾[3]. والتي تاه بها علماء اليهود وعلماء النصارى وعلماء المسلمين، وشرح معنى الليالي العشر، ومعنى السماوات السبع، في كتابه **(الكشف العلمي الجبَّار، الحقيقة الرهيبة للسموات السبع والأيام الستة).**

* وبيّن بالمنطق السليم المدح العظيم الذي استحقه رسول الله ﷺ بسورة عبس، حين عبس النبي الكريم، صاحب الخلق العظيم، لما جاءه عبد الله ابن أم مكتوم، في حين أن المفسرين كلهم خطَّأوا رسول الله ﷺ بمطلع هذه السورة الكريمة، ونفى عن رسول الله ﷺ كل ما ألصق من دسوس بالأدلة القرآنية، فكشف الغطاء عن الحقيقة المحمّدية الطاهرة المقدَّسة المعصومة.

* وبيّن معاني جزء عمّ كلها، وكلمة: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءلُونَ**﴾[4]، شرحاً وتفصيلاً معجزاً بكتابه **(تأويل جزء عمّ).**

(١) _ سورة آل عمران. الآية (١٢٩)
(٢) _ سورة النحل الآية (٩٣)
(٣) _ سورة الأعراف الآية (٥٤)
(٤) _ سورة النبأ الآية (١)

* كما بيّن الحقيقة والرحمة المنطوية بقضية تعدد الزوجات، في أوائل سورة النساء، وحلَّ استعصاء هذه القضية المعضلة، ونسف كل قول يجعل من الإسلام ديناً شهوانياً بالسماح للرجل بالزواج من أربع نساء، دون الرجوع إلى الآية الكريمة وتمامها، والبحث فيها ضمن سياقها، إذ لا يجوز للمسلم الزواج إلا بامرأة واحدة، أما الثانية والثالثة والرابعة فلها شروط مذكورة ببداية الآية الكريمة والتي أهملت ولم يعمل بها، وهي أن تكون المرأة أرملة وعندها أيتام، فالغاية من التعدد غاية سامية إنسانية لأجل الأرامل وتربية الأيتام، وبناء مجتمع صحيح، لا شهوانية نفسية، كما يفسرها الكثيرون، ويعملون على تطبيقها دون ربط الآية ببدايتها، وبذلك جرّوا السمعة السيئة للإسلام والمسلمين، وأصبح الدين (تعدد الزوجات) بمنظارهم ديناً شهوانياً لا إنسانياً.

كذلك بيَّن قوانين الطلاق استنباطاً من القرآن الكريم، وكيفية تطبيق هذه الشروط والأحكام، في حال النشوز ودبّ الخلاف بين الرجل والمرأة، كل ذلك بكتابه(**لمَ الحجاب ولمَ الطلاق ولمَ أكثر من زوجة يا إسلام)؟!**

* كما بيّن غاية الحق من إيجاد الخلق، وسبب خلق الإنسان ومجيئه إلى هذه الدنيا، فشرح عالم الأزل والخلْق الأول وحمل الأمانة، وتصدي الإنسان لها، وشرح السؤال المعجز لماذا يولد الأنبياء أنبياء؟! وعلى أي أساس حكم فيهم تعالى بذلك، فقرر من قبل ولادتهم أنهم أنبياء ورسل كرام!

كما شرح العدل الإلّهي، وبيَّنه بالمنطق الرفيع، وبيَّن سبب الفقر والأمراض والبلاءات، وكل ما يصيب الإنسان في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر، وبيَّن عناصر الإنسان بشرح لافت، فتكلم عن الفرق بين النفس والروح، والفرق بين العقل والفكر، وتحدث عن ماهية كل منهم، وذلك حين أسلم على يديه العالم الإنكليزي الشهير السير جون بينت، حين قصده ليطرح عليه أسئلته التي لم يجد لها طيلة حياته جواباً عنده ولا عند غيره من العلماء قاطبة، فتمَّ اللقاء بينهما

بمدينة دمشق وطرح السير جون بينت أسئلته الكبرى وعن كل ما يجول في فكره عن الإسلام وقوانينه، وعن الصيام والحج والزكاة، والحكمة من كل واحدة منها إلى أن سأله العلاَّمة قائلاً له (هل توصلتم أيها السير أن تدركوا عن كأس الماء الذي تشربونه من أين مصدره؟ فأجاب السير بينت بأن مياه الأمطار هي المصدر الأساسي لشربنا، فردَّ عليه العلاَّمة: إن مياه الأمطار للمزروعات والحيوانات، وبيّن بالحجة الدامغة واستنباطاً من القرآن الكريم، مصادر مياه الينابيع في العالم كله، وجريان الأنهار الكبيرة والصغيرة على وجه المعمورة بأنه ليس من مياه الأمطار قطعاً، وذلك ما لم يعلمه أحد من علماء الغرب والشرق، حقّاً إنها معجزة علمية جبَّارة، إذ أن لهذه الينابيع مصادر أكبر وأغزر من مياه الأمطار، وبيّن بأكثر من ثلاثين دليل علمي وباستناد إلى الآيات الكريمة، أن القطبين الشمالي والجنوبي هما مصدر المياه في كل الينابيع، ولما سمع السير بينت منه هذا البحث وناقشه فيه، أعلن على الفور إسلامه وقال: (عجباً لي طيلة حياتي لم يخطر هذا السؤال على بالي). ولما عاد إلى بلاده قال كلمته المشهورة أمام حشد من العلماء والمثقفين، **((إن كل ما توصلنا إليه من علوم لا يعدل بحر ذلك العالم الكبير في الشرق))**.

* بين الحكمة أيضاً من الختان للذكور، وسبب خلقه تعالى هذه (الحشفة) للذكر وهو في بطن أمه، ثم الحكمة من إزالتها بعد الولادة. وهذا الاكتشاف لم يسبقه إليه أطباء العصر ولا أطباء العصور السابقة كلها. وكل ذلك في كتابه **(مصادر مياه الينابيع في العالم وبحث كشوفات سر الختان)**.

* وإنقاذه للأنعام، بأن بيّن فائدة ذكر اسم الله تعالى على الأنعام أثناء ذبحها بكلمة (الله أكبر)، وأن هذه الأنعام حين الذبح وسماعها لهذه الكلمة العظيمة يفور دمها كله، وينتفض جسمها، فتطرح كل الدم خارج الجسم، ولا يبقى منه شيء

داخل لحمها، فيعطينا الله تعالى لحماً نقياً طاهراً، خالياً من كل جرثوم، وعلى العكس، كل ذبيحة لا يذكر اسم الله عليها، تبقى الجراثيم فيها، ويصبح آكلها معرضاً للأمراض، وأن إهمال ذكر اسم الله على الأنعام، سيعرض الأنعام للإصابة بأمراض خطيرة وفتاكة، كل ذلك استنبطه من الآيات القرآنية.

ولما خضع كلامه للبحث الطبي قام فريق طبي مخبري من أساتذة الطب المخبري في الشرق الأوسط بإجراء التحاليل لأنعام ذبحت وذكر اسم الله عليها، وأنعام ذبحت ولم يذكر اسم الله عليها، فكانت النتائج مثلما قال العلاّمة (مستعمرات الفيروسات والجراثيم تبقى في جسد الذبيحة غير المكبَّر عليها).

وقد أُذيعَ هذا الخبر العلمي من قبل وكالات الأنباء والفضائيات والصحف والمجلات والإذاعات، تحذيراً من عدم ذكر اسم الله على الأنعام، وللأسف بقي الكثير لم يذكر اسم الله عليها، فابتلي العالم بأمراض جنون البقر، وأنفلونزا الطيور، وطاعون الغنم، وهو ما كان قد حذَّر منه العلاّمة استنباطاً من قوله تعالى: ﴿.. **وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾[١] وكل ذلك بكتابه: **(الله أكبر رفقاً بالحيوان).**

* أحيا السنة النبوية الطاهرة، من بعد أن أغلقت عليها كتب القدامى، فجلا الأمراض المعضلة بإحيائه لسنة الحجامة، فبين شروطها الصحيحة والسليمة، بأنها تجرى على منطقة الكاهل حصراً بالظهر، وأنها تجرى صباحاً، وعلى الريق، وفي فصل الربيع، وحينما يكون القمر بالتنازل، أي بعد السابع عشر من الشهر القمري، لعلاقة تأثيره الفعلي على الأرض، فقام فريق طبي كبير مؤلف من حوالي /٣٥٠/ ثلاثمائة وخمسين أستاذاً وطبيباً في الشرق الأوسط، قاموا بدراستها ضمن الشروط التي بيّنها العلاَّمة لمدة ثلاث سنين متتاليات، فجاءت النتائج صاعقة

(١) _ سورة الأنعام. الآية (١٣٨)

بعالم الطب، وظل الاهتمام يزداد بها سنة بعد سنة، حتى عمَّت المعمورة، من شدة فوائدها، ولقد انهالت تقارير الشكر والامتنان لمعيد هذا الفن العلاجي الناجع من جميع أقطار الأرض، في حين طبقها المسلمون وغير المسلمين تحقيقاً من فوائدها، ولقد تبين ذلك من خلال كتابه (**الدواء العجيب الذي شفى من مرض القلب القاتل والسرطان والشلل والشقيقة "الحجامة علمٌ طبيٌ نبوي في منظوره الجديد**").

كما بثَّتها معظم الفضائيات ووكالات الأنباء، وتكلمت عنها الصحف والمجلات، وعُقدت حولها المؤتمرات والندوات، وتبنتها مراكز طبية وصحيّة في العالم التماساً لفوائدها الكثيرة، حيث أنها حوت الطب بكامله بضربة مشرط.

* كذلك كشف السحرة والمشعوذين والدجالين، الذين يتعاونون مع الشياطين، لضرب وأذى الناس بالسحر، وشرح كل الألاعيب والتخيلات التي يجريها السحرة مع الناس، وهم لا يعلمون عن حقيقة السحر شيئاً، وأنه تعاون وثيق بين الساحر والشياطين (القرائن) كإخبار بالمغيبات الوهمية على عمومها، وهذا الأمر قد تفشى في معظم الناس في هذه المعمورة، حتى تكاد لا تجد بيتاً خال من ألاعيب وحيل ومكر السحرة، أو من الضيق والهموم نتيجة تصديقهم لداعي الشيطان، وخاصة أولئك السحرة الذين يخرجون للناس على الفضائيات، ويحدثونهم بأمورهم وعللهم وأمراضهم، فيصدقهم المشاهد أو المتصل من دون علم له أن الساحر يتفق مع قرينه، ويأخذ منه أخباره.

كما بيَّن الحلول وطريق الخلاص والشفاء من هذا الداء دون الرجوع إلى أحد من الناس، وخاصة الذين يدَّعون أنهم يعالجون بالرقية أو آيات القرآن الكريم، وهم لا يعلمون، وكل ذلك في كتابه (**كشف خفايا علوم السحرة**).

* شرح حالة الإنسان عند الموت في كلتا الحالتين إن كان صالحاً أو كافراً، وبيّن حالته بعد الموت وهو بالبرزخ.

* كما شرح آيات الحساب يوم القيامة، وأن أعمال الإنسان بدنياه مطبوعة على صفحات نفسه، يراها يوم القيامة ماثلة أمامه.

* بيّن حقيقة الجنّة بأنها النظر إلى وجه ربه الكريم ذي الجلال والجمال والإكرام، وأن كل ما يناله من نعيم وإكرام ولذائذ، هو دون تلك الجنّة العالية، وذلك بأدلّة منطقية من القرآن الكريم.

كما بيَّن أن النار يوم القيامة هي بمثابة مشفى يعالج بها أرباب العلل والأمراض النفسية بما حملوه معهم من دنياهم، من أعمال منحطة حطَّت من قدرهم أمام الله تعالى، فجعلهم خزيهم وعارهم يطلبون النار (العلاج) ليستريحوا مما هم فيه من آلام تفتك بهم فتكاً، قال رسول الله: **(إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر عليَّ مما ألقى وإنَّه ليعلم ما فيها من شدة العذاب)** [١].

كل ذلك في كتابه **(تأويل القرآن العظيم)** وكتاب **(تأويل الأمين)**.

* كما بين حقيقة الشفاعة والتي تاه فيها معظم العلماء، فظنوها شفاعة وساطة وظلم، يُخْرِجُ الرسول الكريم ﷺ بها من يشاء من النار، وفي ذلك ما فيه من إغراء بارتكاب السيئات، على أمل الشفاعة يوم القيامة، فبيَّن من خلال آيات القرآن الكريم، أن الشفاعة للمؤمن في الدنيا، وتستمر معه إلى الآخرة، وأن الشفاعة اقتران نفس بنفس، كما أن الشفع: وهو أن يقارن شيء شيئاً ويزاوجه ملازماً إياه، أي رابطة النفوس المؤمنة واستشفاعها بالرسول ﷺ، كي يعرج بها إلى الحضرة الإلٓهية، كما ارتبطت نفوس الصحابة الكرام واستشفعت بنفسه الزكية الطاهرة ﷺ،

(١) _ الجامع الصغير /٢٠٧٤/ (ك) عن جابر (ح)

فدخل بهم على الله تعالى، وهم معه دنيا وبرزخ وآخرة، ومن لم يستشفع برسول الله ﷺ في الدنيا، فلا شفاعة له في الآخرة، وإن هي إلا أماني يمنون أنفسهم بها، ليرخِّصوا لبعضهم ارتكاب المحرمات، وأن القرآن الكريم كله ينبِّه الإنسان من مغبّة أعماله، وأنه سيحاسب على كل ذرة من أعماله، إما خيراً فللجنّة، أو شراً بعلاج في النار. وأن رسول الله ﷺ ليس بيده شيء سوى النصح والتذكير، ولا يملك لمخلوق شيئاً بل ولا يملك لنفسه الشريفة شيئاً﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا...**﴾[1].

﴿**يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾[2].

﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ**﴾[3].

هذا البحث الهام بيَّنه مفصلاً في معظم كتبه، وبالأخص كتاب(**حقيقة الشفاعة**) حوار هادئ بين الدكتور مصطفى محمود. والدكتور يوسف القرضاوي.

* كما أنه بيّن حقيقة خروج أبينا آدم من الجنة، وسبب أكله من الشجرة، والحالة التي كان فيها أبونا آدم وأمنا حواء عليهما السلام، قبل الأكل من الشجرة، وأنه بحبه العظيم لربه، نسي الوصية، وأكل من تلك الشجرة، وكل ذلك كان بترتيب من الله تعالى بخروج أبينا آدم عليه السلام من الجنة، وليعطيه بدلاً منها هو وذريته جنات، وليريه تعالى هو وذريته عداوة الشيطان، ليعلم الإنسان أن له عدواً بالمرصاد، فيحتاط منه، ويأخذ حذره فيسير على هدى من ربه الذي اهتدى به الأنبياء الكرام. فيحفظ من الوقوع بالمعاصي، ومن تسلُّط الشيطان عليه.

* كما أنه أول من بيّن حقيقة الإيمان وطريقه المستقيم الذي نص عليه القرآن وسار على نهجه كافة الأنبياء والرسل الكرام.

---

(١)-سورة يونس الآية (٤٩)

(٢)-سورة الإنفطار الآية (١٩)

(٣) _ سورة الزمر الآية (١٩)

* كما بين سبب ورود قصة بني إسرائيل بكثرة في القرآن الكريم، ومجادلتهم لرسولهم الكريم سيدنا موسى عليه السلام، وأن كل امرئ إذا لم يسلك السبيل التي سنَّها الله تعالى لهذا الإنسان، فليس يُفيده أن يرى المعجزات وخوارق العادات، وليس يجعله في عداد المؤمنين أن تأتيه بما تأتيه من آيات، وحجج دامغات، إنما الصدق في طلب الحقيقة وإعمال الفكر في البحث عنها، هو الذي يهدي النفس ويُوردها موارد المعرفة الحقيقية، كل ذلك في كتابه **(تأويل الأمين)**.

* كما بيَّن كل علامات الساعة، ودلائل عودة السيد المسيح عليه السلام من القرآن الكريم، بهذا الكتاب الذي بين أيدينا.

غيض من فيض: كل هذا غيض من فيض مما بيَّنه هذا العلاَّمة الإنساني الكبير، فالبحوث ومجالات التفكير بدلالته، لا تكفيها سطور لمطالعتها، وإنما هي لفتة لبعض ما قدمه وأبداه للبشرية، من علوم القرآن الكريم، وقد تحدث عنه كثير من العلماء الأفاضل، وامتدحوا علمه واستنباطه العميق، وفهمه الكبير للقرآن الكريم، ووجدوا بدعوته ودلالته الصدق والإخلاص، وأنها تجمع الكل تحت لواء القرآن الكريم والسنَّة المطهَّرة لرسول الله الكريم ﷺ، فتزال بهذه الدعوة والدلالة الاختلافات المذهبية المقيتة، المحطمة لدين سيدنا محمد ﷺ والتي أصبحت (هذه المذهبيات) اتِّباعاً للآباء بدلاً من الاتباع للقرآن الكريم، فتحولت الأمة الواحدة إلى أمم، وعن الطريق الحق، إلى فرق وشيع وطوائف، كل حزب بما لديهم فرحون، مكر بهم الداسُّون، بما أشبعوا كتبهم من الأخطاء والمخالفات والتفسيرات المخالفة لأسماء الله الحسنى، ولكمال الأنبياء الكرام، فتاه المسلم، وغرق باختلاف المذاهب والفرق، وعزف عن الدين، ومال إلى الدنيا بسببهم. وقد قال **(الدكتور مصطفى محمود)** إن القرآن الكريم كان مهجوراً قبل علوم هذا العالم الكبير، فعلمه إشراقي وبيانه منطقي، وأنا لم أقرأ بحياتي كلها كلمة واحدة مثل كلماته عند غيره. وقد أفرد

كتاباً خاصاً عنه أسماه: **(نظرات في صحائف فضيلة العلاَّمة الكبير محمد أمين شيخو قدَّس الله سره).**

سامر أحمد الهندي

المدير العام لدار نور البشير

صدر لفضيلة العلاَّمة الإنساني الكبير محمَّد أمين شيخو (قدِّس سره)

١- تأويل جزء عمَّ.

٢- زيارة الرسول ﷺ وأثر محبته في رقي النفس المؤمنة.

٣- عصمة الأنبياء.

٤- درر الأحكام في شرح أركان الإسلام (المدارس العليا للتقوى).

٥- مصادر مياه الينابيع في العالم وبحث كشوفات سر الختان (باللغة العربية).

٦- تأويل القرآن العظيم (أنوار التنزيل وحقائق التأويل) المجلَّد الأول.

٧- تأويل القرآن العظيم (أنوار التنزيل وحقائق التأويل) المجلَّد الثاني.

٨- موسوعة عمَّ (آلاء الرحمن في تأويل القرآن) المجلَّد الأول.

٩- من سير الأبطال للأولاد والأطفال (الغلام الشجاع والجنيَّة) رقم (١).

١٠- من سير الأبطال للأولاد والأطفال (الكلب الذي أصبح حصاناً) رقم (٢).

١١- من سير الأبطال للأولاد والأطفال (الغلام الشجاع وردِّه العملي على خاله) رقم (٣).

١٢- من سير الأبطال للأولاد والأطفال (حلبة الصراع) رقم (٤).

١٣- من سير الأبطال للأولاد والأطفال (تأديب بائع الخضار) رقم(٥).

١٤- من سير الأبطال للأولاد والأطفال (سلمت يداك يا شبل الحي) رقم(٦).

١٥- من سير الأبطال للأولاد والأطفال (مغامرة الفارس الصغير) رقم(٧).

١٦- تأويل الأمين للقرآن العظيم (المجلَّد الأول).

١٧- الترجمة الإنكليزية لكتاب مصادر مياه الينابيع في العالم وبحث كشوفات سر الختان.

١٨-صفحات من المجد الخالد (سيرة حياة العلاَّمة العربي الكبير محمَّد أمين شيخو) المجلَّد الأول.

١٩-حقيقة الشفاعة: حوار بين (د. مصطفى محمود) و(د. يوسف القرضاوي).

٢٠-حقيقة سيدنا محمَّد ﷺ تظهر في القرن العشرين.

٢١-الترجمة الفارسية لكتاب حقيقة سيدنا محمَّد ﷺ تظهر في القرن العشرين.

٢٢-الله أكبر (رفقاً بالحيوان): دراسة علمية طبية حول فائدة ذكر اسم الله على الذبيحة.

٢٣-لِمَ الحجاب، ولِمَ الطلاق، ولِمَ أكثر من زوجة.. يا إسلام؟!

٢٤-الغرب حرَّر الإنسان من العبودية، والإسلام لِمَ لَمْ يُحرِّره؟!

٢٥-الكشف العلمي الجبَّار (الحقيقة الرهيبة للسموات السبع والأيام الستة).

٢٦-صواعق معجزات أمّ الكتاب في القرن الحادي والعشرين.

٢٧-الإيمان (أول المدارس العليا للتقوى).

٢٨-الصلاة (ثاني المدارس العليا للتقوى).

٢٩-الزكاة (ثالث المدارس العليا للتقوى).

٣٠-الصيام (رابع المدارس العليا للتقوى).

٣١-الحج (خامس المدارس العليا للتقوى).

٣٢-حوار هادئ عن فضيلة العلاَّمة العربي الكبير محمَّد أمين شيخو.

٣٣-موسوعة عمَّ (٨) تأويل سورة الماعون.

٣٤-موسوعة عمَّ (٩) تأويل سورة قريش.

٣٥-موسوعة عمَّ (١٠) تأويل سورة الفيل.

٣٦-موسوعة عمَّ (١١) تأويل سورة الهمزة.

٣٧-الدواء العجيب الذي شفى من مرض القلب القاتل والشلل والناعور والشقيقة والعقم والسرطان.

٣٨-العلاَّمة العربي الكبير محمَّد أمين شيخو يرد على معارضيه.

٣٩-البحوث المجيدة.

٤٠-الفتوحات المحمَّدية (الجزء الأول).

٤١-تأويل القرآن العظيم (أنوار التنزيل وحقائق التأويل) المجلَّد الثالث.

٤٢-كشف خفايا علوم السحرة.

٤٣-الترجمة الفارسية لكتاب الله أكبر (رفقاً بالحيوان).

٤٤-حقيقة تيمورلنك العظيم تظهر في القرن الواحد والعشرين (الجزء الأول).

٤٥-السيد المسيح رسول السلام يلوح بالأفق.

* * *

الفهرس

المغارة المقدسة

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ

كتاب جديد كل الجدة غريب كل الغرابة
لم يعهد الناس كتاباً مثله ولم تألف البشرية
مثل هذه المعاني ومع ذلك فإنه لم يكن بدعاً
من البدع لأن

العلّامة محمد أمين شيخو

لم يخرج به عن كتاب الله ولا سنة رسوله الكريم

الناشر


ISBN 978-1-5193-6624-5